المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA مكتبة الإسكندرية

صخور الزمان

دور العلم والدين فى اكتمال الحياة

تأليف: ستيفن جاى جولد

ترجمة: محمود خيال

إشراف وتحرير: محسن يوسف

تقديم: إسماعيل سراج الدين

1188

صخور الزمان

دور العلم والدين فى اكتمال الحياة

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١١٨٨
- صخور الزمان : دور العلم والدين فى اكتمال الحياة
- ستيفن جاى جولد
- محمود خيال
- محسن يوسف
- إسماعيل سراج الدين
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب :

Rocks of Ages :
Science and Religion in the Fullness of life
By: Stephen Jay Gould

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526
Fax: 27354554

صخور الزمان

دور العلم والدين فى اكتمال الحياة

تـــألـــيـــف : ستيفن جاى جولد

ترجـــمـــة : محمود خيال

إشراف وتحرير : محسن يوسف

تقـــديم : إسماعيل سراج الدين

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

جولد، ستيفن جاى

صخور الزمان: دور العلم والدين فى اكتمال الحياة / تأليف: ستيفن جاى جولد؛ ترجمة: محمود خيال؛ إشراف وتحرير : محسن يوسف؛ تقديم: إسماعيل سراج الدين، القاهرة المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٧

٢٦٠ ص، ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة)

١ - الدين والعلم

٢ - العلوم - البحوث

(أ) خيال، محمود (مترجم)

(ب) يوسف، محسن (جـ) سراج الدين، إسماعيل

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٦٤١٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-437-571-8

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

أعتز بصلتي ومعرفتي وصداقتي بالمرحوم الأستاذ الدكتور ستيفن جاى جولد مؤلف هذا الكتاب، ولكن تلك الصداقة والمعرفة لم تكن المصدر الوحيد لسعادتي بصدور الترجمة العربية؛ وذلك لأن الموضوع يمس مشكلة مطروحة بإلحاح، وتتعلق بأهمية احترام العلم والدين، وضرورة الفصل بينهما باعتبارهما الركيزتين الأساسيتين لحياة الإنسان، حيث يتناول المؤلف هذه العلاقة في كتابه، من خلال رحلة ممتعة من المناقشات عبر أحداث التاريخ، ويستعرض فيها ببراعة فائقة منابع الصراع المزيف بين العلم والدين، والأسباب التي من أجلها يتم غرس بذور الشقاق بينهما.

وتؤكد كل الحقائق أن هذا الصراع مصطنع ، خاصة أنه في عصر المعرفة الذى نعيشه حالياً تتأكد النهضة والتقدم بمدى الاهتمام بتوظيف العلم في كل مناحي الحياة والتفكير، التي تتشكل ملامحها الرئيسية في أهمية انتصار العلم والعقل على أي ملامح للتخلف والجهل استطاع الكثير من المجتمعات المتقدمة تجاوزها، من خلال مواجهة الصراع

الزائف بين العلم والدين، الذى يظهر نتيجة للخلط بين النسبى والمطلق، والتعامل معهما بنفس الأدوات.

إن ضرورة احترام العلم لا تنفى أبداً عدم احترام الدين والقيم المصاحبة له، خاصة أن المجال المعرفى للعلم الحديث تحكمه تلك المنظومة المعرفية التى ترجع فى صحة أى جزء منها أو بطلانه إلى العلم التجريبى أو "المنهج العلمى التجريبى" الذى يقوم على الملاحظة الدقيقة والتجريب والعقلانية، كما أنه يطرح بشكل مستمر نتائجه العلمية كافة لإعادة الاختبار والتقنين. وفى مقابل ذلك فإن المجال المعرفى الدينى يقوم على الإيمان بالغيب، ويتعرض لمسائل لا نجد لها فى العلم التجريبى أية إجابة. وهو الأمر الذى يصطنع الاختيار بين العلم والدين.

وهنا يأتى المؤلف برؤيته الثاقبة ومعرفته الواسعة ليرفض هذه الأطروحة، بل يحدثنا حديثًا شيقًا حول مفهوم المعرفة ونوع التساؤل ، حيث يشير إلى أن هناك ما يمكن تسميته بالمجال المعرفى MAGISTERIUH، وهذا المجال المعرفى تحكمه مرجعية واحدة. فيكون المجال المعرفى للعلم الحديث تلك المنظومة المعرفية التى تحتكم فى صحته أو بطلانه إلى ما اتفق على تسميته بالمنهج العلمى التجريبى – كما أشرنا – الذى يتطلب أن تساند الأطروحة الملاحظة الدقيقة فى التجربة تلو التجربة. ثم يقول المؤلف إن هناك مجالاً معرفيًا آخر هو مجال الدين والفلسفة، وهو مجال معرفى تحكمه مرجعية أخرى هى الاحتكام لكتاب الله، وإلى الحجج والأفكار الفلسفية عبر التاريخ.

إن جـوهر فكرة المؤلف فى هذا الكتـاب هـى أن هذين المجـالين المعرفيين لا يتداخلان و أن ذلك واضح من نوع الأسئلة التى يجيب عنها كل منهما. فإذا كنا نسأل ماذا... فقد نجد الإجابة فى المجال المعرفى للعلم الحديث، أما إذا كنا نسأل ماذا يجب أن نفعل؟ فهذه الأسئلة لا إجابة لها فى المجال المعرفى للعلم الحديث، ويجب البحث عن الإجابة عليها فى المجال المعرفى للدين والفلسفة.

ويقول ستيفن جاى جولد إن المجـالين المعرفيين غير متداخلين Non overlapping Magisteria وهذه هى النظرية التى يختصر جولد اسمها إلى "نوما" NOMA، تبين أن للإنسان متطلبات من المعرفة العلمية إلى الأسئلة الفلسفية والدينية وأنه لا عيب فى التعامل مع كل نوع من الأسئلة فى مجاله المعرفى المناسب. ومن ثم فلا صراع بين الدين والعلم وبين الإيمان والعقلانية، بل يعتبر أن هذين المجالين المعرفيين بمثابة "صخور الزمان"، فهما الركيزة التى صارت عليها الإنسانية.

وقد كنت فى حديثى ومناقشاتى مع مؤلف هذا الكتاب أشير دائمًا إلى أن هناك مجالات معرفية أخرى لا تتداخل مع المرجعية المعرفية للدين أو العلم، مثل التمتع بالأعمال الفنية ومثل مفهوم الجمال فى الفنـون التشكيلية، وأيضًا المفاضلة فى التمتع بالموسيقى، وهى تمثل مجـالات معرفية أخرى وكلها لا تتداخل مع العلم التجريبى أو مع الدين.

وخلاصة القول أن المؤلف يرى أن الصراع بين المجالين صراع مصطنع؛ وأنه إذا كانت هناك ضرورة لاحترام العلم باعتباره مصدر التقدم الحضاري، فهناك أيضا ضرورة لاحترام الدين الداعي للقيم السامية والأخلاقيات الرفيعة ومصدر الطمأنينة الداخلية للإنسان. ويشير المؤلف إلى أن هذين المجالين المعرفيين منفصلان ولا يتداخلان، ولكل منهما دور لا ينبغي أن يتعارض مع الآخر، ومن ثم فلا صراع بين الدين والعلم أو بين الإيمان والعقلانية ماداما ظلا مجالين معرفيين متوازيين.

وبالرغم من أن هذا الكتاب يتناول بعض محطات الصراع بين الدين والعلم في المجتمع الغربي في محاولة لكشف هشاشة التناقض المفتعل بين الدين والعلم، فإن التاريخ يشير بكل وضوح إلى أن الصراع بين مؤسسات العلم والدين لم يحتدم في أي منطقة في العالم كما احتدم في أوربا في عصر النهضة وأن أهمية احترام العقل والفكر الإنساني لم تتضح إلا من خلال أحداث هذا العصر وما تلاه من فترات يعرفها التاريخ. هذا وبالرغم من أن المؤلف لم يتعرض مباشرة لقضية هذا الصراع في المجتمعات العربية والإسلامية فإن أي قارئ للكتاب يستطيع أن يستخلص أن جوهر القضية واحد في المجتمعات كافة وعبر التاريخ، وأن العلم والدين يمثلان ضرورتين أساسيتين لغالبية المجتمعات البشرية، ولكن لكل من المجالين مرجعيته المختلفة.

ويشتمل الكتاب على أربعة فصول، ويتناول الفصل الأول طبيعة المجالات التى يغطيها الدين ومدى اختلافها عن طبيعة المجالات التى تتناولها العلوم المختلفة، والتى تتطلب عدم تطبيق أدوات البحث العلمى التى تعتمد على الشك والنقد والتجريب، خاصة أن الطبيعة تجرى حسب قوانين متغيرة وخاضعة للتفسير العلمي، على عكس التصورات والمفاهيم الدينية التى تقوم على الحدس والإيمان الغيبي، كما أن كون الإنسان عالمًا متبحرًا فى أحد العلوم لا ينفى أن يكون أيضًا تقيًا ورعًا، هذا إذا تم الفصل بين مجال العلم ومجال الدين وعدم الخلط بينهما، وذلك من خلال تبنى مفهوم الأروقة المتمايزة، وهو المفهوم الذى يشرحه المؤلف بالتفصيل فى الفصل الثانى مستعينًا بعشرات الأمثلة التاريخية التى كان أبطالها عددًا من العلماء مثل جاليليو ونيوتن، وداروين بالإضافة للعديد من رجال اللاهوت والفلاسفة على امتداد التاريخ الأوروبى .

وفى الفصل الثالث يتناول المؤلف الجذور التاريخية للصراع بين اللاهوت والعلم، وللكشف عن زيف هذا الصراع يتناول بالتفصيل المعركة التى أثيرت من جراء رحلات كريستوفر كولومبس البحرية، والتى كان بعض أطرافها يتبنى التفسير اللاهوتى القائل بأن الأرض منبسطة، فى مواجهة القائلين بكروية الأرض، وهو ما أثبتته هذه الرحلات البحرية، وكذلك الصراع المرتبط بنظرية أصل الأنواع لداروين، والتى يتناقض فيها تفسير الخلق الخاص للإنسان مع نظرية النشوء والارتقاء، ويتناول المؤلف بالتفسير والتحليل جوانب هذه

الصراعات والقوى التى تقف خلفها والضغوط التى مارستها، وكيف يمكن استخدام مفهوم الأروقة المتمايزة لإعادة قراءة هذا الصراع والكشف عن مدى تفاهته.

وفى الفصل الرابع والأخير، يتناول المؤلف كيف أستخدم العلماء - من أمثال دارون - مفهوم الأروقة المتمايزة للدفاع عن نظريته العلمية التى لم تكن تروج للإلحاد، كما يتناول الجزء الأخير من هذا الفصل فشل الدعوة للتوفيق بين العلم والدين بدلاً من تناقضهما، مؤكداً اختلاف وتمايز مجال كل منهما.

والخلاصة أن جميع المناقشات فى الكتاب توضح مدى اهتمام المؤلف بالتشخيص وتحديد الأسباب قبل مباشرة تقديم العلاج، حيث تناول مسألة الصراع بين الدين والعلم بالتحليل من خلال أسبابه التاريخية وبذلك فهو يقدم نموذجًا فريداً فى الكتابة التحليلية، التى تعتمد على معرفة عميقة بآراء الأطراف المختلفة، سواء من المنحازين للدين فى مواجهة العلم أو تلك التى تنحاز للعلم فى مواجهة الدين، والتى تبرز أهمية عدم الخلط بين الدين والعلم أو وضعهما فى أى تناقض، حيث إن هذا التناقض سوف يؤدى إلى خسارة كبيرة للإنسانية، التى تحتاج إلى كليهما لتحقيق الرخاء المادى، وفى الوقت نفسه الثراء الروحى .

وفى الختام، أود أن أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور محمود خيال الذى قام بعبء هذه الترجمة المتميزة، والأستاذ الدكتور سمير بانوب الذى تكفل بمراجعتها، كما يجب أن أتقدم بالشكر أيضًا إلى الأستاذ الدكتور جابر عصفور الذى استجاب لتوصيتى بطباعة هذا العمل ضمن مطبوعات المركز القومى للترجمة، الذى يعد إضافة قيمة للمكتبة العربية.

إسماعيل سراج الدين



تمهيد

أكتب هذا الكتاب الصغير لأطرح من خلاله حلاً بسيطًا متيسراً، لإنهاء الخلاف القائم حول مسألة محفوفة بالمشاعر المتأججة ومشحونة بهموم التاريخ، حتى تاهت معها معالم الطريق، وغابت الرؤية الواضحة لسبيل الحل، وطغت على الأبصار كثافة التشويش وعنف الاحتداد. إننى أتحدث عن الإشكالية المفترضة بين العلم والدين، وهو جدل لا يقوم حقيقة إلا فى أذهان الناس وممارساتهم الاجتماعية، ولا وجود له فى الواقع، لا فى المنطق الصحيح ولا فى التناول الأمثل لأى من هذه الميادين المهمة والحيوية. وفيما عدا بعض الأمثلة المستعملة فى سياق الشرح، فلا أدعى أنى أقدم شيئًا مبتكرًا، حيث إن جدلى يستند على الإجماع القوى لآراء السابقين، كما أقره على مر الدهور، كل من المفكرين العلميين والدينيين على قدم المساواة.

إن تفضيلنا كبشر لربط بعض الأشياء ببعض وتوحيد الأمور، كثيراً ما يقف عائقًا، دون التعرف على إمكانية حل العديد من المشاكل الملحة والحرجة التى تجابهنا فى خضم حياتنا، بأبعادها المتعددة

والمتشابكة، وقد يمكن حلها فى إطار منظومة استراتيجية مختلفة، ترتكز على قواعد الفصل الجدير بكل احترام. يتمنى المخلصون وأصحاب النيات الحسنة أن يسود الوئام والسلام بين العلم والدين، فهما يعملان معًا من أجل إثراء حياتنا ، سواء من الناحية العملية أو الأخلاقية. من هذا المنطلق المنشود، يخطئ كثير من الناس فى تصور أن العمل المشترك بينهما، يعنى حتمية استخدام وتطبيق الأساليب البحثية والموضوعية ذاتها ، فيبحثون عن قوة عاقلة كبرى، بإمكانها تحقيق الوحدة بين العلم والدين، إما بإضفاء لمسة إلهية شاملة المعارف والمدارك على مختلف مناحي الطبيعة، وإما بمعالجة وتطويع منطق العقيدة والتحول به إلى مرتبة قاهرة، يستحيل مع وجودها فى النهاية وجود أنماط أخرى غير مؤمنة. لكن كما أن الجسد البشرى يحتاج من أجل صحته وبقائه إلى كل من الطعام والنوم، فإن النظرة التحليلية السليمة لأى "كل"، تستدعي بالضرورة الاهتمام والتدقيق فى كل المكونات الفرعية. فلا بد لنا من أن نعيش كامل الحياة، ونخالط الأفراد فى منازلهم من مختلف الأحياء، حتى تصح الرؤية بدرجة مرضية، لكل راغب ومناضل من أجل التعددية.

لا أرى كيف يمكن توحيد العلم والدين، أو حتى تشييدهما تحت أى نظام موحد من التفسير أو التحليل، كذلك لا أرى سببًا لحدوث أى تناقض بينهما. فالعلم يجتهد ليؤصل الصفات الحقيقية للعالم الطبيعي، وينمى من أجل ذلك النظريات التى تنسق وتشرح هذه الحقائق، أما

الدين فيعمل بالدرجة ذاتها من الأهمية ولكن على صعيد مختلف تماماً؛ فميدانه يتصل بأسباب الوجود وأهداف الإنسان والمعانى والقيم، وكلها أمور يمكن الاستعانة عليها، بمعطيات العلم المادية، التى تعجز تمامًا عن حل رموزها وشرحها. كذلك فإن هناك ضرورة لالتزام العلماء بالقيم الأخلاقية، وبعضها قد يكون محدداً بنوعية التخصص، إلا أن تحديد هذه القيم ومدى مصداقيتها، لا يمكن أن ينبع من مجرد الاكتشافات العلمية المادية وحدها.

أقترح أن نتفق جميعًا على احتضان المبدأ المحورى بشأن عدم تداخل الميدانيْن، مع الاستفاضة فى المناقشات العميقة لكل من هذيْن المجاليْن المنفصلين اللذيْن يكوّنان قاعدتيْن مركزيتيْن فى الوجود الإنسانى، وذلك هو مبدأ "الأروقة[١] المتمايزة[٢]" (Non Overlapping Magisteria، (NOMA)، وكلى ثقة من أن زملاءنا الكاثوليك لن يعترضوا على اقتباس لفظ ماجيستيريوم (الرواق التعليمى المبجل) Magisterium من سياقهم ؛ حيث تمثل الكلمة مكانًا جامعًا للسلطة والوقار ومخصصًا للتعليم، ويتميز بكل إجلال وتقدير.

وعلى الرغم من أن مقاطع الكلمة البسيطة، فقد وجدتها مناسبة تمامًا لفكرة هذا الكتاب، فأقدمت على المغامرة باستخدامها وفرضها على مفردات القارئ. ثم إن رجائى فى تسامحكم وفى جهدكم معى، يتضمن أيضًا شرطًا أساسيًا، بألا نخلط بين هذا اللفظ (ماجيستيريوم)

ومفردات لغوية أخرى مقاربة له، ولكن مختلفة تمامًا فى المعنى مثل ماجسيتيك، وماجيستى (Majesty Majestic) بمعنى العظمة والجلالة، وهو خطأ شائع، خاصة أن الحياة الكاثوليكية تتميز أيضا بوجود سمات عديدة من ممارسات التعظيم والإجلال. إن هذه الكلمات الأخيرة مشتقة من أصل لاتينى آخر هو ماجيستاس Majestas المشتق بدوره من الجذر ماجناس Magnus بمعنى الكبير أو العظيم، وتتضمن مفهوم السيادة من ناحية والطاعة التامة من ناحية أخرى، أما لفظ ماجيستيريوم (الرواق التعليمى المبجل) فهو ميدان يمتلك فيه المعلم الوسائل والأدوات اللازمة، لتمام القدرة على الحوار وإلقاء المواعظ الموضوعية، مع تمكنه الكامل من تقديم الإجابات والحلول المناسبة. والقصد أننا عندما نتناقش ونتحاور فى رحاب الرواق المبجل، فإننا ننخرط فى هيبة السكون ونخضع للطاعة المفترضة فى حضرة الجلال.

لبلورة الموضوع – مع قليل من التكرار – فالخلاصة أن رواق العلم يغطى ربوع المساحات الخاضعة للتجربة العلمية، مثل مكونات الكون (الحقائق)، وكيفية أداء هذه المكونات لأدوارها (النظريات)، فى المقابل فإن رواق الدين يمتد ليغطى التساؤلات حول مغزى الوجود، وقيمه الأخلاقية والمعنوية. على ذلك فإن الرواقين لا يتداخلان ولا يمتزجان، ولا هما يغطيان كل التساؤلات (خذ مثلاً رواق الفن ومعنى الجمال). فإذا استعملنا أحد التعبيرات الشائعة القديمة، فيجوز القول بأن لعلم تاريخ الصخور[٣] (Age of Rocks) وفى المقابل يجوز وصف الدين بأنه:

صخرة الأزمان Rock of Ages، فالعلم يبحث ويدرس كيفية تكوين وآليات عمل ماديات الكون والسماوات، أما الدين فيتناول كيفية التوجه والوصول الى السماوات والجنة.

سأتناول قاعدة الأروقة المتمايزة بوصفها حلاً للإشكالية الكاذبة القائمة بين العلم والدين في أربعة فصول، الفصل الأول يشتمل على المقدمة المبنية على روايتَين مع توضيح تباينهما. ثم أتناول في الفصل الثاني تحديد مفهوم الأروقة المتمايزة وتوضيحها بوضعها الحالي المدعوم من كلٍ من المؤسستَين العلمية والدينية. أما الفصل الثالث فيتضمن المعالم العامة للأسباب التاريخية لوجود خلافات، ما كان يجب وجودها من الأصل. ثم يضم الفصل الرابع موجزاً عن الأسباب النفسية التي أدت إلى وجود هذه الخلافات الكاذبة، مع خاتمة بالسبيل المقترح لإيجاد أفضل الوسائل للتعامل مع المنطقتَين.

أشعر بالأسى تجاه الحالة الراهنة من وجود ميول للإقرار الأدبي، بمدى الخلط الذي أفرزته حضارتنا بين مسألتَين مختلفتَين تماماً من أساسهما، على الرغم من تناقضهما الصريح، وهما مسألة الشهرة الاجتماعية من جانب، وقيمة المكانة الرفيعة المكتسبة من النضج الذاتي والبناء الشخصي المتين من الجانب الآخر. كذلك فأنا مقتنع بأن بعض المواضيع الثقافية ذات الاهتمام الشخصي البارز، تعلي شيئاً من الواجب على ذوي المعرفة لإيضاحها، وقد ابتدع مونتين[٤] Montaigne في القرن السادس عشر تعريفاً للمقالة أو الخطاب، وقرن بين معنى

المقالة وكونها مناقشة للأفكار العامة فى إطار الرؤية الشخصية. وتأسيساً على ذلك، دعونى أعبر بإيجاز عن المفهوم الذى تولد لدى من خلال رحلة تجاربى الشخصية فى الحياة.

لقد ولدت فى مجتمع بدا فى حينه وكأنه عادى جداً، وغير مثير بالمرة لأى اهتمام عندى. نشأت فى عائلة يهودية بمدينة نيويورك، فى سياق تسلسل تقليدى لتتابع الأجيال؛ فالجدود الأوائل كانوا من المهاجرين، وبدءوا حياتهم بالعمل فى محلات الحلوى وأما الآباء الذين ارتقوا إلى الأطراف الدنيا للطبقات المتوسطة، فلم يكن لهم حظ فى الالتحاق بالمدارس العليا، وأما الجيل الثالث فقد توجه إلى التعليم العالى واحتراف المهن، فى مسيرة تكاملية نحو رسم صورة لتاريخ الأسرة الممتد (فى هذا الصدد، أذكر مدى حيرتى وشكى، حين أوضحت زوجة أحد الزملاء من ذوى الحسب والنسب، ما رأته فى خلفيتى العائلية من غرابة وإدهاش، كما أذكر واقعتيْن تعبران بوضوح، عن مدى ضيق أفقى المزيف وأنا طفل فى شوارع نيويورك، الأولى عندما أبلغنى والدى أن البروتستانتية هى أكثر الديانات انتشاراً فى أمريكا ولم أصدقه، حيث إن معظم جيراننا - إن لم يكن كلهم - إما من الكاثوليك وإما من اليهود، من المنتمين إلى الطبقات الاجتماعية النامية فى المدينة، من ذوى الأصول الأيرلندية أو الإيطالية أو من أوروبا الشرقية، وقد كانوا فى مجملهم يمثلون كل العالم الذى أعرفه حينذاك. الثانية حين قدمنى صديقى البروتستانتى الوحيد، القادم من مدينة كانساس، إلى من زعم

أنهما جده وجدته، ولم أصدقه، فقد كانوا يتحدثان الانجليزية بطلاقة وبلا أية لكنة غريبة ، هذا في الوقت الذى لم يتعدَ فيه مفهومى عن الجدود كونهم مجرد "مهاجرين أوروبيين".

كنت أحلم بأن أصبح عالمًا بصفة عامة، وخصوصًا فى علم المستحاثات (الحفريات) القديمة، كان ذلك مُنذ زيارتى فى سن الخامسة لمتحف التاريخ الطبيعى بنيويورك ومشاهدتى هيكل أحد الديناصورات الضخمة(٥) الذى أرعبنى بهيئته وصراخه (المصطنع). ولقد كان لى حظ وافر حيث إننى حققت هذه الآمال، وأحببت عملى الذى منحنى كل السعادة حتى يومنا هذا، دون أن تعترينى لحظة واحدة من التردد أو الملل.

كذلك كان لى نصيب من الفائدة الكبرى التى تتسم بها الثقافة اليهودية، حتى فى أدنى الحالات الاقتصادية، ألا وهى احترام التعليم. لم يكن لى فى المقابل أى تعليم دينى بشكل رسمي، حتى أنه لم يكن لى بار ميتزفاه(٦) Bar mitzvah، لأن والدىَّ انشقا واعترضا على المسلمات السابقة للخلفيات العائلية (فى اعتقادى الحالى أنهم تماديا فى ذلك أكثر من اللازم وعلى أية حال فإن الآراء حول مثل هذه الأمور تميل إلى التأرجح كالبندول من جيل إلى جيل، ولعلها تستقر يومًا فى موضع متوسط رزين). لكن بقى لدى أهلى الاعتزاز والفخر بالتاريخ والتراث اليهوديين، مع الابتعاد عن كل المعتقدات الدينية (احتلت مسألة الإبادة الجماعية لليهود مكانًا بارزًا لدى والدتى - وهى لا تمثل لى شخصيًا

شيئًا معينًا، لعدم معرفتي أو قرابتي لأي من الضحايا - مع الوضع في الاعتبار أن إنكارها أو تناسيها، لم يكونا من بين الاختيارات المطروحة أمامهما).

أنا لست مؤمنًا ؛ فأنا من اللا أدريين[٧] بمعناه العاقل الذى أورده ت. هـ. هاكسلي[٨] T. H. Huxley، حيث استعمل اللفظ في تحديده لتشكل العقل المتفتح، ثم وصفه بالموقف الوحيد العقلاني، وحقيقة، لا يمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين. ومع ذلك فإنى أحتفظ بكل الاحترام للدين، على الرغم من هجرى لآراء أهلي (وتحررى أثناء نشأتي من أسباب عدم رضاهم). لقد بهرتني وشدتني المسألة على الدوام دون القضايا الأخرى (مع بعض الاستثناءات القليلة مثل مسألة التطور والمستحاثات ولعب الكرة). ويقع معظم هذا الانبهار بسبب ضخامة حجم المتناقضات التاريخية التى تبنتها المؤسسة الدينية، فعبر تاريخ الغرب، نجد كمًا هائلاً من الأهوال التى ينأى اللسان عن النطق بها، وفي المقابل نجد أروع وأرق الأمثلة الإنسانية التى تمس نياط القلوب. (في اعتقادي أن الشر كل الشر يكمن في الخلافات المتكررة المتقاربة بين الدين وقوى العلمانية. ولقد شاركت المسيحية بنصيبها فى دعم الأهوال - من محاكم التفتيش الى التصفية الجسدية - ولم يكن هذا إلا بسبب تملك هذه المؤسسة وسيطرتها على قوى المجتمع المدنى لفترات طويلة عبر تاريخ الغرب. كذلك حدث الشيء نفسه عندما نحا قومي نحواً

مماثلاً من التطرف - بشكل أكثر إيجازاً في عصور العهد القديم - فاقترفنا الجرائم الوحشية نفسها، مستندين إلى الحجج والمبررات عينها).

أؤمن بكل جوارحي بوجود توافق ليس محترمًا فقط، بل مفعم بالحب بين الأروقة المتمايزة للعلم والدين. تمثل الأروقة المتمايزة مكانًا مرموقًا مبنيًا على المبادئ على أرض الأخلاق والمعرفة وليست بحال من الأحوال مجرد حل دبلوماسي. كما أن مضمون مبدأ الأروقة يقطع كلاً من الطريقيْن (العلم والدين)، فإذا كان الدين لا يستطيع الاستمرار في إملائه لطبيعة الاستنتاجات المادية الحقيقية وهي المستقرة تمامًا داخل نطاق رواق العلم، فكذلك لا يستطيع العلماء ادعاء مقدرتهم على رؤية أفضل للحقائق الأخلاقية، أكثر من أية قوة معرفية عليا في ناموس عالمنا الرشيد. يقودنا هذا التواضع المتبادل إلى نتائج عملية مهمة في عالم مشحون بكل هذه التنويعات والانفعالات، ولعلنا نفعل خيراً بتبنينا للمبدأ؛ علنا نسعد بالعواقب.



تحديد المشكلة

قصة توما وتوماس

يقدم لنا إنجيل يوحنا شخصية القديس توما في ثلاثة مواقف بارزة، ينطوى كل منها على قيم أخلاقية ودينية مهمة، وتتلاقى تلك المواقف بصورة مدهشة، لتساعدنا على فهم ماهية القوى المختلفة لكلٍ من الدين والعلم، وطبيعة عمل كل منها. نلتقى بتوما لأول مرة فى الإصحاح الحادى عشر، وذلك فى سياق أحداث وفاة لعازر[٩](لازاروس Lazarus)، الصديق العزيز للمسيح ببلدة جوداية (Judaea)، وإبداء المسيح لرغبته فى العودة إلى البلدة لإعادة صديقه للحياة. لكن يتردد الحوارى توما ويذكِّر المسيح بعداوة وعنف أهل القرية الذين سبق أن رموهم بالحجارة أثناء آخر زيارة لهم هناك، فيرد عليه المسيح، بأسلوبه المعتاد فى ضرب الأمثال المقتضبة الغامضة، منتهياً بتأكيده على عزمه وعلى ضرورة الذهاب إلى لعازر، فيتصدى توما لحل الإشكالية، وليعيد الثقة إلى نفوس باقى الحواريين[١٠]، " فقال توما - الذى يقال له التوأم - لرفقائه التلاميذ : " لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه".

ثم يأتى المشهد الثانى فى الإصحاح الرابع عشر؛ حيث يصرح المسيح أثناء العشاء الأخير بأنه ستتم خيانته، وبالتالى فلابد من تحمله الموت الجسدى، لكنه سيذهب إلى مكان أفضل، وسيمهد الطريق لحوارييه(١١):"فى بيت أبى منازل كثيرة...أنا أمضى لأعد لكم مكانًا". ويتساءل توماس وقد تملكه الارتباك(١٢): " قال له توما يا سيد لسنا نعلم أين تذهب فكيف نقدر أن نعرف الطريق ." فيجيب المسيح فى واحدة من أشهر آيات الإنجيل(١٣): "قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتى إلى الأب إلا بى".

وتبعًا للأسطورة، فقد عاش توما حياة مفعمة بالشجاعة بعد موت المسيح، ناشرًا التعاليم على طول الطريق إلى الهند. تُظهر الواقعتان السابقتان ما كان لتوما من خصائص البطولة الفذة، وكذا تساؤله القائم على الإيمان. ثم نتعرف أكثر على توما من خلال الواقعة الثالثة، التى تُظهر أيضًا ما كان لديه من شكوك، والتى اشتهر بسببها فى لغتنا الدارجة الحديثة باسم توما الشكاك. ففى الإصحاح العشرين، يتجلى المسيح بعد قيامته لمريم المجدلية، ثم بعدها لباقى الحواريين ماعدا الشخص الوحيد الغائب، توما. وتستطرد الرواية المشهورة كالآتى(١٤):

"أما توما أحد الاثنى عشر الذى يقال له التوأم، فلم يكن معهم حين جاء يسوع(*) فقال له التلاميذ الآخرون : قد رأينا الرب. فقال لهم إن لم

أبصر فى يديه أثر المسامير، وأضع إصبعى فى أثر المسامير وأضع يدى فى جنبه لا أؤمن" .

تُستكمل أبعاد الرواية الأخلاقية لرجل شجاع متسائل، قاده الشك إلى حافة الضلال، فيأتيه التهذيب والصفح من خلال موعظة عظيمة لنا جميعًا، تحمل فى طياتها الكثير من الحنان والصراحة، ثم يعود المسيح للظهور مرة أخرى بعدها بأسبوع(١٥):

"...فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف فى الوسط وقال سلام لكم(*)، ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدى، وهات يدك وضعها فى جنبى، ولا تكن غير مؤمن، بل مؤمنا(*) أجاب توما وقال له ربى وإلهى."

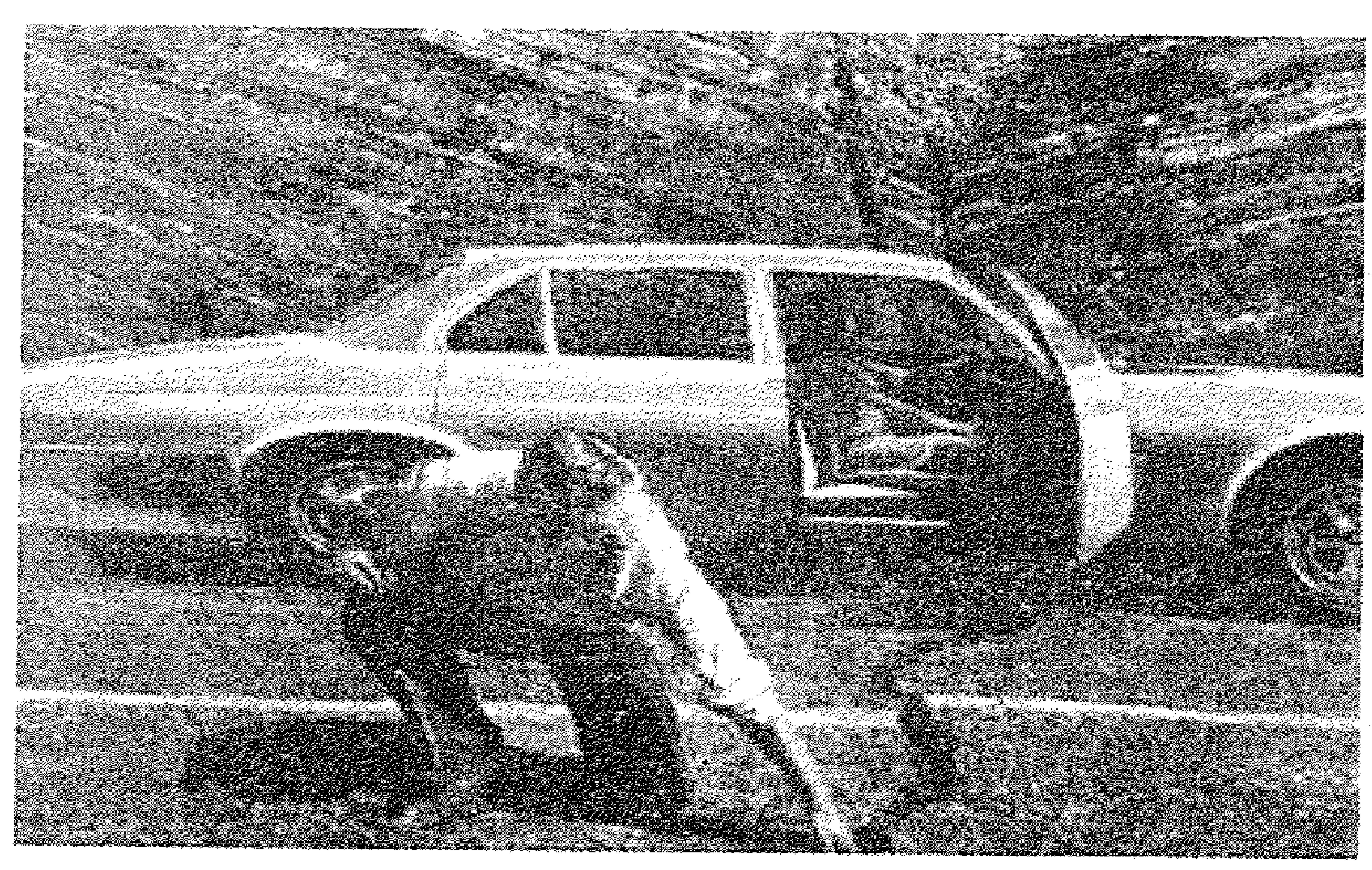
(تكتسب هذه الآية أهمية عظمى فى التأويل التقليدى للكتاب المقدس، فهى تمثل المرة الأولى التى يُعرِّف فيها أحد الحواريين عيسى كإله. يشير أتباع الثالوث إلى كلمات توما، كدليل على الطبيعة الثلاثية للإله، كالأب والابن وروح القدس فى الوقت نفسه. أما أنصار المذهب التوحيدى من منكرى الثالوث، فيضطرون للالتفاف حول المعنى الحرفى، محتجين مثلا بأن ما تفوه به توما، لا يعدو كونه قسمًا دالاً على دهشته البالغة، لا كدليل على تطابق ماهية المسيح والإله). على أية حال، فإن تأنيب المسيح الرقيق يحمل فى ثناياه قيم الخط الأخلاقى العام، كما يبرز أسس التفرقة بين الإيمان والعلم:

"فيقول له المسيح لأنك رأيتني يا توما آمنت، طوبى للذين آمنوا ولم يروْ".

يجتاز توما الاختبار بنجاح، لأنه أخذ بدليل تجربته وملاحظاته، وعليه فقد تخلص من سابق تشككاته. لكن مجرد شكه يجسد ضعفاً؛ لأنه كان يجب أن يعلم من خلال الاعتقاد والإيمان، أن النص المقدس يشير إلى فشل توما من خلال حاجته الشديدة ليرى كلاً من منظومتي الخصائص (اليد والجانب)، واستعمال حاستيْن مختلفتيْن (البصر واللمس)، من أجل تلطيف حدة شكوكه.

يهوى الرسام المعاصر مارك تانسي Mark Tansey تمثيل الأخلاقيات السامية والدروس الفلسفية لتاريخ الغرب، بنماذج حديثة مستعارة بأسلوب متعدٍ للواقعية، وقد مثل الشك الذى ساور شخصية توما المركبة، ففى عام ١٩٨٦ رسم شخصاً لا يقر عموماً بظاهرة تحرك القارات، ولا بحقيقة الزلازل على وجه الخصوص. فقد شق زلزال إحدى طرق كاليفورنيا والجرف المجاور له.

وظل الشك يساور الرجل، فيشير على زوجته الجالسة إلى عجلة القيادة فى السيارة، أن تقف بالسيارة بحيث تغطى جانبى الشق، فى حين يذهب هو ليدفع بيده فى الشرخ الأرضى، أو ما يماثل ما فعله توما عندما دفع بيده فى جانب المسيح. أطلق تانسى على لوحته اسم "توما الشكاك".



لوحة توماس (توما) الشكاك للفنان مارك تانسى

من باب المبدأ، فإنى أقبل بوضع أخلاقيات هذه الرواية فى رواق القيم وأسس الأخلاق. أما إذا شئت مناقشة أساسيات الموضوع وأن تختبر النتائج، فسينتابك الغضب فى كل مرة وقد يجرك الغضب إلى القتل، وسيتضح حينها مدى ضعف إيمانك بالوصية السادسة[١٦] لعل الإيمان الراسخ فى هذه الحالات يكون أكثر نعمة (وأكثر مدعاة للثقة)، مما لدى الذين يجادلون ويطالبون بالعقلانية فى كل مرة. مباركون هم الذين لا حاجة لديهم إلى ذلك، ومع ذلك يعرفون طريق العدالة والأدب. وبهذا المعنى استحق توماس طهارته، فى حين أصبح المسيح فى منزلة المعلم الكبير؛ من خلال اعتراضه اللطيف الصارم.

لكنى لا أستطيع أن أفكر فى مقولة أكثر غرابة وبعداً عن معايير العلم العادية (بالطبع أكثر بعداً عن رواق العلم)، من احتفاء المسيح بطهارة توما: "...طوبى للذين آمنوا ولم يروا"؛ حيث يمثل التشكك تجاه أية ادعاءات مبنية فقط على السلطة - مقروناً بطلب الدليل المباشر (خاصة لدعم الادعاءات غير العادية) - الوصية الأولى والمطلب الأول فى الأسلوب العلمي الصحيح. بالنسبة إلى أحد نماذج التساؤل والبحث، فقد تصرف توما المسكين فى هذه اللحظة الحرجة بشكل يستحق كل الإعجاب، ولكن فى الرواق الخطأ. حيث استغل المبدأ الرئيسى للعلم، أثناء اجتهاده فى رحاب الرواق المختلف الخاص بالدين.

فإذا كان توما الرسول قد أخطأ بتبنيه أساسيات العلم العادية، فى الرواق الخطأ الخاص بالدين، فتعالوا ننظر فى الطرف المقابل إلى توماس آخر، جرت العادة على النظر إليه (لكن بطريقة خاطئة)، على أنه مناقض تماماً لتوما فى الاتجاه، ولكنْ مساو له فى الثقل، كرجل من رجال الدين المذهبيين، وقد اقتحم رواق العلم بغير حق. إن توما، أو توماس الآخر، هو القس توماس بيرنيت[١٧] Thomas Burnet (١٦٣٥ - ١٧١٥)، وهو غير معروف خارج دوائر المحترفين فى أيامنا هذه، إلا أنه ألف أحد أهم الكتب أثراً فى أواخر القرن السابع عشر، بعنوان "النظرية المقدسة للكرة الأرضية "The Sacred Theory of the Earth"، وهو كتاب مكون من أربعة أجزاء، خصص الجزء الأول لطوفان نوح، والثانى للفردوس، والثالث لاحتراق العالم فى المستقبل، والرابع

بعنوان ما يتعلق بالسماوات والأرض الجديدة، أو "استرداد الفردوس بعد الحريق الهائل". علاوة على رواج الكتاب ووصوله ليكون أكثر الكتب مبيعًا فى حينه، فقد اكتسب شهرة واسعة لمدة طويلة، باعتباره مصدر الإلهام الأساسى (فى مجال النقد أساسًا) لاثنين من أعظم وأكمل أعمال الثقافة التاريخية فى القرن الثامن عشر، وهما: كتاب العلم الجديد" ((New Science، Scienza nuova) لمؤلفه جيمباتيستا فيكو Gimbattista Vico، الصادر فى عام ١٧٢٥ ويدور حول تأسيس الدراسات التاريخية لعلم الإنسانيات الحضارى، وكتاب "التاريخ الطبيعى" Histoire Naturelle، لمؤلفه جورج بوفون Georges Buffon الذى يعد الخلاصة الوافية رفيعة الشأن عن عالم الطبيعة، والذى بدأه فى عام ١٧٤٩ يهمل العلماء المعاصرون بيرنيت باعتباره مخبولاً سخيفًا، أو قوة شريرة حاولت إعادة فرض المسلمات العقائدية لسلطان النص المقدس، على التوجهات الحديثة للعلم الصادق، فها هو كتاب "مؤسسو علم الجيولوجيا" لمؤلفه أرشيبالد جايكى Archibald Geikie Founders of Geology by: طبعة ١٩٠٥ ، الذى كان بمثابة المرجعية الأساسية لعلم تاريخ طبقات الأرض، يشير إلى كتاب بيرنيت بوصفه من ضمن "التعاليم الوحشية"، التى لوثت علم النصف الأخير من القرن السابع عشر، كما أن هناك أحد المراجع الحديثة التى تصف أعمال بيرنيت بأنها سلسلة من الأفكار غير السوية، حول نشأة الأرض وتطورها. كذلك يوجد من يصرف النظر عن "النظرية المقدسة للأرض" باعتبارها نزوة شاذة للعلم الكاذب.

من البديهى أن بيرنيت لم يعمل كأحد العلماء المعاصرين، لكنه اتبع القواعد النموذجية لعصره بإخلاص، ليستقر بجدارة داخل نطاق رواق البحث العلمي. بدأ برنت بافتراض أن الإنجيل جاء برواية حقيقية عن تاريخ الأرض، لكنه لم يصر على التمسك بحرفية النص. بل إنه - فى الواقع - فقد مكانته المرموقة كالقس الشخصى للملك وليام الثالث، لتفضيله التأويلات المجازية لتفسير الخلق التى وردت فى سفر التكوين؛ حيث ساق الاحتمال بكون الأيام الإلهية الستة قد تعنى مدداً غير محددة ولا تعنى بالضرورة أربعًا وعشرين ساعة، أو دورة مادية كاملة حول محور ما.

وعلى الرغم من قبول بيرنيت بما جاء فى النص الدينى على أنه وصف عام للأحداث الفعلية، فقد تمسك بقاعدة مهمة ووضعها فى المقام الأول، مفادها أنه لا يمكن اعتبار الشروح والإيضاحات المتعلقة بتاريخ الأرض وافية، ما لم تخضع كل الأحداث والجزئيات للقوانين الطبيعية الثابتة، التى تعمل بشكل معروف ومنتظم، كما أوضحها صديقه الحميم فى ذلك الوقت، إسحق نيوتن Isaac Newton فيما يتعلق بالجاذبية وغيرها من الظواهر الأساسية. لعل إصرار بيرنيت وتمسكه بمبدأ إرجاع تفسير كل الظواهر الطبيعية المتعلقة بتاريخ الأرض إلى القوانين الطبيعية، كان وراء اعتبار آرائه شاذة وغير مقبولة. فلم يكن له فى ذلك الحين، ما يستطيع أن يفسر به عنف الأحداث المدمرة التى وردت فى الروايات الدينية، مثل الطوفان الكبير والحرائق الهائلة.

على سبيل المثال، بدأ بيرنيت في البحث عن مصدر المياه التي سببت طوفان نوح، (وقد أخطأ كثيراً في تقديره حجم المحيطات وعمقها) وعلى ذلك فإنه اعتقد أن مياه البحار غير كافية لتغطية الجبال، وقد كتب: "إذا أمكن للإنسان أن يغرق في قطرات لعابه، فمن الممكن أن يغرق العالم في مياهه". على ذلك رفض بيرنيت أبسط التفسيرات التقليدية المتاحة في عصره، ألا وهي أن القدرة الإلهية قد خلقت المياه الإضافية اللازمة لإغراق الأرض بمعجزة. وذلك لأن المعجزة بتعريفها على أنها إيقاف لقوانين الطبيعة، فهي لابد أن تقع خارج نطاق التفسير العلمي. استدعى بيرنيت قصة الإسكندر الأكبر والعقدة الجوردية Gordian knot، ورفض بالتبعية "الأسلوب السهل" باعتباره مدمراً للسياق العلمي (بناءً على الأسطورة، فعندما وصل الإسكندر إلى مدينة جورديوم عاصمة فريجيا "تقريبًا تركيا الآن"، وجد عربة حربية مربوطة إلى شاهد كبير، بحبال معقودة على درجة عالية من التعقيد، ووجد الناس يتداولون مقولة إن من يستطيع فك العقدة سيكون له غزو آسيا. تحايل الإسكندر على قواعد اللعبة، وما كان منه إلا أن استعمل قوة سيفه الغاشمة ليطيح بالعقدة، في تصرف يمكن أن يصفه البعض بالصفاقة، أما أنا- وأعتقد أن بيرنيت كان سيتفق معي- فقد سميته تصرفًا معاديًا للحضارة). كتب بيرنيت:

"يقولون باختصار، إن الله سبحانه خلق المياه بهدف إحداث الفيضان المدمر، ثم أفناها حين آن للفيضان أن ينتهي، وفي كلمات

قليلة، فإن هذه هى المسألة بأكملها. وهو ما يعادل قطع العقدة حين لا نتمكن من فضها".

بدلاً من ذلك، صمم بيرنيت نظرية مدهشة فى غرابتها، بافتراض أن الأرض كانت فى بدايتها كاملة الاستدارة، ولها قشرة صلبة ملساء، تختزن تحتها طبقة من الماء (مكونة للمخزون البديهى اللازم لطوفان نوح)، ومع الوقت، تجف القشرة وتتشقق، فيخرج الماء من الشقوق، وتتكون السحب، ثم تهطل الأمطار، فتلتئم الشروخ، وفى نهاية الأمر يزداد ضغط المياه أسفل القشرة، فيندفع الماء بقوة محدثًا الطوفان، ومحدثًا الطبيعة الوعرة والتضاريس المعروفة لشكل سطح الأرض، كما نعرفها اليوم. على الرغم من كل ما يبدو فى النظرية من غرابة، فإن كل جزئياتها مردود إلى قوانين الطبيعة. وبذلك يمكن إخضاعها للاختبار، كما أن من الجائز إثبات فشلها فى رحاب رواق العلم. وقد حدث هذا بالفعل؛ حيث تم اختبار أفكار بيرنيت ووجدت زائفة وشاذة، مما أدى إلى شطب اسمه من مجمع رواد العلم الكبار. لو جنح بيرنيت ببساطة لتبنى الأفكار السائدة حينذاك، بالتدخل الإلهى المباشر فى خلق مياة الطوفان، لما أحدثت مقالاته أثرها، ولما ألهمت كبار المفكرين الذين جاءوا من بعده، من أمثال بوفون وفيكو وكثيرين غيرهما.

لا ريب فى أن بيرنيت اتبع المسار العام نفسه، لمجموعة الرجال الأتقياء العظام، الذين أسسوا للعلم الحديث فى بريطانيا، فى نهاية القرن السابع عشر، أمثال: نيوتن وهالى Halley وبويل Boyle وهوك

Hooke وراى Ray وبيرنيت نفسه. وبقدر ما تسمح به بلاغة اللغة، فإن هؤلاء الرجال بينوا فى جدلهم، أن الله لا يمكن أن يسمح بوجود تناقض بين كلمته (المسجلة فى الكتاب المقدس)، وأفعاله (ممثلة فى العالم الطبيعى). لا تقدم هذه الحجة - فى حد ذاتها - أى دعم منطقى للعلم، بالعكس فإنها يمكن أن تتعارض مع مطلبى الأساسى، بالفصل الكامل بين رواقى العلم والدين، ذلك أنه إذا لزم أن تتوافق الأعمال (العالم الطبيعى) مع الكلمات (النص المقدس)، للزم أن يصبح العلم ممتزجًا بالدين، ومحدداً ومقيداً بالدين، وقابعًا وخاضعًا للدين، وقد يصح هذا الوضع من وجهة نظر أحد التفسيرات، لكن ليس كما عرف هؤلاء الناس مفهوم العلم. (انظر دائمًا إلى أدق التفاصيل والفروق، ولا تأخذ بالانطباع الأول للجمل الغامضة). لا شك أن الله خلق الطبيعة من بداية ما، خارج مدركات العلم، لكنه أيضا أرسى قواعد القوانين الثابتة ليجرى بها الكون، بلا أى تدخل بعد ذلك وإلى الأبد (من المؤكد أن القدرة العليا تعمل بهذا الأسلوب من الكمال، وليس بإجراء تعديلات متكررة تالية، بمعنى إيجاد معجزة معينة لإصلاح خلل ما لم يكن فى الحسبان، مثل إيجاد كميات مياه إضافية، عندما يتطلب الأمر عقاب الإنسان على خطاياه).

على ذلك، فالطبيعة تجرى حسب قوانين غير متغيرة وخاضعة للتفسير العلمى، والعالم الطبيعى لا يمكن أن يناقض النص المقدس (فالله - وهو صانع كليهما - لا يمكن أن يتحدث ضد نفسه). وهنا نأتى

إلى نقطة محورية، فإذا بدا بعض التعارض بين واقعة علمية ذات مصداقية عالية، وتفسير معتاد للنص المقدس، إذًا يفضل أن نراجع التأويل؛ لأن العالم الطبيعي لا يكذب، لكن يمكن للكلمات أن تحمل معاني متعددة، بعضها من باب المجاز أو التشبيه (فإذا أشار العلم بوضوح إلى مدى قدم العالم، إذًا فكلمة "أيام" المذكورة في النص المقدس بشأن خلق الكون، لابد أن تعني مددًا أطول من ٢٤ ساعة). ومن المفهوم الحرج والحاسم، ينفصل الرواقان، ويبسط العلم سلطانه على الكنه الحقيقي للعالم الطبيعي. يجوز للعالم أن يكون متدينًا ورعًا، كما كان كل هؤلاء السابق ذكرهم، ويظل متمسكًا بمفهومه عن الله كالضابط الإمبراطوري للساعات[١٨]، تاركًا للعلم مطلق الحرية في رواقه الصحيح.

لقد اخترت توماس بيرنيت لتوضيح هذا المبدأ المركزي لأسباب ثلاثة:

١- كان قسًا رسميًا في المقام الأول (وبالتالي يصلح لتمثيل الأروقة المتمايزة، إذا كان قد احتفظ حقًا بكل من هذين الميدانين محددين ومنفصلين).

٢- صارت نظريته مصدرًا غير عادل لتسفيه الأمور، تحت النداء المزيف بأن العلم دائمًا في صراع مع الدين.

٣- تمسك بأولية العلم بشكل قوى (وبوضوح أشد مما كانت عليه حال صديقه إسحق نيوتن، كما سيأتى ذكره بعد ذلك، ويتعرفه على أولوية العلم فى رواقه الخاص، فإن بيرنيت يحث قراءه على عدم الثقة فى أى تفسير للنص المقدس يخالف الاكتشافات العلمية، ويرجوهم إعادة النظر فى النص؛ وذلك لأن العلم يسيطر على رواق الحقائق الواقعية المتعلقة بالطبيعة:

"من أخطر الأمور الزج بسلطان النص المقدس، فى الخلافات الدائرة حول العالم الطبيعى، فى ممارسة معارضة للمنطق، خشية أن يأتى الزمن الذى يخرج كل الأمور إلى النور؛ فنتبين الخطأ الفاضح لتفسيراتنا السابقة للنصوص".

وفى فقرة رائعة تبين تحديده لاستقلال رواق العلم، مع تمجيده لمفهوم الله، يسوق بيرنيت تشبيهًا رائعًا للتفسيرات المتعددة لدمار الأرض بطوفان نوح: ألا نعجب أكثر بآلة تقوم بكل وظائفها (سواء العادية منها أو المأساوية)، متبعة قوانين الطبيعة وتأثيرها على أجزائها الدقيقة كافة، أكثر من آلة تعمل بكفاية عالية فى الظروف العادية، ولكنها تحتاج إلى زيارة خاصة من مبتكرها كلما اقتضت الحاجة لأداء أى دور أكثر تعقيداً:

"نثق جميعًا فى قدرات هذا الفنان المبتكر لساعة دقيقة الصنع، تدق بانتظام بمرور كل ساعة، بفعل التروس والآليات التى وضعها فيها،

أكثر من الصانع الذى يتحتم تدخله بأصابعه فيها كل ساعة ليجعلها تدق. كذلك إذا ما صمم أحدهم ساعة تعمل وتدق بانتظام، ثم إذا ما لمس أحدهم بعض أجزائها، أو عند وصول إشارة معينة، تتفكك وتتحطم من تلقاء ذاتها، ألا يكون ذلك فنًا أرقى من عمل الصانع، الذى يضطر إلى أن يأتى فى ذلك الوقت المحدد بمطرقة يهوى بها على الساعة ليحطمها؟ ".

إن بيرنيت، بصفته رجل دين محترفًا، وعالمًا رائدًا، قد بذل جهده فى كلٍ من الرواقين وأبقى لكل منهما خصوصيته واستقلاله. وقد أحال العالم الطبيعى برمته إلى العلم، لكنه عرف أن هذا الأسلوب فى تقصى الأمور، لا يصل به إلى الحكم على أمور تقع خارج نطاق قدرة المعرفة الواقعية على التبرير، وفى مجالات لا يقوم فيها لقوانين الطبيعة قائم من أساسه. وقد استعمل بيرنيت تصوراً مستمداً مما كان سائداً من معرفة فى عصره (الآن نستطيع تحديد المعالم بطريقة مختلفة)، وعزى كَل تاريخ الأرض إلى العلم، لكنه كان على وعى تام بأن كل ما سبق خلق المادة والكون ، وكل ما يلى يوم القيامة، لا يَمكن الإلمام به وحصره داخل رواق المعرفة الطبيعية.

"أعتقد أن العناية الإلهية جعلتنا قادرين على فهم كل ما يتعلق بذاك العالم السابح تحت القمر، وعلى مدى كل عمره، منذ فترة الشواش[١٩] (الفوضى) الأولى إلى آخر الزمان.... على كل من الجانبين يستقر الأزل، قبل قيام العالم وبعده، وهو خارج عن متناولنا. أما هذا

العالم، الذى لا يعادل أكثر من هذه النقطة الصغيرة على الأرض، الراقدة بين هذين المحيطين الكبيرين، فإن علينا أن نراعيها وننميها، ونحن أهل لذلك وعلينا أن ندرب أفكارنا حتى نفهم".

من المحتمل أنى أقرأ كثيرًا فى أعماق كلمات بيرنيت وبين السطور. فألاحظ ميلاً شديداً لديه، بل شغفًا بواقعية العلم، فإذا تتبعنا تسلسل سرده فى كتابه "النظرية المقدسة للكرة الأرضية" Sacred Theory of the Earth حيث يودع المنطق كمرشد له، فى أثناء مسيره فى رحلته شارحًا التاريخ الواقعى المعروف، لأرض محكومة بالكامل بقانون الطبيعة، وينتقل إلى مستقبل مختلف تمامًا عند يوم القيامة وما يليه؛ حيث يؤسس الله لترتيب جديد، وعلى ذلك فالله يقوم فقط بإبلاغنا من خلال الإيماءات الخاصة بكلماته. ويتحدث بيرنيت إلى إلهه العلم فيكتب:

"وداعًا إذًا يا صديقتى العزيزة ، لابد أن أتخذ لى دليلاً آخر وأتركك هنا، كما فعل موسى على الجبل الذى صعد إليه، ليلقى نظرة إلى هذه الأراضى التى لا تستطيعين دخولها. أقدر لك خدماتك الجليلة وكم كنت لى صديقة مخلصة فى رحلة طويلة: فمن بداية العالم إلى هذه اللحظة... رحلنا معًا فى المناطق المظلمة عبر الشواش الأول والثانى، شاهدنا حطام العالم مرتين، فلا الماء ولا النيران فرقت بيننا، لكن الآن يجب عليك أن تخلى مكانك لرفقاء آخرين."

قصصت عليكم قصة توما وتوماس، لأحدد الفرق بين رواقين مبجلين متمايزين يختلف كل منهما عن الآخر، ولكن يحتفظ كلاهما بأهميته ومكانته المناسبة فى حياتنا، ويمثلان الصخرتين المنوه بهما فى عنوان هذا الكتاب. فلا يجب أن نفترض أن أى كتاب (الكتاب المقدس فى حالتنا هذه) أو أى عمل يومى (كرجل دين فى هذا المثل السابق) يمثل أية رواق، بل يجب أن نوجه كل اهتمامنا إلى الموضوع، وإلى المنطق، وإلى الحجج المعنية. ويحتاج الوصول إلى الهدف المنشود - أكثر ما يحتاج - إلى التفاهم والاحترام المتبادل. لكننى قبل الاسترسال فى عرض هذه المبادرة الخاصة بفكرة الأروقة المتمايزة، وقبل الدخول فى مناقشات أكثر عمقًا، مسجلة فى الفصل الثانى من هذا الكتاب، يجب علىَّ سرد رواية أخرى تحمل فى ثناياها رسالة مماثلة، وإن كانت متعلقة بالقيم الأخلاقية.

مصير أبوين

لا أستطيع أن أفكر فى أمثلة شائعة أكثر سخفًا وزيفًا عن التفكير الإنسانى، من الميل إلى تصور أساطير وهمية عن عصر ذهبى، لماض بسيط مفعم بالنعيم الساذج. فعندما أستمع إلى مثل هذه الاحلام، أشعر برغبة جامحة فى الصراخ والمقاطعة بكلمات فى ثقل الجبال، حتى يتم نحتها فى وعى الجميع بالبنط العريض، لتكون تذكرة لهم على

الدوام. أنا لا أحب مسببي الضوضاء ولا ألغاز نظام الضرائب الأمريكي، ولا جيوش الذباب، بشكل أكثر من أي شخص آخر ، وكان حلمي دائماً أن أحصل على ثروتي، عن طريق تسويق مزيج الأخلاقيات، داخل عبوات الحبوب الغذائية، كبديل لمنتج طبيعي أكيد التأثير. فإذا أخبرني أحد بأنه كان يفضل، لو كان قد خلق وعاش مُنذ ألف عام، فسأذكِّره بكل بساطة بالإجابة الشافية التي لا راد لها ، وبالسبب في اختيار الحاضر كأفضل عالم عرفته البشرية: شكراً للطب الحديث، فسوف يتمتع ذوو الموارد المحدودة من العمال، بامتيازات لم تمنح لأي شريحة بشرية من قبل، سينمو أطفالنا ، ولن نفقد النصف أو أكثر من نسلنا في مراحل الطفولة والصبا ، لن يكون علينا أن ننشد الأناشيد الجنائزية على الموتى من أطفالنا . ولن يكون علينا أن نستأجر مصوراً خاصاً من الطراز القديم، ليصور لنا صورة وحيدة فريدة لطفلنا المتوفي. (نادراً ما كان باستطاعة أي طفل الجلوس أمام الكاميرا ، دون حركة للدقائق العديدة اللازمة في ذلك الحين لنجاح اللقطة، لكن الموتى لا يتحركون ؛ لذا احترف العديد من المصورين هذا العمل الشيطاني المربح).

من الجائز أن معرفة الاحتمالات قد قللت من تأثير الصدمات، لكن مجرد معرفة أن نصف المواليد سيلاقون حتفهم، لا يمكن أن يفي بالعزاء المناسب، في مواجهة فقدان نفس حبيبة إلينا إلى الأبد. على ذلك فقد قاسى أجدادنا – كلهم – بما فيهم الملوك والملكات، وأقطاب الصناعة

وأثرياء البلد؛ إذ إن الثروة مهما بلغت، لم تستطع يومًا شراء مهلة ولو بسيطة ، وحتى أفضل الأطباء لم يكن بوسعهم فعل شيء يذكر.

إن أبرز الأبطال فى مهنتى (علم الأحياء التطورى) ممن عاشوا فى العصر الفيكتورى[٢٠]، هم : تشارلز داروين وتوماس هنرى هاكسلى، وقد كان كلاهما على قدر وافر من العلم ومن رغد العيش، وفقدا طفليهما المفضلين فى ظروف غاية فى الإيلام. قام كلاهما - وحتى اليوم- بدور الشاة السوداء الرئيسى، فى مواجهة تيارات إحياء الدين والأصولية؛ وذلك بأن شَكَّل داروين نظريته عن التطور، ولعب هاكسلى دورًا أكثر نشاطًا كساخر من القساوسة (فى أحد أقواله المأثورة قال هاكسلى، إذ كان ينسى دائمًا موضع الصمام الميترالى بالقلب، المسمى هكذا لتشابهه وشكل قبعة القساوسة، حتى تنبه إلى أن "القسيس لا يكون أبدا مع الحق (اليمين)" وحينها يتذكر أن الصمام المذكور، يصل ما بين الأذين والبطين للجانب الأيسر للقلب). ارتبط فقد الرجلين لأطفالهما بجدل شديد، بشأن المواجهه التى نشأت بين خسارتهما القاسية، وطقوس العزاء المسيحية التقليدية. رفض كلاهما قبول التقاليد المعتادة بأسلوب فذ أصيل.

قد يعتقد الإنسان أن كلا الرجلين أصبحا تعيسين بسبب ما لقياه من كم النفاق (أو على الأقل من أمل كاذب) المقدم من قبل أصحاب المعتقدات المتزمتة ذات الأفق الضيق. ولنا أن نتساءل، هل دفعت هذه الوفيات المأساوية الخالية من المعنى، بأى من داروين أو هاكسلى إلى

معاداة الدين على هذه الصورة البارزة، التى درجت صحف التاريخ المقواة على رسمها لنا، وبهذا الشكل المتوقع لحرب متأصلة بين العلم والدين؟. فى الحقيقة لم يحدث أى شىء من هذا القبيل. إذ أظهر كلا الرجلين فقط كرامة عنصريهما، وحِدّة ذكائهما. فى الواقع لم يضيع أى من هاكسلى أو داروين أى وقت فى التسكع طويلاً، حول الاعتقاد الشخصى بوجود عالم عادل بطبيعته، ومحكوم بشبه إله محب. لكن الألم من شدة خسارتهما الشخصية، لم يؤد إلا إلى شحذ مفاهيمهما، وتوضيح الفروق بين العلم والدين، مقرونًا باحترام كل منهما، إذا وضعا بدقة فى رواقيهما الصحيحين، وكذا بالفصل بين الأسئلة التى يمكن أن تجاب، والأسئلة الخارجة عن نطاق قدرتنا على الاستيعاب، أو حتى على الصياغة.

تزعم إحدى الروايات الشائعة، أن داروين كان يخطط لحياته كى يصبح قسيسًا ببلدته حين بدأ رحلته حول العالم على متن سفينة الـ "بيجل" حيث تحولت اهتماماته وتبدل مسار حياته. أما الادعاء الشائع الذى لا يمكن دعمه أو قبوله، فهو أن اكتشافات داروين عن التطور، هى التى قادته إلى المروق عن الدين، واحتراف علوم الحياة. فلم يحدث أبداً أن ألزم داروين نفسه بهاتف العقيدة. فقد ظلت آراؤه الدينية فى شبابه فاترة بلا ريب، وعادية بلا اكتراث ؛ لأنه لم يعط الموضوع أى اهتمام أو تعمق فى التفكير. ثم إن تفكيره فى اتخاذ مستقبل دينى، لم يكن نابعًا من أية رغبة أو إيمان نشط، بل بسبب غيبة البدائل المتاحة، وعلى فرض

تحوله إلى شخصية "القس داروين المبجل"، فإنى أشك كثيراً فى أنه كان سيقضى حياته اليومية بالطريقة التقليدية للقسس- بكل ما فيها من وقار وتبجيل- كإنسان بليد يتقاضى أجراً ولا يؤدى إلا أقل الواجبات، ضمن مجموعة من الرهبان من محترفى التأمل فى أمور الطبيعة Cleri-cal Naturalist، وأن ذلك كان سيتيح له الفرصة والوقت، لكى يتمكن من تتبع سعادته الحقيقية: جمع وكتابة الكتب عن الخنافس، ومواضيع أخرى فى التاريخ الطبيعى.

وهكذا لما أشرف داروين على بلوغ كامل رجولته، وهو متمتع بحياة هادئة رغدة، وبسمعة مهنية ممتازة، وسط أسرة سعيدة بمنزل ريفى وثير، نجده لم يدخل فى أى نزاع حقيقى، بشأن أية تساؤلات حول معتقداته الدينية، هذا على الرغم من أن آراءه، حول مسألة التطور قادته إلى التساؤل، ونبذ العديد من المعتقدات السائدة، عبر نشأته فى مناخ الكنيسة الإنجليزية. لكن فى فترة حاسمة، ما بين نهاية عام ١٨٥٠ و٢٣ من أبريل ١٨٥١، اجتمع الشك الثقافى والمأساة الخاصة ليغيرا عالمه إلى الأبد.

بعد عدة سنوات من العمل المضنى فى تصنيف نوع من القواقع البحرية (المعروفة باسم البرنقيلات)، تحسنت حالة داروين الصحية إلى حد ملموس، وتيسر له الوقت الكافى للقراءة، والهدوء ليتأمل. فقرر أخيراً أن يبحث فى مصداقيته الدينية الشخصية، بأسلوب دقيق مرتب، من هنا تحول داروين إلى النظر فى أعمال أحد المفكرين الأفذاذ، كان

حينذاك من أشهر الشخصيات المتأججة، ولكنه غير معروف اليوم نظراً إلى الشهرة الواسعة التى حظى بها أخوه، الذى اتخذ مساراً مخالفًا فى الحياة وغطى بها عليه. إنهما الأخوان "نيومان"، اللذان لم يستطيعا قبول المفارقات التي وجداها فى العقيدة أو الممارسات الإنجليكية؛ إذ أحدث جون هنرى نيوما (John Henry Newman) واحدة من أكبر الهزات فى حياة الثقافة البريطانية فى القرن التاسع عشر، بتحوله إلى المذهب الكاثوليكى، حتى انتهى به الأمر إلى تقلده منصب "كاردينال" (تسمى اليوم المنظمات الطلابية الكاثوليكية فى التجمعات الجامعية الأمريكية، بالجمعيات النيومانية، تكريماً له).

أما فرانسيس وليام نيومان (Francis William Newman) – الأخ الأصغر للكاردينال السابق ذكره – فقد تخرج فى جامعة أكسفورد، بتفوق يبشر بمستقبل مشرق لأستاذ بالجامعة، لكنه ترك هذا الطريق الواعد ليقبل وظيفة أستاذ فى اللغة اللاتينية، فى المدرسة العليا بلندن، والمعروفة برفاهيتها وعدم التزامها الأورثونوكسي. ذلك لأنه رفض الإقرار (كما تنص القواعد السارية حينذاك، والمطلوبة من المتقدمين إلى وظيفة أستاذ بأوكسبردج (Oxbridge) بالبنود التسعة والثلاثين الخاصة بالمذهب الإنجيليكى. ومضى نيومان بعد ذلك فى رحلة روحانية، من خلال عدة كتب شائعة، إلى أن بلغ مركزاً غاية فى الإيمان، لكنه مرتكز على رفض المسلمات العقائدية، والتعاليم التقليدية الخشنة (خاصة فكرة الثواب والعقاب الأبدى على الأفعال الدنيوية فى الآخرة).

وقد كان كل هذا في تفضيله في المقابل، لنظام يتمشى مع الفكر المنطقي، ومع معطيات العلم الحديث. انكب داروين على دراسة كل أعمال نيومان البارزة(٢١)، بكل ما كان لديه من جهد، ما بين عامي ١٨٥٠ - ١٨٥١، حيث توصل إلى نتائج مماثلة حول خواء العقيدة التقليدية (وفي بعض الأحيان قسوتها). ولم يجد في أفكار نيومان عن بذل النفس وتكريسها للعبادة، أي عزاء يخفف من حدة ما توصل إليه وبناءً على ذلك، انتهى بالتشكك في كل أوجه الإيمان الديني.

لعل القراءة الفاحصة لأعمال نيومان، لم تكن لتؤثر على نظرة داروين إلى الحياة بهذا الشكل القوي ما لم تكن مأساته الشخصية (وفاة ابنته) قد تفجرت في الوقت نفسه . لقد أحب داروين ابنته الكبرى - أني Annie - بحنان شديد نابع من رقتها البالغة، وتشابهها الشديد مع سوزان أخت داروين، التي كفلته برعايتها بعد الوفاة المبكرة لوالدته، التي شملت والده أيضًا برعايتها الحنونة، حتى توفي قبل سنتين، ولكن "أني" كانت دائمًا ضعيفة الصحة.

مرضت "أني" مرضًا شديداً في مارس، عام ١٨٥١، حتى أن داروين وزوجته "إيما" Emma، قررا إرسال الفتاة ذات السنوات العشر إلى مستشفى الدكتور جالي Gully في بلدة مالفرن Malvern؛ حيث سبق لداروين أن تحسنت صحته هناك، باتباع أسلوب العلاج بالمياه، الذي اشتهر به هذا الطبيب. وتقرر أيضًا أن ترافقها أختها وإحدى الممرضات، لمساندتها والترويح عنها. رافق داروين الركب إلى مدينة

مـالفـرن، وبـقى مـعـهم عـدة أيام (وحـسب المـمارسـات السـائدة فى ذلك الحين، فقد لازمت زوجة داروين منزلها الـريفى، نظراً إلى أنها كانت فى أواخر أيام حملها).

تحسنت حالة "أنى" فى البداية، لكن سرعان ما تدهورت حالتها، سارع داروين بالذهاب والبقاء بجوار فراشـها، وقضـى العديد من الأيام فى عذاب مـرير، ومـا إن اسـتـجـمـعت "أنى" بعض صـحـتـها، وبثت فى النفوس بعض الأمل، حتى هوت ضـحية لليأس ، وفى النهاية توفيت فى ٢٣ من أبريل. كتب داروين رسـالة إلى أخـيه "إيراسـمـوس" Erasmus يقول فيـها: "يعلم الله أننا لا نستطيع أن نرى أى بصيص للراحة من أية ناحيـة"، وبعـدها بأسبوع يسطر فى مذكراته الخـاصـة شيـئًا عن حزنه فيكتب: "تعرف أنى كم كنا، وسنظل إلى الأبد، نحبها بكل مشاعرنا، هذا الوجه المشرق الباعث على السرور، عليها الرحمة".



صورة "أنى" ابنة داروين [المترجم]

ساعدت وعجلت وفاة أنى القاسية تحفيز كل الشكوك التى ولدتها قراءات داروين لكتابات نيومان، ونقده العميق للدين، وفقد بالتالى - وإلى الأبد - كل ما لديه من إيمان بإله راع للخليقة، ولم يعد يبحث بعدها عن السلوان فى ثنايا الدين. لقد تفادى بكل حرص الإدلاء بأية تصريحات، سواء أكانت علنية أم فى كتاباته الخاصة، ولذا لا نعلم شيئًا مما استقر عليه داخليًا، وأظنه وافق على مقولات هاكسلى عن "اللا أدرية" **Agnosticism**، باعتبارها الموقف المنطقى الوحيد، وإن كان يحمل فى داخله (وهو يعلم تمامًا استحالة التيقن)، تساؤلاً قويًا حول الإلحاد، أججته وفاة "أنى" الخالية من المعنى.

لكن إذا صح افتراض أن العلم والدين دائمًا ما يشنان المعارك، من أجل المراعى الخضراء نفسها ، لناصب داروين الدين العداء ورفضه تمامًا، ولأصبح ساخرًا بالحياة بوجه عام. ولعله كان قد تمسك بنظرية التطور واستعملها بوصفها هراوة، فى مجابهة الراحة الكاذبة والخداع القاسى، فى عالم مفعم بموت الأطفال، ومآسٍ أخرى عديدة، تمزق القلوب بلا أى معنى أخلاقى. لكن داروين لم يتخذ مثل هذا الموقف؛ لقد حزن حزنًا شديدًا واغتم اغتمامًا فائقًا، حتى أوجد لنفسه مخرجًا. لقد استبقى عبق الحياة وحبه للتعلم، ونشط وانتعش فى ظل دفء أسرته ونجاحها. لقد فقد الإحساس بالسكينة والثقة فى الممارسات الدينية التقليدية، ولكن لم تنمُ لديه أية رغبة فى عرض وفرض آرائه على الآخرين؛ ذلك أنه استوعب ماهية الفرق بين تساؤلات واقعية

ذات إجابات شاملة موحـدة تطرح فى رواق العلـم، وأمور معنوية يجب على كل فرد أن يجد لها حلاً بنفسه.. كان له أن يحارب بشدة من أجل إثبات صحـة نظـريته عن التطـور ومـدى واقعيتـها، لكن المسببات التى شكلت تاريخ حياته، لم يكن لها أبدًا أن تحل طلاسم معنى الحياة. إن معـرفـة الأسباب الطبية المؤدية إلى الوفـاة يمكن أن تمنع مـآسى المستقبل ، لكن لا يمكنها أن تلطف آلام الفقدان المباشر، ولا أن تقلل من ظلمة معنى المعاناة.

نعود إلى الخطاب المدهش الذى بعث به داروين إلى أسا جراى[٢٢] Asa Gray، عـالم النبـات بجـامـعـة هارفـارد (الذى قـبل بفكرة الانتقـاء الطبيعى والتطور، لكنه ناشـد داروين إعـادة النظر إلى هذه القوانين، باعتبار أن الله قد وضعها من أجل أهداف معينة) - فـأنا أعتبر هذه الوثيقة أفضل تعقيب كتب حتى الآن، حول العلاقة الصحيحة بين الدين والعلم. وأنا الآن أستشـهد بآرائه التى باح بها فى مـايو ١٨٦٠- بعد تسع سنوات من وفاة "أنى"، وبعد ستة أشهر من نشر كتابه عن أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية)، عن الأسباب التى تمنع وقائع التطور، من تقديم إجابات أو حلول لتساؤلات دينية ذات معان مجردة:

"فـيمـا يتـعلق بالنظـرة العـقـائدية للسـؤال، فـهذا دائمًـا مـؤلم بالنسبـة إلىّ. فـأنا مـرتبك، حـيث لم يكن فى نيتـى أن أكتب بطريقـة إلحادية. لكننى أقر بالأصـالة عن نفسى، أنى لا أستطيع أن أرى الدليل على وجود التخطيط غير مفهوم على جميع جوانبنا بوضوح، كما يرى

الآخرون، وكما أتمنى أن أفعل. يبدو لى أن هناك كثيراً من البؤس فى العالم ... وعلى صعيد آخر، لا يمكننى - بحال من الأحوال - أن أسعد برؤية هذا الكون البديع، وخاصة طبيعة الإنسان، ثم أستنتج من ذلك، أن كل شيء إنما حدث بقوة باطشة. فأنا أميل إلى رؤية كل الأمور بوصفها ناتجًا عن قوانين مصممة، بكل تفاصيلها، سواء خيرها أو شرها، ومتروكة لعمل ما يمكن أن نسميه الصُدفة. وحتى هذه العبارة لا ترضينى تماماً. فأشعر فى أعماقى بأن المسألة برمتها، أكبر بكثير من قدرة الإنسان الفكرية، كمثل كلب يتأمل فى القدرات الذهنية لنيوتن.

على الجانب الآخر كان توماس هنرى هاكسلى (انظر هامش ٦) - الزميل الأصغر لداروين - حاد الذكاء، وكان مُفوهًا، وكان حارسه الأمين، الشرس فى الدفاع علانية عن نظرية التطور فى مواجهة كل موجات الهجوم الاجتماعية أو الدينية الأصولية. فقد هاكسلى ابنه الأول المفضل "نويل" Noel، وله من العمر ثلاث سنوات، فى ١٥ من سبتمبر ١٨٦٠، أى بعد أربعة أشهر من كتابة داروين خطابه إلى "جراى"، وبعد عام من قراءة هاكسلى كتاب أصل الأنواع، والذى عقب عليه بعبارة ملؤها الاستغراب والدهشة، مع شيء من وخز الغيرة "لكم كنت شديد الغباء إذ لم أفكر فى ذلك من قبل!".

كانت "أنى" ابنة داروين عليلة الصحة، ولعل وفاتها كانت من الاحتمالات المتوقعة التى كان داروين وزوجة أيما يأملان فى أن

تستجاب دعواتهما لها بالشفاء، قبل أي دعاء مستجاب آخر. في المقابل كان "نويل" ابن هاكسلي طفلا نشيطًا مثيرًا للصخب، وكان يلعب مع والده في مساء يوم الخميس، قبل موعد النوم، ثم توفي يوم السبت، وعليها كتب والده: "كان الأمر كما لو كان قد تم حقن الصبي بسم زعاف". من بين كل الأصدقاء الذين قدموا له العزاء في هذه الفترة المباغتة، التي كان يغمره فيها الأسى ويعتصره الحزن العميق، كشف هاكسلي عن مكنون ذاته، للرجل الوحيد الذي يكن له أكبر احترام، على الرغم من أنه كان أكثر الناس خلافًا في الآراء معه، ألا وهو القس المستنير شارلز كنجزلي Charles Kingsley، الذي كانت له مكانته كهاو للطبيعيات، ومن أنصار نظرية التطور، وممن لم يجدوا تعارضًا بينها وبين الدين والتزاماته الكنسية، وقد كان كذلك مؤلفًا روائيًا مشهورًا(٢٣).

وقد استجاب كنجزلي لصديقه المتشكك، وقدم له اقتراحًا رقيقًا، فها هو ذا يرجو من هاكسلي أن يعيد النظر في شكوكه، عله يجد الراحة والعزاء في المذهب المسيحي، بما يتضمنه من فكرة أبدية الأرواح، وما يتبع ذلك من أمل لقائه بابنه في حياة أخرى قادمة. ويقر كنجزلي في خطابه بمدى معاناة هاكسلي ويصف آلامه فيكتب: "شيء فظيع، لا يمكن احتماله، كالحرق حيًا"، لكن يمكننا أن نجد العزاء الواسع، من خلال ممارسة الاستعداد الأرضي للمقابلة في السماء بعد

موت الجسد، وكما كتب كنجزلى: "يجب علينا أن نجعل أنفسنا جديرين باللقاء أثناء رحلتنا على الأرض".

أجاب هاكسلى بخطاب فى ٢٣ من سبتمبر ١٨٦٠، يستحق أن يفرض على جميع مناهج دراسة الأدب الانجليزى والفلسفة. فالكتابات العظيمة المتأججة بالمشاعر، ليست مقصورة فقط على الروايات. ففى مجال أسلوب كتابة الكلام المرسل (النثر)، لا نجد إلا قليلاً من علماء القرن التاسع (مثل بلايفير Playfair، وليل Lyell، وهاكسلى بالذات) ممن يضاهون أعظم كتاب القصص فى العصر الفيكتورى. ولقد كنت أتمنى أن أسرد الخطاب بكامله؛ حيث إنى لم أقرأ أبداً دفاعًا عن شرف وكرامة الفكر، واعتزاز الإنسان بكرامته الثقافية، مهما بلغت درجة الإغراء بالسلوان الفورى والعزاء السهل، من خلال الوسائل المتعددة للمواساة، التى لا يمكن الإيمان بها بصدق ولا تبريرها بأى جدل متماسك مثلما فعل هاكسلى.

يبدأ هاكسلى بشكر كنجزلى على عرضه لمواساته، بأسلوب مفعم بالصدق والإخلاص، ودون أى نفاق، ثم يشرح هاكسلى فى فقرة جميلة، أنه لا يستطيع أن يرمى خلف ظهره بفلسفته الخاصة، التى خلص إليها بعد سنوات من عمره، وبعد عدد كبير من المعارك الفكرية؛ من أجل مواساة فورية مؤقتة، مبنية على إيمان مرفوض من الأساس، بأبدية الأرواح:

"عزيزى كنجزلى، لا أستطيع أن أقدم لك الشكر الكافى، بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن زوجتى، لخطابك المطول الصريح، ولكل ما يحمل من التعاطف القلبى ... إن اقتناعاتى بإيجابياتها وسلبياتها، حول كل الموضوعات التى تحدثت عنها، قد نشأت ونمت ببطء وعلى مر السنين، حتى اشتدت جذورها. لكن يبدو أن الصدمة التى تلقيتها، قد حركت معتقداتى من أساسها. ولو كنت قد عشت مُنذ قرنين مضيا، لكنت قد توهمت شيطانا يهزأ بى وبها (أفكارى)، ويسألنى عن فائدة التخلى عن الآمال والسلوى كباقى البشر، ولكان ردى الوحيد: أيها الشيطان! الحق أفضل من كل المكاسب. لقد بحثت فى قواعد إيمانى فوجدتنى، لا أقرب الكذب حتى لو عوقبت بفقد زوجتى وابنتى واسمى ومكانتى، واحداً تلو الآخر".

ثم يلخص هاكسلى جدله وشكوكه حول مشكلة الحياة الأبدية: لماذا، فى المقام الأول، نضمن الخلود لأناس معقدين، وليس للمخلوقات "الدنيا"، التى يمكن أن تستفيد أكثر من هذه النعمة؟

ثانياً : لماذا يجب علينا الإيمان بعقيدة، استناداً إلى شدة رغبتنا وشوقنا إلى إثبات صحتها؟ ويسترسل:

"إن الفرق اللانهائى بين شخصى والحيوانات، لن يغير من الأمر شيئاً. فأنا لا أعرف إن كانت الحيوانات ستعود مرة أخرى للحياة، كذلك لا أعرف إن كان الفرق اللانهائى بيننا، قد يكون سبباً فى

تعويضهم ببقائهم ودوامهم، فى حين تنتهى حياتى بعد موتنا الظاهرى. تمامًا كما تضوى وتموت بصيلات النباتات المتواضعة، بعد أن تخرج منها أجمل الزهور وأبهاها".

لا بد أن المسألة واضحة تماماً؛ حيث يستطيع الإنسان الذكى أن يفكر ويتأمل بلا نهاية فى أى من الاتجاهات، وسيجد باستمرار، ما يتماثل وما يتطابق مع أحلامه. كذلك لا يساعدنى القول بأن طموح البشرية - ولا حتى أرقى وأعلى طموحاتى الشخصية - يمكنه أن يقودنى للاعتقاد بالأبدية. فأنا أشك فى الحقائق من البداية، وحتى على فرض أنها كذلك (حقائق)، فما هذا كله إلا مطالبة لى، فى كلمات عظيمة، لكى أومن بشىء لمجرد أنى أميل إليه".

ثم يسجل هاكسلى منطقه فى تبنى العلم، كدليله للتعامل مع الأسئلة الواقعية؛ ففى "الاقتباس التقليدي" من هذا الخطاب، نجد السطور التالية المذكورة، فى كل موسوعة نشرت حتى الآن:

"أرى من واجبى أن أترك أمنياتى لتتشكل طبقًا للحقائق، وليس بذل المحاولات لجعل الحقائق متمشية مع أمنياتي. يبدو لى أن العلم يلقن الدروس الكامنة فى قلب المفاهيم والتعاليم المسيحية، بالاستسلام الكامل لمشيئة الله، بأقوى وأعلى الأساليب. عليك أن تجلس أمام الحقيقة كطفل صغير، مستعداً لاستبعاد كل الافكار المسبقة، وحيثما وأينما تقودك

هاوية الطبيعة، فاتبعها بكل تواضع. وإلا ما تعلمت شيئاً. لقد بدأت فى تعلم الرضا وهدوء البال فقط، مُنذ أن توصلت إلى اتخاذ هذا الطريق، متحملاً كل المخاطر".

يمكن النظر إلى هذه الأقوال – وكثيراً ما تم هذا – كنموذج مثالى للصراع بين العلم والدين، وكدفاع تقليدى عن العلم، حتى فى ساعات الاحتياج الشديد للروحانيات. لكن قراءة هذا الخطاب الرائع، بتمعن وإسهاب، تقود إلى استنتاج معاكس، مشابه لموقف داروين عند وفاة ابنته "أنى"، فلكل الأسباب السابق ذكرها، يرفض هاكسلى مسألة خلود الروح، كوسيلة للمواساة وللتخفيف من الحزن، لكنه يحدد المعالم الكبرى للأروقة بكل وضوح وقوة، بقوله إن مثل هذه الفكرة الدينية، لا يمكن إخضاعها للإثبات العلمى : "أنا لا أنكر ولا أؤكد خلود الإنسان. ولا أرى سببًا للإيمان بذلك، ومن ناحية أخرى فلا أمتلك الوسيلة لتفنيدها". ثم يأتى التشابه الصارخ بينه وبين المثل الذى استعمله داروين بشأن الكلاب وعقلية نيوتن (سبق ذكره). يحدد هاكسلى مكان الموضوع، على أنه خارج نطاق رواق العلم، وداخل نطاق الحكم الشخصى، حيث إننا لا نمتلك الوسائل حتى لنتخيل اختباراً عقلانيًا لها: "فحتى فى محاولة التفكير فى هذه التساؤلات، يتخبط الذكاء الإنسانى ويرتج من أعماقه".

فى فقرة مازالت تدفع بالدموع إلى عينى، يلخص هاكسلى موقفًا شخصيًا من الأروقة؛ حيث يسجل الأوجه الثلاثة غير المتداخلة واللازمة-

لسلام وكمال الذات، ألا وهى الدين للأخلاقيات، والعلم لحقائق الواقع ، والحب للإجلال والطهارة والقداسة. وهى العوامل التى حكمت حياته الشخصية ومنحتها معناها. وهو يبدأ باقتباس بعض الأقوال من الأعمال الفلسفية لصديقه توماس كارلايل Thomas Carlyle (كتاب الخياط بعد إعادة كسائه Sartor Resartus: The Tailor Reclothed) وينتهى بالقول المأثور لمارتن لوثر Martin Luther في عمله "وجبة الديدان" Diet of Worms الذى يسجل فيه السبب الذى من أجله لن يتخلى عن اقتناعه الدينى :"ساعدنى يا رب، فأنا لا أملك غير هذا. Ich kann nichts anders "Gott helfe mir".. هل استطاع أى "ملحد" أن يقدم عرضًا أفضل من ذلك، لبيان دور الدين الحقيقى (كأساس للتأمل الروحى والأخلاقى، بدلاً مما يقدم من مجموعة مسلمات، تقبل دون أى تساؤل)؟

قادنى كتاب توماس كارلايل (كتاب الخياط بعد إعادة كسائه) إلى معرفة أن الشعور العميق بالإيمان، لا يتعارض مع غياب كل المعتقدات الدينية.

ثانيًا: إن العلم وطرقه منحانى ملاذًا للراحة، مستقلاً عن السلطة والتقاليد.

ثالثًا : أتاح لى الحب رؤية قداسة طبيعة الإنسان، وملأنى بشعور عميق بالمسئولية.

"إن لم أكن مجهداً الآن، متهتكا وجثة هامدة، وإن كان قدرى – أو سيكون – أن أدفع بأسباب العلم إلى الأمام، إذا كنت أشعر بأن لدىّ أى خيال لطلب الحب ممن حولى، وإذا كان حزنى فى هذه اللحظة السامية التى نظرت فيها داخل قبر ابنى، قد ساده الإحساس بالخشوع وبلا مرارة، فإن هذا كله لأن هذه العوامل قد تضافرت علىّ، وفعَلت فعلها فى نفسى، وليس لأنى اهتممت أبدًا بشأن بقاء ذاتى المسكينة مغتربة إلى الأبد، عن الـ "كلية" التى منها أتت وإليها تذهب.

وهكذا – يا عزيزى كينجزلى – ستتفهم موقفى؛ قد أكون مخطئًا إلى حد بعيد، وفى هذه الحالة فإنى أعرف أن علىّ أن أدفع ثمن خطئى، لكن لا أملك إلا أن أقول كما قال لوثر : "ساعدنى يا ربى، فأنا لا أملك غير هذا".

فى ختام هذا الفصل ، هناك قصة رمزية دارت حول جنازة داروين، والدور الذى لعبه هاكسلى فى استبدال مكان الدفن، علها تصلح كرمز مناسب، ولتوضيح مسألة الأروقة المتمايزة؛ حيث يتضح ويتحدد مدى التوافق الكامن ضمن حدود كل من العلم والدين. أراد داروين أن يدفن بعد وفاته فى ساحة الكنيسة المحلية بقرية "داون" Downe، التى عاش فيها وأحبها، وأسهم فيها بالأعمال الخيرية بما يتماشى مع مكانته كرجل بارز ميسور الحال؛ حيث عمل لفترة مأموراً قضائيًا، وقام بتقديم الهبات المناسبة للكنيسة المحلية لدعم مساندتها للفقراء، وكذا أسس مشاريعه الخيرية الخاصة، بما فى ذلك بناء مجمع

للترويح عن العمال، مع تزويده بالكتب وأدوات التسلية، ومنع شرب الكحوليات فيه. لكن مجموعة من أصدقاء داروين - وعلى رأسهم هاكسلى - قاموا من ناحيتهم بالاتصال بالهيئات الكنسية والحكومية (البرلمانية) المعنية، لضمان دفن داروين فى مكان عام فى ساحة ويستمنستر؛ حيث يرقد الآن وتحديداً عند أقدام إسحق نيوتن.

كداعية دائم لكرامة العلم، لابد أن هاكسلى قد سعد بإنجازه، بأن يرقد الآن أحد المفكرين الأحرار الذين أطاحوا بأكثر الأفكار قداسة والتى تتوج فكر الغرب، بجوار الملوك والفاتحين، فى أكثر البقاع الإنجليزية إجلالاً، سواء من الناحية السياسية أو الدينية. دعونا نكن أكثر براً فنقر لرجال الدين ورجال البرلمان، وحتى لهاكسلى المشاغب، الذين أتاحوا هذا المدفن، بباعثهم النابع من روح المصالحة، وبرمز إيجابى قوى، ممثلاً فى رجل علم ثورى، أقل ما يقال عنه إنه "لا أدرى" فى عقيدته الخاصة، ليرقد فى أكثر الأماكن إجلالاً؛ لأنه لم يخش البحث عن المعرفة ، وفهم أن كل ما توصل إليه، لا يمكن أن يزعزع أو يفقد الإحساس الأصيل بالدين.

ألف الأستاذ بريدج Mr Bridge - عازف الأورج بـ وستمينستر- مقطوعة موسيقية جنائزية خصيصاً لدفن داروين (وافية تماماً بالغرض. وقد استمتعت بها فى ظروف أخرى، عندما كنت أغنى التراتيل الدينية). اختار بريدج أحد النصوص المفعمة المليئة بالحكمة من الإنجيل[٢٤] ولا أتخيل اختيار فقرات أكثر ملاءمة من تلك الفقرات، سواء للاحتفال

الأخير بداروين، أو لموضوع الأروقة المتمايزة، بأن الحياة المكتملة (أى الحياة الحكيمة) تتطلب البحث والتوصل إلى حلول داخل إطار الأروقة المتعددة لحياتنا وعقلياتنا المعقدة.

طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم،

لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص،

هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها،

فى يمينها طول الايام وفى يسارها الفيء والمجد،

طرقها طرق نِعم وكل مسالكها سلام.

ويا لها من كلمات جميلة، وكنت أود فقط لو أن مستر بريدج أضاف إليها السطر التالى لها مباشرة وبه الحكمة الشهيرة التى يتصادف أن تصلح أيضًا كمثال للتطور:

هى شجرة حياة لممسكيها، والمتمسك بها مغبوط[٢٥].

هوامش

(١) الأروقة جمع رواق، وقد استعمل المؤلف لفظ ماجستيريوم (Magisterium) المشتق من الأصل اللاتينى(Magister) بمعنى المعلم أو الأستاذ. والماجستيريوم بمعنى المكان التعليمى السامى أو المقدس، المخصص لأكبر المتفقهين من رجال الدين (الكاثوليك) لإلقاء كلماتهم ودروسهم الدينية وله كل إجلال وتقدير. [المترجم]

(٢) تنبيه: تيسيراً على القارئ، فقد فضلنا استعمال تعبير "الأروقة المتمايزة" أو مجرد "الأروقة" فيما يلى من ترجمة الكتاب. [المترجم]

(٣) تاريخ الصخور Age of Rocks تعبير يفيد مدى قدم الشيء وصلابته وقد تم ربط الصفة بالعلم حيث يستمد كيانه من الكون المادى بصخوره وخباياه. وأما الدين فيمثل الصخرة الثابتة والركيزة الراسخة على مر الدهور.[المترجم]

(٤) مونتين Michel de Montaigne (١٥٣٣ - ١٥٩٢) من أعظم فلاسفة عصر النهضة فى فرنسا وأكثرهم تأثيراً، وقد أبرز دور شخصية الكاتب فيما يكتب، وهو صاحب المقولة " أنا شخصيًا مادة كتابي". تأثر به معظم الكتاب من بعده بما فيهم شكسبير.[المترجم]

(٥) الاسم اللاتينى الأصلى Tyrannosaurus ويعنى الزحافة الضخمة الجبارة. [المترجم]

(٦) بار ميتزفاه: احتفاء دينى فى اليهودية ببلوغ الصبى سن الثالثة عشرة وهى سن البلوغ أو التكليف الشرعى لديهم. وتمثل سن الانتقال من الطفولة إلى سن البلوغ والمسئولية. [المترجم]

(٧) اللا أدرية (Agnosticism) تعبير أدخله هاكسلى إلى اللغة في عام ١٨٧٠ بمعنى لا أدرى أو لا أعلم علم اليقين وهو مذهب ينم عن العقلية المتسائلة عن ماهية الخلق والوجود وأن قدرات العقل البشرى قاصرة عن الإحاطة بأكثر من الماديات. [المترجم]

(٨) هاكسلى: (١٨٢٥ - ١٨٩٥) ولد في مدينة إيلينج بالقرب من لندن فى إنجلترا، حصل فى شبابه على منحة لدراسة الطب والتحق بإحدى سفن الأسطول التى تجوب البحار فجمع من رحلاته ودرس الكثير من عينات الأحياء المائية مما أكسبه - بعد عودته - مكانًا بإحدى المؤسسات العلمية كعالم للأحياء، حيث تعرف على العديد من علماء عصره ومنهم تشارلز داروين. أطلق الناس عليه لقب "كلب الحراسة الشرس، بولدوج" لداروين حيث كان مفوهًا ونشطًا فى الدفاع عن نظريات داروين بعد أن كان رافضًا لها فى البداية. وهو صاحب كتاب "دليل على مكان الإنسان فى الطبيعة" الذى يعد أول محاولة لتطبيق نظريات التطور على الجنس البشرى. [المترجم]

(٩) لعازر : كان أخًا لكل من مارتا وماريا المجدلية، وكانوا جميعًا من أصدقاء المسيح وبناءً على رجاء الأختين فقد أعاد المسيح لعازر إلى الحياة (يوحنا ١٢ : ٤١-٤٤) وبعدها بقليل فى يوم السبت السابق لأحد السعف شارك لعازر فى الاحتفال الذى أقيم للمسيح. ويؤمن كثير من اليهود اليوم فى المسيح بسبب لعازر. [المترجم]

(١٠) الإصحاح الحادى عشر، الآية ١٦ [المترجم] .

(١١) الإصحاح الرابع عشر، الآية ٢ [المترجم] .

(١٢) الإصحاح الرابع عشر ، الآية ٥ [المترجم] .

(١٣) الإصحاح الرابع عشر ، الآية ٦ [المترجم] .

(١٤) الإصحاح العشرون، الآية ٢٤-٢٥ [المترجم] .

(١٥) الإصحاح العشرون، الآية ٢٦-٢٨ [المترجم] .

(١٦) الوصية السادسة من الوصايا العشر ونصها : "لا تقتل". [المترجم]

(١٧) هامش توماس بيرنيت: (١٦٣٥ - ١٧١٥) رجل دين إنجليزى وله كتاباته عن الكون وشأن الارض وأصل الحياة وقد فكر فى نظرية لتتابع الطبيعة والأحياء وتطورها، ولعله أول من تطرق إلى فكرة التطور التى طرحها داروين بعده بحوالى مائة عام".[المترجم]

(١٨) الضابط الإمبراطورى للساعات: كان أمهر الحرفيين فى مهنته، ويناط إليه مهمة شحن وملء وضبط الساعات الملكية وساعات الميادين العامة الرئيسية؛ فيضبط كل أجزاء الساعة لتعمل بانضباط تام بعد تركه إياها، ليستعين بها مختلف أفراد الشعب لضبط ساعاتهم الخاصة. [المترجم]

(١٩) الشواش: Chaos هى الحالة التي تتحرك فيها الأجسام أو الجسيمات بسرعات غير منضبطة وفى اتجاهات مختلفة لا يمكن حسابها وتوقعها. وهى حالة يعتقد أنها سادت الكون فى بداية تكوينه. [المترجم]

(٢٠) العصر الفيكتورى:عصر الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا (١٨٣٨ - ١٩٠١). [المترجم]

(٢١) من الطريف أنه عاش فى بغداد لمدة ثلاث سنوات كمساعد لإحدى البعثات. كتب عن الروح،آلامها وإلهاماتها، وعن تاريخ المؤسسة اليهودية، ومراحل الإيمان. كذلك له إسهاماته فى المنطق والسياسة والاقتصاد وعلاقة النصوص العربية باليونانية. [المترجم]

(٢٢) أسا جراى Asa Gray (١٨١٠-١٨٨٨) أهم علماء النبات الأمريكيين فى القرن التاسع عشر وكان من مؤيدى داروين فى أمريكا، ولهما مراسلات عديدة دارت حول التوفيق بين نظرية التطور وتعاليم البروتستانتية. [المترجم]

(٢٣) من أعماله المشهورة: " Westward Ho" ووصف الصحراء المصرية فى روايته عن "هيباتيا، و"أطفال الماء" (Water Babies). [المترجم]

(٢٤) سفر الأمثال، الإصحاح الثالث، ١٣-١٧ [المترجم]

(٢٥) سفر الأمثال، الإصحاح الثالث، ١٨ [المترجم]

الفصل الثانى

حل المشكلة من ناحية المبدأ
التعريف والدفاع عن الأروقة المتمايزة

لقد كان قادراً بالتأكيد على تحمل النفقات، أو كان ببساطة قادراً على قيادة العرض بقرار إمبراطورى سامٍ، لكن هل كان هناك طالبٌ أكثر منه تمرغًا فى النعمة، ذلك لحصوله على أفضل المدرسين الخصوصيين؟، إنه الإسكندر الأكبر Alexander the Great الذى أمضى سنوات عديدة متصلة فى تلقى الرعاية، ومن أرسطو نفسه. وقد كان أرسطو يستعمل مفهوم " الوسط الذهبى، أو خير الأمور الوسط " كقاعدة محورية فى فلسفته ومحاضراته، ومضمونها أن حل معظم المسائل الكبرى يكمن فى نقطة ارتكاز تقع بين الطرفين المتباعدين.

عندما أمعن فى النظر فى نموذجين لأشهر أمرين مختلفين من الأساس، بل متعارضين فى الاتجاه، أتساءل عن مدى استيعاب تلميذ أرسطو لدروسه. تفيد الرواية التقليدية بأن الإسكندر بكى وهو فى قمة انتصاراته واكتساحاته الحربية؛ بسبب عدم وجود عوالم أخرى ليقهرها.

ينطبق مأزق الملل هذا عند الوصول إلى مرحلة: "ذهبت إلى كل مكان ، وفعلت كل شيء"، على كل المشروعات المتوقعة. على الجانب الآخر، نجد نموذج "بلوتارك" Plutarch الذى عاش قريبًا من الأحداث فى القرن الأول الميلادى، حيث يطرح مشكلة معاكسة تمامًا، ألا وهى إشكالية الإحساس بالعجز أمام الكون الشاسع، الخارج عن نطاق الإلمام به أو التأثير فيه. كما تبدو أطروحة بلوتارك أكثر صدقًا فى تفسيره مذهب أرسطو حول أبدية العوالم. " قد بكى الإسكندر عندما سمع... أن هناك عددًا لا نهائيًا من العوالم، (قائلاً) : " ألا تعتقد أن الأمر يستحق الأسف، إذا كنا مع وجود هذا العدد الهائل منها، لم ننته حتى الآن من غزو واحد منها؟".

على الرغم من ذلك، فلعل الإسكندر قد استوعب قاعدة "خير الأمور الوسط"، فإذا جمعنا حاصل القصدين وقسمنا الناتج على اثنين، فلعلنا نجد مكانًا وسطًا يدعو إلى الرضا والارتياح عن الإنجازات السابقة، وفى الوقت نفسه يشتمل على حافزٍ كافٍ، للحث على مزيد من النشاط، وبذلك لا يكون هناك مكان لذرف الدموع.

من البديهى أنى ألمحت بخفة إلى هذا المثال المختار، للدلالة على الفكرة العامة للحل. لكننى أوكد على رغبتى فى إثارة نقطة مهمة، حول أسلوبنا المعتاد فى مجابهة المشكلات المركبة، ممثلة بوضوح فى الروايتين المتعارضتين السابق ذكرهما عن الإسكندر. تميل عقولنا إلى

العمل بأسلوب القسمة الثنائية، فننظر إلى حل الأمور المعقدة بأسلوب ثنائى، " فإما كذا وإما كذا " مما يملى اختيار أحد الطرفين البعيدين، دون أن نترك مساحة كافية لـ " خير الأمور الوسط " كحل بديل. (أعتقد أن ميولنا الظاهرية التى لا يمكن تفاديها نحو التجزئة الثنائية، تمثل حملاً ثقيلاً من تراث ماضى التطور؛ حيث كان الوعى المحدود غير قادر على تجاوز "إما.. وإما" أو " نعم أو لا " " قاتل أو اهرب" " تحرك أو استرح"، فتشكلت بذلك الخلايا العصبية للعقول الأولية البسيطة، وترتبت تواصلاتها حسبما اقتضت مثل تلك المتطلبات. على أية حال، علينا أن نترك هذا الموضوع التأملى إلى وقت ومكان آخرين).

إذاً، فعندما يتحتم علينا أن نبحث عن علاقة منطقية، بين موضوعين متفاوتين بالدرجة نفسها (العلم والدين فى حالتنا هذه)، خاصة حين يبدو أن كلاً منهما يثير من التساؤلات ما يمس قلب اهتماماتنا الحيوية حول الحياة ومعناها، نقوم بافتراض ضرورة تطبيق أحد الطرفين المتباعدين: فإما أن يتقاتل العلم مع الدين حتى الموت، فيفوز أحدهما وينهزم الآخر، وإما يتحتم تمثيلهما للمتطلب نفسه، وعليه فيمكن تكاملهما بكل يسر ودمجهما فى بنية كبيرة واحدة.

لكن كلاً من مضمون المخططين يعتمد فى جوهره على الاستبعاد، إما بتدمير أحدهما للآخر، وإما باندماجهما فى كتلة لينة كبيرة، " ككرة كبيرة من الشمع"، بلا حواف حادة ولا نقاط قاطعة، فلماذا لا نختار "

خير الأمور الوسط " كبديل يضمن تحديدهما، كما يضمن شرف وكرامة كل منهما ؟. يمكننا اقتباس أحد السطور المتضمنة لتناقض واضح من الكاتب ج. ك. شسترتون G. K. Chesterton الذى كان يزج كثيراً بالقالب القومى فى حواراته من أجل إنهاء أى بادرة مهتزة أو إشارة تلقائية، فيقول مثلاً بلهجة "المنطق" المتبلد والفارض للقيود : (لا حديث فى الجنس أرجوكم، فنحن إنجليز)، لكنه أيضا أفصح عن رؤية عميقة لحل المعضلات وبصيرة نافذة حين سجل: "ما الفن إلا تحديد؛ فروح كل صورة تكمن فى الإطار".

تأمل فى أى من الأسئلة "الضخمة" التقليدية والأسئلة "المحورية" المنتشرة التى أرقت الناس وحيرتهم على مدى التاريخ، منذ فجر الوعى: مثلاً، هل هناك علاقة بين البشر وباقى المخلوقات الحية؟ وما مغزى هذه العلاقة ؟ ينطوى هذا السؤال على ثراء واسع، بحيث لا يمكن لمعادلة واحدة، أو إجابة بسيطة، أن تمدنا بإجابة شافية (تحتوى كل الأسئلة المنتمية إلى هذا النمط، على قدر كبير من الركاكة، التى تفقدها قوة تركيبها، بحيث تحتاج إلى إيضاح واتفاق حول التعريفات المطروحة، قبل البحث عن خلفية مشتركة).

لابد عند هذه النقطة أن نستشهد بمقولة شسترتون المتعلقة بأطر الصور، وكذا بموضوع هذا الكتاب الأساسى عن الأروقة المتمايزة غير المتداخلة. أدعوك لتفكر فى أى نمط تقليدى واضح، عن أشياء محددة لا

تختلط مثل الزيت والماء، أو التفاح والبرتقال على حد التعبير الدارج الأميركي، أو الجير والجبن في المثل المقارن الإنجليزي، أو اثنين من التقاليد البشرية لا يمكن توحدهما، "ولن يلتقي الزوجان" إلى حين تنتهي القدرة الإلهية النظام الحالي للأمور الممثلة في عالم كيبلنج(٢٦) (Rud- yard Kipling) السامي ("حين تمثل الأرض والسماء عند عرش القضاء الإلهي العظيم"). يضع كل ميدان من التساؤلات إطاره الخاص بقواعده، وبالتساؤلات المقبولة في حدوده، كما يضع معاييره للحكم والقياس والحلول. تتحدد حدود الرواق في أي ميدان معين، بتحديد القواعد القياسية المقبولة، والإجراءات التي يتفق عليها، لطرح أية مسألة مشروعة للمناقشة، والتوصل إلى حل لها. ليس بإمكان أي رواق أن يمتد ليحيط (أو حتى يقترب من القدرة على الإحاطة)، بكل أبعاد المسائل المقلقة المتعلقة بأي موضوع معقد، خاصة مثل التساؤل الكبير عن علاقتنا بأشكال الحياة الأخرى. فبدلاً من افتراض أن بمقدرة مدخل وحيد، الإجابة عن كل ما يشغل اهتمامنا (كالملبوسات ذات المقاس الواحد الذي يناسب جميع الأحجام)، فإننا يجب أن نعد أنفسنا لزيارة معرض للصور، حيث نستطيع أن نتواصل ونتفاعل مع لوحات مختلفة متعددة، كل منها محدد ومحاط بإطاره القوي الصارم. كمثل للأروقة المتمايزة المطبق على أحد الموضوعات الحيوية، دعونا نوجه اهتمامنا إلى إطارين محددين - أي رواقين غير قابلين للتراكب أو الاختلاط - يحيطان بموضوعين مختلفين تماماً، لكن لكل منهما القيمة الحيوية

المهمة نفسها: وهي تساؤلات على طريق بحثنا، في علاقتنا بالمخلوقات الأخرى. فمن ناحية ما، نجد أنفسنا نبحث عن معلومات حول أمور واقعية حقيقية، لا تحتمل الإجابة عنها سوى بـ " نعم أو لا " (هذا على الأقل من ناحية المبدأ؛ ففي واقع الممارسة، يصعب التوصل إلى مثل هذه الإجابات)، فإن بعض الأسئلة الواقعية، قد يتضمن مسائل متشعبة على أوسع نطاق؛ فعلى سبيل المثال، ومنذ أكثر من قرن مضى، قدم التركيب الأساسي لنظرية التطور، حلاً لمشكلات كبيرة كثيرة، مثل السؤال عن انتمائنا إلى المخلوقات الأخرى، وعن وجود روابط نسب بيننا، أم أننا جميعًا وُجدنا كمفردات ضمن المخطط المرتب لخالق إلهي؟ هل يتشابه البشر والقردة العليا (القردة البتراء، غير المذيلة)، كل هذا التشابه لأننا نشترك معًا في السلف القديم عينه، أم لأن عملية الخلق اتبعت تسلسلاً مرتبًا مع وضع القردة العليا في مرحلة سابقة لنا مباشرة؟ تظل أسئلة كثيرة، أكثر تفصيلاً، وأكثر حذقًا بلا إجابة حتى اليوم: لماذا نحمل في مادتنا الجينية ما يسمى نفايات حمض الـ د.ن.ا ((DNA، التي لا تؤدي أية وظيفة ؟ ما الذي سبَّب الانقراض الجماعي الذي اعترض تاريخ الحياة على الأرض؟ (نعلم تمامًا أن ارتطام جسم (نيزك) من الفضاء بالأرض، قد تسبب في آخر حادثة من مثل تلك الأحداث مُنذ حوالي ٦٥ مليون سنة؛ حيث تم القضاء على الديناصورات ؛ مما أتاح الفرصة لظهور وانتشار الثدييات، لكننا لا نعلم شيئًا عن أسباب الأحداث الأربعة المميتة السابقة).

تقع هذه التساؤلات - كما تم بيان ذلك فى مقدمة الكتاب - داخل إطار رواق خاص بمؤسسة أسميناها "العلم"، وهى سلطة تعليمية مكرسة لاستعمال الأساليب العقلية، ووسائل المراقبة والملاحظة التى يتم ثبوت صحتها بالنجاح والممارسة، بما يتفق مع البناء الواقعى للطبيعة ويلائم وصفه، كما يلائم محاولة تفسيره.

يثير موضوع علاقتنا نفسه بالمخلوقات الأخرى، عديداً من الأسئلة ذات الوقع المختلف تماماً: هل لنا قيمة أكثر من الحشرات أو الجراثيم ؛ لأن جهازنا العصبى تطور بشكل أكثر تعقيداً منهم؟ بأى حق (إذا كان هناك حق) ندفع بأنواع حية أخرى إلى الفناء، بإبادة بيئتهم الطبيعية ؟ هل نخرق ونتعدى على أية قواعد أو مبادىء أخلاقية، باستعمالنا لتكنولوجيا الجينات (المورثات) بغرسنا أحد الجينات من مخلوق ما فى مجموعة جينات مخلوق آخر؟ تتناول مثل هذه الأسئلة مسألة "نحن و هُم" (إن الاسترسال فى سرد مجرد هذه الأمثلة السطحية، يمكن أن يشغل كتبًا بكاملها، تعالج الموضوع نفسه)، كما تضم اختصاصات أخرى متعددة وتتشابك معها ولا يمكن الإجابة عنها، ولا حتى توضيحها بأية بيانات مادية من أى نوع. فلا يمكن مثلاً الإجابة عن السؤال الأول، بقياس القدرات العقلية ومقارنتها بين الإنسان والنمل، مهما كانت نوعية القياس. كذلك لا يمكن لأية مرجعية فى مجال تكنولوجيا نقل الجينات، المعاونة فى الإجابة عن الموضوع الأخير.

تدور هذه الأسئلة حول أمور أخلاقية متعلقة بقيمة الحياة ومعناها، لكل من النوع البشرى والأنواع الأخرى بشكل أوسع. لابد أن تسلك المناقشة المثمرة دربًا آخر فى رواق مختلف، أقدم كثيرًا من العلم (على الأقل كتساؤل مشروع)، ومكرس للبحث عن اتفاق للآراء، أو على الأقل إيضاح للفرضيات والمعايير المتعلقة بأخلاقيات "ما ينبغى أن يكون"، بدلاً من البحث عن واقع "ما هو كائن"، المتعلق بالتركيب المادى للعالم الطبيعى[٢٧] يشتمل هذا الرواق الخاص بالمناقشات الأخلاقية والبحث عن معنى، على العديد من الفروع التى جرت التقاليد على جمعها تحت مسمى "المعارف أو الدراسات الإنسانية أو الإنسانيات" مثل كثير من الفلسفة وجزء من الأدب والتاريخ. لكن ركزت المجتمعات البشرية محتوى هذا الرواق، تحت مؤسسة تسمى "الدين" (يجتمع تحت هذا المسمى الواحد عدد مدهش من الممارسات المختلفة، ويشمل كل المعتقدات الممكنة، حول طبيعة أو وجود موضوع القدرة الإلهية، وكل المواقف المحتملة لحرية المناقشة، فى ظل الطاعة لنصوص أو تعاليم لا تتغير).

أؤكد بشكل قاطع أنى لا أطلب من أنصار الأخلاقيات، ضرورة توثيق مثلهم العليا، عن طريق اللجوء إلى الاستشهاد بالدين، فنحن نطلق مسميات متعددة على محتوى هذا الرواق المهم. كما أننا جميعا نعلم أن الملاحدة يمكنهم العيش بمنتهى الالتزام الأخلاقى، بينما يستطيع المنافقون تبديل شعاراتهم والانطواء تحت أية راية، بما فى ذلك

شعـارات الله والوطن (وهذا يظهـر بوضـوح شـديد) ، ولكنى أكـرر أن الدين احتل مركز هذا الرواق، فى أعراف وتقاليد أغلب الحضارات.

بما أنه لابد لكل منا التوصل إلى قرار، بشأن القواعد المتبعة فى تدبير شئون حياته (حتى لو اقتصرنا على تكريس أنفسنا للتنمية الشخصية غير المحدودة، وبغض النظر عن أثر ذلك، وما يمكن أن يحدث للناس الآخرين)، وبما أنى واثق من عدم وجود فرد واحد، لا يتأثر ولا يؤثر فى أحداث العالم المحيطة بنا (يكفينا مثلاً معرفة شىء عن سرعة السيارات حتى لا نعبر الطرق السريعة كلما شئنا ذلك)، فعلى كل البشر الالتفات إلى كلٍ من رواقى الدين والعلم، مهما تضاءل حجم هذا الالتفات، وبغض النظر عن المسميات التى نطلقها على ميادين التساؤلات الأخلاقية والواقعية (المادية). يمكن دعم مجرد الوجود بأقل قدر من الاهتمام، كما هو موضح فى المثال البسيط المذكور أعلاه. لكن النجاح الحقيقى – فى الأقل بمعناه التقليدى المحافظ الدال على أصالة التكوين الشخصى – يستلزم الاشتباك مع الأمور العميقة والصعبة لكل من الرواقين. لن تلتحم الأروقة أبداً فى كتلة واحدة؛ فعلى كل منا – إذاً – أن يجمع هذه المفردات المحددة، فى نظرة متكاملة ومتماسكة للحياة. فإذا نجحنا فلعلنا ننال شيئًا فى حقيقته " أثمن من اللآلىء"، ويتمثل بجدارة فى كلمة من أجمل الكلمات فى أية لغة، ألا وهى "الحكمة".

لقد قمت بتنقيح مسألتين أوليين فى مفهومى عن العلاقة السليمة بين العلم والدين، وتحديد الأروقة التعليمية المتمايزة لكل منهما:

أولاً، أن لكل من هذه الميادين قيمة مساوية، ومكانة بالغة الأهمية لأية حياة إنسانية متكاملة. ثانيا، يبقى كل منهما محدداً منطقياً ومنفصلاً تماماً عن الآخر فى أساليب البحث المختلفة. تسرى هذه الأساسيات مهما بلغ الجهد، ومهما بلغت درجة التشابك الضرورية - من منظورنا- فى التفاصيل الدقيقة لكل منهما؛ من أجل الوصول إلى بناء نظرة عميقة شاملة متكاملة للحياة، أو ما نسميه الحكمة. ولابد لى قبل البدء فى عرض بعض النماذج (المذكورة فى النصف الأخير الأكثر صلابة من هذا الفصل)، أن أدعم مزاعمى عن هذين المطلبين المحوريين حول الأروقة، فى مواجهة تحد بديهى متأصل فى تركيب نقاشى المذكور.

١- **المكانة المتساوية للأروقة** : من الناحية المهنية، فأنا عالم، كذلك أنا متشكك فى الجدل اللاهوتى وغير مشارك باعترافى (كما هو مذكور فى بداية الكتاب) مهما بلغت درجة إعجابى الخالص بالأديان كموضوع). فهل أمارس - فى الحقيقة - ما أدعو إليه من مساواة لا مفر منها لمكانة الأروقة المختلفة؟. هذا فى الوقت الذى يشغل أحدهما جل حياتى، فى حين يثير الثانى اهتمامى فقط؟. بتحديد أكثر، كيف لى أن أدافع عن إقرار باحترام الدين، فى حين أبدو مشوِّها ومسيئًا لمؤسسته، بإسقاطين واضحين من مناقشتى السابقة ؟ لماذا لا ينظر القراء إلىَّ كمجرد عالم متباهٍ آخر يدعو بنفاق، إلى عدم التداخل

(المقصود الأروقة) المبنى على احترام عميق وتعاطف ، فى حين أنه فى الواقع يحاول زعزعة مكانة الدين، ليصبح عقيماً وبلا أى ناتج.

فيما يتعلق بمسألة التورط الأولى فى الاشتباه المحتمل، فقد ذكرت أنه فى الوقت الذى يجب فيه على كل إنسان صياغة نظريته الأخلاقية فى حدود رواق الأخلاقيات والمعانى، وفى الوقت الذى يرتبط فيه الدين بقوة بذلك الرواق فى معظم التقاليد المتحضرة، إلا أنه لا يلزم الاستناد والاستشهاد بالدين بشكل رسمي، لتحديد المسار المختار، وله أن يستلهم أرضيته الأخلاقية، من سياق مناطق أخرى كالفلسفة مثلاً. إذاً كيف يتسنى لهذا الموضوع أن يتساوى فى الأهمية والشرف مع العلم (الذى لا يمكن تجاهله بدوره، إلا إذا آمن شخص ما بكل إخلاص، أن كل خطوة له قد تقذف به إلى أغوار الفضاء، بدلاً من إعادة قدمه إلى الأرض بفعل الجاذبية الأرضية)؟

العودة إلى مثل سابق، أبدى ت. هـ. هاكسلى انزعاجه، لدى سماعه فقرة تقليدية تتردد ضمن الطقوس الجنائزية للكنيسة الإنجليزية؛ حيث تشير إلى الاعتقاد بأن البعث فى الحياة الآخرة، يؤدى دوراً مهماً للحث على اتباع سلوك مهذب أثناء حياتنا الأرضية:

"عندما وقفت فى ذلك اليوم خلف نعش ابنى، وكل ذهنى متجه إلى أى شىء إلا الجدل، قرأ القسيس ما يلى كجزء من واجباته: "دعونا نأكل ونشرب، فالموتى يُبعثون، وسنموت كلنا غداً". لا أستطيع أن أعبر عن

مدى صدمتى ... ما هذا ! أيطلب منى أن أنبذ آدميتى وأنبح وأزحف كالحيوانات. وأتخلى عن مشاعرى وأنا أقف وجها لوجه أمام خسارتى التى لا تعوض؟. حيث أعدت إلى المنبع مصدر سعادتى البالغة، ونبع الهناءة الذى نبع منه والذى سيظل يشع طوال حياتى. لماذا تعرف حتى القردة العليا ما هو أفضل من ذلك؟! فإنك إن قتلتَ صغارها، تمكث هذه الحيوانات المسكينة ترثى آلامها وأحزانها، ولا تتجه مباشرة للبحث عن لقمة تتلهى بها!

يلاحظ هنا أن هاكسلى يهاجم طرحًا محددًا، داخل منظومة معينة من التقاليد، ولا يهاجم صلب العقيدة نفسها. ولابد أنه كان يفكر فى هذا المثال، عندما كتب بعد ذلك فى الرسالة ذاتها، بأن الإحساس العميق بالدين "يتمشى مع الغياب الكامل للعقيدة". فالرواق قبل كل شيء، مكان للحوار والمناقشة، وليس منظومة من القواعد الثابتة الأبدية. على ذلك فقد انضم هاكسلى بأقواله هذه، إلى نقاش داخل رواق الدين، حول القيمة الأخلاقية للأعمال الصالحة. وهو يقف بكل تأكيد خارج رواق العلم، حتى أنه يدعى ما يتضح بعد ذلك أنه خطأ، ذلك فى استناده الوحيد إلى حقيقة مفترضة (الخاصة برثاء القردة العليا) لتوضيح موقف لا يمكن إقراره إلا فى سياق الأخلاقيات (حيث تزداد قيمة الأفعال، على أساس مدى اتساقها مع المبادئ، وليس خوفًا من العواقب). ويبدو هاكسلى - جلاد الرب المفترض - راضيًا تمامًا عن تأسيس رفضه، بترديد تعاليم مسيحية على مبادئ أسمى، وهى التى يقبلها بصفتها

دينية فى طبيعة جوهرها. إذاً دعونا نقر ونتفق، على الحاجة الشديدة والمكانة المركزية للحوار داخل هذا الرواق (حول تساؤلات حيوية لا يمكن للعلم أن يمسها، ونبتعد عن المراوغة حول الشعارات. سأوافق على وجهة نظر هاكسلى، وكذا الجذر المشتق من الكلمة نفسها المقبول باعتباره دينيًا (الدين حرفيًا، بمعنى ما يجمعنا ويربطنا معاً)[٢٨] كل مقولة أخلاقية، حول المبادئ التى يمكن أن تنشط التآخى العالمى المثالى بين البشر.

كعنصر ثانٍ له دلالته الشمولية، ألست أقوم بتشويه صورة مجمل رواق الأخلاقيات ومعناه بطريقة مهذبة (بغض النظر عن اختيارنا للألفاظ) بقولى ضمنا، إنه لا يمكن الإجابة بالكامل عن التساؤلات الأخلاقية، حيث لا يجوز إلا لأحمق أن ينكر ثورة الكواكب[٢٩] أو تطور الحياة ؟ يمكننا العودة فى هذه النقطة إلى قاعدة التفاح والبرتقال، بمعنى آخر إلى قاعدة الأروقة المتمايزة نفسها. لابد من النظر إلى عدم إمكان التوصل إلى حل مطلق، كخاصية منطقية لشكل المحتوى نفسه، وليس كمحدد له (إن أهمية هذا الرواق الحيوية تعتمد أساسًا، على الأهمية السامية للأمور الأخلاقية؛ وعلى الأسئلة ذات المعنى، لكل البشر المفكرين وذوى المشاعر، ليس من خلال الشكل المتاح من الحلول، وهو شكل يعتمد- إلى حد كبير- على الحلول الوسط والإجماع فى هذا الرواق، أكثر من اعتمادها على الحقائق والوقائع، كما هى الحال فى رواق العلم). وإلا جاز للمرء أيضًا أن يشوه صورة رواق العلم، الذى لا

تستطيع فيه كل مقدرات هذا الرواق العظيمة أن تلقى بصيصًا من الضوء، على أقدم وأبسط الأسئلة الأخلاقية التى طاردت فكر البشر، منذ فجر الوعى والضمير .

٢- استقلال الأروقة: كيف يتسنى لأحد أن يكون جاداً، وهو يقدم هذا المطلب المتبجح بانفصال الأروقة واستقلالها، فى الوقت الذى يمكن فيه بحق، وصف بضعة القرون الماضية من تاريخ البشر، بادعاءات متعددة عن عمق الخلافات المتأصلة بين هذين الميدانين - بداية من نجم الكرة المشهور السابق " بيللى سانداى Billy Sunday، الذى قال إن أى قس يعتقد فى مسألة التطور، لابد أنه "جرذ عفن ومنافق وكذاب"، وإلى مقولة دزرائيلى Disraeli الأكثر بلاغة :

"إن السؤال هو: هل الإنسان قرد أبتر أم ملاك؟ يا إلهى إنى مع جانب الملائكة، وأرفض بسخط واشمئزاز وجهة النظر الأخرى، التى أعتقد أنها غريبة على الضمير الإنسانى ... لقد خلق الإنسان على صورة خالقه - مصدر الإلهام والعزاء- والنبع الذى لا يأتى منه إلا كل ما هو سليم من الأخلاقيات، وكل حقيقة إلهية. إن على المجتمع أن يقرر بين هذين التأويلين المتناحرين عن طبيعة الإنسان، بما فى ذلك العواقب، إن تنافسهما يكمن فى قاع كل الشئون الإنسانية".

علىّ أن أرجئ الإجابة عن هذا السؤال المركزى، إلى النصف الثانى من هذا الكتاب؛ حيث سيشغل الفصلين: الثالث والرابع. أما

الآن، فكصاحب لمنطق مناقشتى، فإننى أقر فقط أننى أحاول تحليل المنطق المتأصل لموضوع، كما يرى من خلال فاصل تاريخى، للابتعاد عن حدة الانفعال وحرارة مناقشته المباشرة. كذلك لا أدعى أية ادعاءات عن حقائق تاريخ ثقافتنا ومجتمعنا.(يجب أيضًا أن أكرر كما سبق وتصدر مقدمة الكتاب، أن الأروقة التعليمية المتمايزة، تعبر عن اتفاق أجمع عليه كل رواد العلم ورواد الدين منذ زمن بعيد، وهى ليست حلاً شخصيًا شاذًا، ولا هى موضع خلاف). باختصار فيما يشبه الكاريكاتير للنصف الثانى من هذا الكتاب، فلا توجد مؤسسة تسلم أراضيها وروابيها باختيارها. جاء رواق العلم متأخرًا فى تاريخ البشرية. كذلك، وخير من عدمه، فقد احتلت الأديان يومًا ميدان التساؤل والبحث فى الحقائق. ويصعب تصور انسحاب أىٍّ كان من كل هذه الممتلكات والمساحات من دون صراع. بغض النظر عن مدى عدالة وصدق الدعوى، بأن من شأن هذا التراجع أن يدعم ويقوى النظام نفسه.

أخيرًا، ما مدى التباعد بين رواقى العلم والدين؟ هل تقع الأطر المحيطة بالصور على طرفى النقيض، فى معرض ملكاتنا الذهنية، مع أميال من حقول الألغام بينهما؟ إذا كان الأمر كذلك، فما وجوب الحوار حول أروقة متباعدة إلى هذا الحد ولا يجوز تداخلها، وحول أهمية الجمع والتكامل بينهما، من أجل إمداد الحياة الثرية بالحكمة؟

أدعى أن عدم الخلط يقترب من كماله فقط، داخل إطار المعنى المنطقى المهم، بأن القواعد القياسية للتساؤلات المشروعة، وقواعد الحل

داخل أى إطار، هى التى ترغم الأروقة على عدم الامتزاج، كما فى المثل المجازى بعدم امتزاج السوائل، الزيت والماء. لكن كما فى مثال طبقات الزيت والماء، فإن التلامس بين الأروقة لا يمكن أن يكون أكثر قرباً والتصاقًا وتأثيراً، فى كل مساحة تلامس صغيرة مهما بلغت دقتها (أو بين كل ذرة ومقابلتها). إن رواقى العلم والدين كإطارين منفصلين، لا يكشر كل منهما للآخر، على جدران متقابلة فى متحف الفنون الذهنية، فإن العلم والدين يتشابكان ويتضافران كالأصابع المعقودة، ويتماثلان فى كل التفاصيل الكبيرة والصغيرة بكل المقاييس، مهما بلغت دقتها ومهما تعددت أمثالها (بالمعيار الجزيئى[٢٠]-الكسرى- للتماثل الذاتى، (Fractal scale of self similarity.

وتبقى الأروقة غير متداخلة، تماماً كما لا يمتزج القرينان مهما كانت درجة نجاح الزواج. إن أية مشكلة مثيرة للاهتمام، وبأى مقياس (ومن هنا جاء ذكر المقياس الجزيئى المذكور؛ والمقصود به أعمق من مجرد المجاز) لابد أن يستنفر الإسهام من كلا الرواقين حتى يمكن الوصول إلى درجة مناسبة من الإيضاح. ثم إن منطق التساؤل يمنع الالتحام الحقيقى كما وضح فى السابق فلا يستطيع رواق العلم التعدى على علوم الإنسان الأخلاقية - أى سجل معتقدات الإنسان، بما فى ذلك معلومات مهمة مثل: نسبة ظهور واختفاء قيم أخلاقية معينة، داخل حضارات بعينها، وعلاقة هذه القيم بالظروف البيئية والاقتصادية، وكذا (فى الأقل من ناحية المبدأ) قيمة ومدى تكيف بعض المعتقدات، مع

مواقف محددة للداروينية[٣١]، على الرغم من أنى قد نشرت أعمالى المشتملة على تشككى الشديد حول التأملات بهذا الشأن فى مكان آخر. لكن لا يستطيع العلم أن يقول شيئًا بصدد أخلاقيات القيم. بمعنى أن الاكتشاف ذا الدلالة لعلماء "علم الإنسان"، بأن القتل، وقتل الأطفال، والإبادة الجماعية، وكراهية الغرباء، قد تكون من خصائص مجتمعات بشرية عديدة، كما تكون قد نشأت بصفة خاصة فى بعض المواقف الاجتماعية، كذلك يمكن أن تكون هناك فائدة من ممارستها، إذا كانت ضمن سياق معين. هذه الأمثلة لا تعطى أى دعم بأى شكل كان، للعرض الأخلاقى بأنه ينبغى علينا أن نسلك هذا السلوك.

ستظل مجموعة من فلاسفة الأخلاقيات المتخوفين، تنظر إلى هذه الحقائق باستخفاف، وتقلل من أهميتها. هذه الحقائق لا يمكنها - بحال من الأحوال - دعم أى موقف أخلاقى، لكننا ولا شك نرغب فى فهم الخلفيات الاجتماعية للسلوك الإنسانى، حتى لو كان ذلك فقط من أجل التعرف على الصعوبة النسبية للتأسيس لاتفاق فى الآراء، داخل رواق القيم والمعانى. يمكننا باستخدام مثل ساذج، أن نعى حقائق الشئون الجنسية لدى الثدييات - على الأقل - نتفادى الإحباط الشديد، إذا قررنا أن ندافع بلا نقاش عن الزواج المفرد[٣٢] باعتباره الطريق الأخلاقى الوحيد للمجتمع البشرى، ثم يرتبك الأمر علينا ونضطرب، عندما نفاجأ بجدلياتنا التى نحتناها بكل قوانا، وبكل رشاقة ممكنة، تتهاوى ولا تساوى شيئًا يذكر عند التطبيق.

بالمثل يفعل العلماء خيراً بتقديرهم لطبيعة الخطاب الأخلاقى، حتى لو كان فقط من أجل فهم السبب، الذى من أجله يعترض أحد المفكرين من غير المتخصصين، بكل عدالة، على التأكيد بوجوب إجراء تجربة معينة، في مجال التحكم فى تناسل الإنسان؛ حيث إننا نمتلك الآن التكنولوجيا لنتقدم، وان النتائج ستكون مثيرة داخل إطار المنطق الداخلى، *للتوسع المعرفى والتفسيرات*.

بداية من "مووت " Mutt و " جيف Jeff[٣٣] وإلى ين ويانج[٣٤] (Yen and Yang)، فإن كل حضارتنا، بكل تنوعات مستوياتها وتقاليدها، تضم صوراً للتوحد المطلق، لأضداد متباينة تماماً. لماذا إذاً لا نضيف رواقى العلم والدين إلى هذه القائمة الجليلة المبرزة ؟

إيضاح الأروقة

خلال دفاعي عن مسألة الأروقة المتمايزة على مر السنين، وجدت زملائي المتشككين، لا يعترضون على منطق المسألة نفسه؛ فأغلبهم يقبلون بسلامتها الفكرية، ووجاهتها عمليًا في عالمنا المتنوع الشاعر. لكنهم يتشككون ويعارضون زعمي، بأن معظم رجال العلم ورجال الدين - في واقع الأمر- يدعمون مبادئ الأروقة. فكلنا يعرف - بطبيعة الحال- أن كثيراً من الناس والحركات يتخذون مواقف عدوانية محدودة، كمحاربي الأقليات الحزبية المغاوير، وترتبط هذه المواقف - في العادة - ببرنامج سياسي معين، وتعتمد على الإعلاء والتمجيد لأحد الجوانب، بهدف الإطاحة بالجانب الآخر. من البديهي أن من يمثلون أكثر هؤلاء المغاوير ظهوراً للعيان، هم المتطرفون الملقبون بالـ "اليمينية المسيحية"، وخاصة تلك الشريحة المتفانية من أجل فرض مذهب "الخلق" على مناهج تعليم العلوم في المدارس العامة الأمريكية. لكني أضم إليهم أيضًا، بعض المحاربين من غير المؤمنين من بين زملائي العلميين، ممن لا يكفي مفهومهم الخاطف عن الدين، لاستيعاب مدى أهمية الدقة والتنوع، ومن ثم يساوون بين هذا الرواق بكامله، وسخافة وخرافية بعض معتقدات

الناس، الذين يتوهمون رؤية صورة السيدة العذراء منحوتة بالعناية الإلهية، أثناء تبخر قطرات الندى، من سطح الواجهة الزجاجية لصالة معرض للسيارات فى ولاية نيوجرسى.

يجب علينا - فى المقام الأول - أن نتعامل مع هؤلاء الناس، على أساس أننا فى معركة سياسية ولسنا فى إطار حوار ثقافي. ويوضع فى الاعتبار بداهة، أن المتطرفين ممن كرسوا مجمل طاقتهم، بل حياتهم نفسها، من أجل هذا النمط من الدفاع العدوانى، لا يفضلون الدخول فى حوارات جادة محترمة. يجب إذًا على المؤيدين للأروقة المتمايزة، وكل الملتزمين بالدفاع عن الاختلافات الشريفة، الإبقاء على يقظتهم ونشاطهم، حتى يتمكنوا من التفوق السياسى.

حتى بعد إقصاء المتطرفين، فلا يزال بعض الناس يفترض ضرورة وضع كبار رجال الدين ورجال العلم على طرفى النقيض (وحتمية تعاملهم معًا بتوتر شديد)، لأن هذين المجالين غير المنسجمين لابد أن يتصارعا فى نهاية الأمر؛ من أجل امتلاك الأراضى نفسها. فإذا استطعت توضيح أن الأروقة تتمتع بتأييد كامل واضح، حتى من ممثلى التيارات السلفية ذات التقاليد الصارمة؛ فستصبح الأروقة مكانًا معقولاً للاتفاق العام، المبنى على أساس صراع طويل بين أصحاب النيات الحسنة من كلٍّ من الرواقين، وليس كعرض هزلى طارئ، من قلة من صناع السلام الشوارد فى ساحة المعركة الحتمية، لمجرد إشباع رغبتهم فى الظهور.

بناءً على ذلك، سأتناول بالمناقشة دفاعين مختلفين إلى أبعد الحدود، ولكنهما دفاعان يدويان بالقوة نفسها، تأييداً للأروقة، وهى أمثلة لم يكن فى الإمكان وجودها من الأصل، إذا كان مقدراً للعلم والدين، أن يتصارعا للأبد حول ميدان نزاع واحد:

أولاً . إقرار الدين بأحقية العلم فى أكثر المسائل إثارة للنزاع (موقف الباباوات الحديث تجاه مسألة التطور).

وثانيًا: تناول رجال الدين للعلم بكل شرف فى فجر العالم الحديث (الذين كان يجب عليهم، بما يحملونه من آراء تقليدية، سحب البساط من تحت أقدام هذا الصرح، بدلاً من المعاونة على انتشاره).

١- داروين والباباوية: يميل من لم يشبوا تحت مظلة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى النظر إلى البابا، باعتباره رمزاً للتقاليد العقائدية الواجب - بتعريفها- أن تكون معادية للعلم؛ وذلك بسبب الجهل والتقليد الأعمى، الذى لا يمكن الدفاع عنه. يشجع على انتشار هذه النظرة بين الناس (خاصة ممن لا يستوعبون حقيقة معناها ووظائفها)، ما تتسم به التعاليم البابوية الصارمة المعصومة من الخطأ، وامتلاك الحق فى إصدار القرارات السامية وما إلى ذلك من صفات، هذا بالإضافة إلى المبالغة فى ارتداء الأزياء المطرزة، وأداء الطقوس والشعائر (وكلها أُديت وتؤدى رسميًا باللغة اللاتينية، المستعصية على الفهم والاستيعاب).

(أما فيما يتعلق بتقديرى الشخصى، لمؤسسة لا تسعى دائمًا للوضوح والشفافية، فسأظل ممتنًا لأحد الإنجليز اليسوعيين الذى غَيَّر مسار حياته، فهجر عمله الناجح، لينخرط فى ممارسات متصلبة على مدى عشرين عامًا، وكنت قد قابلته منذ عدة سنوات، حيث تصادف جلوسه على المقعد المجاور لى، فى دار الأوبرا بمدينة روما. ثم قضينا اليومين التاليين فى مناقشات مكثفة. أعلمنى من خلالها أن كنيسته - فى أفضل حالاتها، وعلى حد قوله - "مجتمع عملاق للمناقشة والحوار". صحيح أن التصريحات البابوية قد تحظــر التمادى فى الخلافات على المستويين: الرسمى والعلــنى، لكن الحوار الداخلى لا ينتهى ولا حد له. خذ مثلاً الصبر الأسطورى، وعناد أيوب [سفر أيوب، العهد القديم، الإصحاح الثالث عشر، الآيــة ١٥] "هو ذا يقتلنى لا أنتظر شيئًا فقط أزكى طريقى قدامه".

علاوة على ذلك، فهناك الرمز البارز المتسيد لمجالنا الثقافى، الذى ينطلق تلقائيًا كلما أثير موضوع العلاقة بين العلم والكاثوليكية، ممثلاً فى محاكمة جاليليو التاريخية حيث اضطر إلى الإقرار بخطئه، والتخلى علانية عن أفكاره. تتصدى الرواية التقليدية بقوه لفكرة الأروقة، كما أنها تصور البابا إيربان الثامن[٣٥] Urban VIII كالوغد، وتصور جاليليو كالبطل الشهيد، وتعطى نموذجًا تتضح فيه حتمية الحرب المتأصلة بين الرواقين. يستحق الموضوع كتابة عدة مجلدات، بدلاً من مجرد الفقرات

القليلة المتاحة هنا، لكن علينا فى البداية، أن نرفض الشعارات المنطوية على المفارقة المغرضة، بتصوير جاليليو عالمًا معاصرًا يقاتل المعتقدات المحصنة، لكنيسة تعمل خارج رواقها تمامًا، والمخطئة بشأن الحقائق الأساسية للكون لدرجة مثيرة للسخرية. لن ألح فى طلب مراجعة كاملة للموضوع، فالحقائق الثابتة لا يمكن دحضها: عومل جاليليو بقسوة بالغة (أجبر على الركوع على ركبته، ثم حُددت إقامته باقى حياته)، فحسب ما جاء فى واحد من أفضل الكتب التى تناولت هذا الموضوع (وهو كتاب "جاليليو، رجل الحاشية" لمؤلفه ماريو بياجيولى Mario Biagioli، وتولت نشره مطبعة جامعة شيكاغو فى عام ١٩٩٣)، كان جاليليو على حق، فقد كان خلافه مع البابا يمثل خلافًا بين رؤيتين عالميتين غير متوافقتين، حيث دافع البابا عن المبدأ التقليدى الراسخ، القائل بأن الأرض هى مركز الكون. لكن عندما نبدأ فى تقدير ولو جزء بسيط من طبيعة الحياة المركبة، فى محاكم روما فى القرن السابع عشر - ذلك العالم المختلف تمامًا عن عالمنا الذى نعيشه اليوم بكل ما فيه من تصنيفات وتعريفات، لا تقودنا إلا إلى البلبلة وعدم الفهم - ساعتها يمكن أن نفهم السبب فى تصورنا غير الواضح لمحنة جاليليو، من خلال مفهومنا وتعريفنا المعاصر للعلم وللدين.

وكما يعرض بياجيولى، فقد سقط جاليليو ضحية لنوع تقليدى من مسرحيات الدراما فى محاكم الأمراء الأوروبية. كان مافيو باربيرينى Maffeo Barberini صديقًا شخصيًا لجاليليو، ومن رعاة الفنون والعلوم

بصفة عامة. وعندما تولى منصب البابوية باسم البابا إيربان الثامن فى عام ١٦٢٣، اعتقد جاليليو- وقد أشرف حينها على الستين من عمره - أن فرصته الذهبية قد حانت. كانت الكنيسة فى ذلك الحين قد حظرت تداول آراء كوبرنيكوس **Copernicus**، القائلة بمركزية الشمس، واعتبار ذلك من حقائق الطبيعة، لكنها تركت نافذة صغيرة بسماحها بمناقشة مثل هذه البدع الفلكية، بصفتها نظريات رياضية فقط.

تحرك جاليليو بسرعة أكثر من اللازم، وإلى أبعد من اللازم بشكل مثير للاستفزاز. حيث كان قد أمضى حياته فى سعى ضرورى من أجل التمتع برعاية البلاط والأمراء، ثم زالت تلك النعمة عن جاليليو، ولم يصبح له إلا دور عام فى زمانه ومكانه، وحسب كلمات بياجيولى : "لقد تم القذف بمسيرة جاليليو الحياتية بعيداً، ثم انفرطت تماماً بعد ذلك... إنها طبيعة حياة البلاط والرعاية ... هذه الديناميكيات التى قادت جاليليو إلى المشكلات، كانت نموذجًا عاديًا لما يحدث فى بلاط الأمراء، ويشبه ما كانوا يطلقون عليه "سقوط الأفضل".

كحافز للتساؤل حول نماذجنا المعاصرة المضللة، اسأل نفسك عن السبب الذى من أجله تقوم إحدى القيادات الدينية بإكراه جاليليو وإذلاله؟! ولماذا وافق رجل الطبيعة المرموق، على مناقشة موضوعه أمام محكمة كنسية فى روما؟! وتذكر أن الدولة المسماة إيطاليا اليوم، لم يكن لها وجود فى عام ١٦٣٠، وأنه كان للبابا مطلق السلطة المدنية على

روما، وكثير مما يحيط بها من أراضٍ. كان على جاليليو المثول أمام المحكمة، لأنها تمثل "القضاء في الأرض"، ولها كامل سلطات الإدانة والتنفيذ. الأكثر من هذا، أن موقف المحكمة البابوية كان متفرداً بحساسيته البالغة، بين باقي محاكم الأمراء الذين يسيطرون على بقاع أوروبا: كانت الأوقات عصيبة بصفة خاصة (فقد كانت الكنيسة الرومانية تجابه قوى الإصلاح المتزايدة، وفي منتصف حرب الثلاثين عاماً المدمرة(٣٦) فكانت بيد البابا سلطات غير عادية، سواء كحاكم مدني لعدة مناطق أو كصاحب السلطة الدينية على نطاق أوسع، كذلك لم يتمتع البلاط البابوي بأي نوع من الاستقرار، في ظل حكم الأسر المتتابعة، حيث إن أصحاب المناصب الجدد حصلوا على مراكزهم، عن طريق الانتخاب وليس بالتعيين. كذلك كان من الممكن تعيينهم، من بين الأوساط الشعبية غير الأرستقراطية، وأخيراً فإن معظم البابوات وصلوا إلى مراكزهم. وهم متقدمون في السن، لذلك كانت معدلات التغيير سريعة بشكل غير عادي، وقلة منهم فقط تولوا المنصب لفترة طويلة كافية لتعزيز سلطانهم.

أضف الآن إلى هذا المزيج، هذا النابغة ذا الرأس المشتعل، الذي سبَّب المشكلات من قبل، والذي يأتي الآن ليسخر من تعليمات البابا (وكان- في أقل تقدير- متعمداً إن لم يكن مستفزاً وعنيفاً) بتأليفه لكتابه الجديد، كحوار مفترض بين ندين متساويين، ثم قيامه بوضع إشكالية مركزية الأرض، التي تمثل الموقف الرسمي للكنيسة، على لسان

شخصية أسماها: "سمبليسيو[٣٧] Simpliciu" بحيث يتمشى معناها مع ما تحمله من منطق. لقد أخطأ البابا إيربان الثامن في تصرفه، حسب ما أقره التاريخ بعد ذلك، لكنى لا أجد أية صعوبة فى تفهمى لإحساسه بالاستياء والكدر، إن لم يكن بالخيانة، ويمكن لهذه المشاعر أن تولد عواقب وخيمة، متوقعة بالنسبة إلى هذا العصر المبكر، بكل ما فيه من عقلانيات وإجراءات مقبولة، مهما بدت بعيدة عما نحن فيه الآن.

ما تزال قوة قصة جاليليو - اليوم وكما كانت أبداً - تهيمن على أية مسألة تتناول موضوع العلم وسلطة الكنيسة. ولا أدرى كيف يمكن فهم مدى اندهاش المعلقين العلميين، وكم العناوين الرئيسية فى الصحف الإخبارية فى العالم الغربى، عندما أصدر البابا يوحنا بولس الثانى[٣٨] تصريحاً حديثاً أدهشنى ؛ إذ رأيته غير جدير بالاهتمام، ومتوافقاً تماماً مع الدعم المستمر على المدى الطويل للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، لمسألة الأروقة بصفة عامة، ولشرعية الادعاء بتطور الإنسان كموضوع للدراسة بصفة خاصة. فأنا أعلم فى نهاية الأمر أن البابا بيوس الثانى عشر[٣٩] قد دافع عن التطور، كمبحث شرعى فى المرسوم البابوى المعنون: "أصل الإنسان" الذى نشر فى عام ١٩٥٠، وأنه لم يفعل ذلك إلا من خلال الاستلهام الصريح لمسألة الأروقة، بمعنى التعرف على الدراسات المتعلقة بالتطور المادى، وتحديدها بوصفها خارج نطاق رواقه. هذا - فى الوقت نفسه - الذى يفصل فيه بين هذه المفاهيم

الداروينيـة، ومـوضـوع آخـر كثـيـراً مـا يكون مـحل التـبـاس بينه وبين الادعاءات العلمية، ولكنه يقع بالتـمام داخل رواق الدين: ألا وهو منشـأ وكيان روح الإنسان.

لاحظت مع المزيد من القراءة والدراسة المتأنية؛ أن منشـور البابا يوحنا بولس الصـادر عام ١٩٩٦، قد أضـاف بُعدًا مـهـمًا لوثيقـة البابا بيـوس السـابقـة، والتى صـدرت قـبل نصف قـرن. لأن تفـاصـيل تلك المقارنة تزودنى بمثلى المفضل لمسألة الأروقة، كما استعملها ونماها أحد القـادة الدينيين ممن ينـظر إليـهم -عمـومًا ومن داخل رواقـه- كممـثل لرواد حـركات التـوفيق. فإذا عـبرت فكرة الأروقة، وحـددت وجـهة نظر السليل المباشر للبابا إيريان الثامن، إذًا فباستطاعتنا جميعًا أن نسعد ونرحب بالإجماع(٤٠).

تقف الوثيـقـة التى كتبـها البابا بيـوس السـابع "أصل الإنسـان" Humani Generis فى عام ١٩٥٠، وهـى وثيقـة تقليدية للغـاية، وكاتبـها رجل شـديد التـحـفظ، فى وجـه جـمـيع النظريات والأعـمـال المثـيـرة للاشـمـئزاز، التى سـادت صـحـوة الحـرب العـالميـة الثـانيـة، والتـى بثت الحيوية فى معركة إعادة بناء صرح الاحترام الإنسانى اللائق، من رماد المحارق والإبادة الجماعية. يحمل المنشور العنوان الفرعى " بشـأن بعض الآراء الخـاطئـة، التى تهدد بتقـويض مؤسسـات العـقيدة الكاثوليكيـة "، ويبدأ بتحصين تمهيدى فى البداية.

"كانت الخلافات والأخطاء بين الناس حول الأمور الأخلاقية والدينية، سبباً دائماً لأحزان عميقة لكل الناس الصالحين، وعلى رأسهم أبناء الكنيسة المخلصون، وخاصة اليوم ونحن نرى فيه مبادئ الحضارة المسيحية، وقد أصبحت محل هجوم من كل الجوانب".

يندفع بيوس بدوره، مهاجماً للكثيرين من أعداء الكنيسة الخارجيين: المذهب القائل بأن الله والطبيعة كيان واحد، والمذهب الوجودى، ومذهب الجدلية المادية، والمذهب التاريخى، وبطبيعة الحال وبشكل بارز، الشيوعية. ثم يسجل بأسى بالغ، أن بعض أصحاب النيات الحسنة من داخل الكنيسة، قد سقطوا فى هاوية النسبية الخطيرة، فيقول عنها:

"مسالمة عقائدية، ومساواة تصح وتتعادل فى ظلالها، كل وجهات النظر"؛ هذا من أجل ضم الذين يتطلعون لاعتناق الديانة المسيحية، لكن لا يودون قبول المذهب الكاثوليكى بشكل خاص.

يبدأ بيوس بالحط من نظرية التطور، والتنديد بسوء تناولها وانتشارها الزائد، بين المؤيدين المتحمسين لهرطقة الـ "مذاهب".

"يتناول البعض مسألة التطور بشكل غير متعقل وعدم روية – ويزعمون أنها تفسير منشأ الأشياء ويشترك الشيوعيون بسعادة فى هذا الرأى؛ حتى يتسنى لهم بعد حرمان أرواح البشر من كل تصور عن الإله، دعم ونشر ماديتهم الجدلية".

ثم يعــرض بيوس لمقولته الكبرى عن التطور قبل نهاية المرسوم، فى الفقرة ٣٥ –٣٧، فيقبل بالجوهر الأساسى لمبدأ الأروقة، ويبدأ بالإقرار بأن التطور يقع فى منطقة صعبة، يتدافع فيها الميدانان بقوة. "يبقى لنا الآن أن نتحدث عن هذه الأسئلة، فعلى الرغم من تعلقها بالعلوم الإيجابية، فإنها – بشكل أو بآخر– متصلة بحقائق الإيمان المسيحى [٤١]".

يكتب بيوس بعد ذلك الكلمات المشهورة، التى تبيح للكاثوليك التمتع بفكرة تطور الجسد البشرى (وهو موضوع واقعى داخل نطاق رواق العلم)، ماداموا يقبلون بمسألة الخلق الإلهى وبث الروح (وهى مسألة عقائدية داخل نطاق رواق الدين).

إن السلطة التعليمية للكنيسة لا تحرم ذلك؛ تمشيًا مع ما وصلت إليه العلوم البشرية والعقيدة المقدسة. تأخذ بحوث ومناقشات الرجال المتمرسين فى كل من المجالين مكانها بالنسبة إلى تعاليم التطور مادامت تبحث فى منشأ جسد الإنسان، كناتج من مادة حية سابقة عليه؛ حيث تملى علينا العقيدة الكاثوليكية الإيمان بأن الله يخلق الأرواح بطريقة مباشرة.

لم أجد فى المرسوم شيئًا مثيرًا للدهشة حتى هذه اللحظة، ولا شيئًا يقلل من حيرتى، تجاه أصالة تقريرات البابا يوحنا بولس فى عام ١٩٩٦، لكن مع مزيد من القراءة، وجدت أن البابا بيوس قد تحدث أكثر

عن التطور، فذكر شيئًا تم السكوت عنه، ولم أصادف أى ذكر له فى قراءاتى، شيئًا أضفى على مقالة يوحنا بولس الكثير من الإثارة والأهمية. باختصار، ادعى بيوس بقوة، أنه فى الوقت الذى يمكن فيه اعتماد شرعية مبدأ التطور، إلا أن النظرية- فى الحقيقة- لم تثبت، بل يحتمل أن تكون كلها خاطئة. قد ينتاب الإنسان انطباع قوى، أن بيوس يجتهد بكل قوة ليؤصل للحكم بالزيف، فيستطرد مباشرة بعد الاقتباس الأخير، وينصحنا بشأن الأسلوب الصحيح لدراسة التطور:

" على أية حال، هذا يجب أن يتم بالطريقة التى يتم من خلالها بحث وجهتى النظر، ووزن الأمور والحكم عليها بالجدية اللازمة، والاعتدال، والقياس... يقوم البعض بانتهاك حرية الجدل هذه بتهور، ذلك عندما يتصرفون كما لو كان منشأ جسد الإنسان من مادة حية سابقة عليه، مسألة ثابتة تمامًا ومدعمة بالحقائق، التى تم اكتشافها حتى الآن، وبإعمال المنطق فيها، وكأن لم يكن فى مصادر الوحى الإلهى، ما يتطلب أكبر قدر ممكن من الاعتدال والحذر فى هذه المسألة.

باختصار فإن بيوس يقبل مبدأ الأروقة المتمايزة، حين يسمح للكاثوليك بالتمتع بنظرية تطور الجسد البشرى، ماداموا يقبلون مسألة النفث الإلهى للروح. بيد أنه يقدم بعض النصح الأبوى (المقدس) للعلماء، حول مكانة التطور كمفهوم علمي: الفكرة لم تثبت بعد، وعليكم جميعًا توخى أشد الحرص؛ لأن التطور يثير الكثير من الأمور المقلقة، على

الحدود المباشرة لرواقي. يمكن قراءة الشق الأخير من هذه النصيحة بمعنيين مختلفين: فإما أنها تدخل غير مبررة في ميدان رواق آخر، وإما كوجهة نظر ناصحة، من قبل شخص ذكى غريب ولكنه مهتم بالأمر.

على أية حال، هذا الشق الثانى النادر الذكر (الإبقاء على التطور كمسألة لم تثبت بعد، وأنها خطيرة إلى حد ما)، وليس الجزء الأول الشائع الاقتباس، الذى يقف فى صف الأروقة التعليمية الموقرة المتمايزة (بأن للكاثوليك أن يقبلوا تطور الجسد، ماداموا متمسكين بخلق الروح) يحدد أصالة واهتمام المقولة الحديثة ليوحنا بولس.

بدأ يوحنا بولس بتلخيص المرسوم البابوى القديم لبيوس (١٩٥٠)، وفيما عدا إعادة تأكيده لمسألة الأروقة على وجه الخصوص، فلم يأت بجديد ولا داعى للإطالة :

فى مرسومه البابوى بعنوان "أصل الإنسان"... (١٩٥٠) أفاد سلفى، بيوس الثانى عشر، بعدم وجود تعارض بين التطور وتعاليم العقيدة، فيما يتعلق بالإنسان ورسالته.

ترجع أصالة ما أتى به تصريح يوحنا بولس وقيمته الإخبارية، فى مراجعته الواسعة للشق الثانى المهمل من مقولة بيوس، بأن جوهر نظرية التطور، وإن كان مستوعبًا من ناحية المبدأ أو متمشيًا مع الدين، إلا أنه لا يستطيع أن يقدم إلا أقل القليل من الأدلة المساندة له، التى يحتمل

زيفـهـا . يقـول يوحنا بولس - ولا أملك سـوى أن أقـول: آمين، وشكرًا للتنبيه - إن الخمسين عامًا الفاصلة بين بيوس، الراصد لحطام الحرب العالمية الثانية، وخليفته يوحنا بولس، الشاهد على ميلاد القرن الواحد والعشرين، شاهدت هذا الكم من تنامى المعلومات، وهذا الكم من تنقيح النظرية، حتى أصبح من غير الممكن التشكيك فى التطور، من قبل ذوى النيات الحسنة والمثقفين المخلصين .

أضاف بيوس الثانى عشر ... أن لا يجب تبنى هذا الرأى (التطور)، باعتباره مذهبا مؤكدًا ... فاليوم وبعد نصف قرن من نشر هذا المرسوم، أدت المعرفة الجديدة إلى الإقرار بنظرية التطور، باعتبارها أكثر من مجرد فرضية. من المدهش حقًا أن تلقى النظرية قبولاً متزايدًا من الباحثين، فى ظل سلسلة من الاكتشافات فى شتى مجالات المعرفة. ثم إن التقاء نتائج البحوث التى أجريت مستقلة عن بعضها البعض، دون أن تسعى إلى ذلك ودون تلفيق، لهى حجة قوية- فى حد ذاته- فى صالح النظرية.

صفوة القول، أقر بيوس على مضض بالتطور كفرضية صحيحة، وإن اعتبرها من وجهة نظره مدعومة بصفة مؤقتة، مع احتمال (كما يأمل بوضوح) عدم صحتها . ثم يأتى يوحنا بولس بعد حوالى خمسين عامًا ليؤكد شرعية التطور، فى إطار مبدأ الأروقة، لكنه يضيف: إن تزايد المعلومات والنظريات، وضعت حقيقة التطور خارج نطاق الشك. أصبح بإمكان المسيحيين المخلصين الآن قبول التطور، ليس فقط

كاحتمال معقول لكن أيضًا كحقيقة مثبتة، بمعنى آخر تحول الرأى الكاثوليكى الرسمى حول التطور من مقولة: "قل إنها ليست كذلك، ولكن بإمكاننا التعامل معها إذا اضطررنا إلى ذلك" (نظرة بيوس المتعضة ١٩٥٠)، إلى الترحيب الكامل من يوحنا بولس :"لقد ثبتت صحتها، نحن دائمًا نرحب بحقيقية الطبيعة، ونتطلع إلى مناقشات مثيرة لها دلالتها العقائدية". وإنى أصادق بسعادة على هذا التحول، النابع من مصادر لها قداستها، وأعتبرها حرفيًا بمثابة أخبار سارة. أنا أمثل رواق العلم فى إطار حياتنا المركبة المعقدة، وأرحب – فى الوقت نفسه – بالتأييد الصادر من السلطة العليا فى الرواق الآخر. وأتذكر حكمة الملك سليمان (سفر الأمثال ٢٥ : ٢٥): "مياه باردة لنفس عطشانة، الخبر الطيب من أرض بعيدة".

٢- القس الذى تفوق على نيوتن فى النيوتينية:

إذا كانت مسألة الأروقة باطلة، وطالب الدين فعلاً بكبت البيانات الحقيقية لنقاط الخلاف المحورية، عند تعارضها مع التعاليم العقائدية، فكيف تسنى شغل كل هذه الأماكن الكثيرة فى كوادر العلم، بهذا الكم الكبير من رجال الدين المشهود لهم بالالتزام والتفانى والاحترام والإنجاز. فها هو القس ألبرتوس ماجنوس[٤٢] (Albertus Magnus) فى القرن الثالث عشر، المعلم لتوما الإكوينى[٤٣] (Thomas Aquinas)وأقوى

كُتَّاب الأمور العلمية في القرون الوسطى، ثم نيكولاس ستينو[٤٤] (Nicholas Steno) صاحب الأعمال الأولى في الجيولوجيا في القرن السابع عشر وأصبح قسيسًا، إلى لازارو سبالانزاني[٤٥] (Lazzaro Spallanzani) الإيطالي من القرن الثامن عشر، وقد اهتم بوظائف الأعضاء، والذي أجرى عدة تجارب أنيقة، أثبت بها خطأ الجدلية المهمة الأخيرة، بشأن تلقائية تولد الحياة، ثم "أبيه برويل"[٤٦] (Abbe Breuil) أشهر الدارسين في عصرنا في مجال فنون كهوف العصر الحجري .

في إطار النظرية التقليدية للحرب بين الرواقين، بدأ التوسع الحتمي لنطاق العلم على حساب رواق الدين، في أواخر القرن السابع عشر. ذلك في الفترة الشهيرة والمعروفة لدى المهتمين بالتاريخ باسم " الثورة العلمية ". نحتفي كلنا ونكرم الرمز الأول لهذا النظام الجديد، ممثلاً في إسحق نيوتن، وقد تلقف ألكسندر بوب[٤٧] (Alexander Pope) أعماله بصفة عامة، وسجل عنها واحدة من أكثر المقولات إيجازًا وحسمًا:

ترقد الطبيعة وقوانين الطبيعة مختبئة في الليل

قال الرب : " فليكن نيوتن" فأصبح كل شيء في النور.

يُبدى كثير من الناس دهشتهم عند اكتشافهم، أن نيوتن (بالإضافة إلى كل الأعضاء البارزين في محيطه) كان دائمًا قوى الإيمان، على الرغم من أن الرجل لم تصدر عنه أية بادرة لمحاولة إخفاء التزامه

العقائـدى. خصـص نيوتـن الكثيـر من وقته لتفـسير نبـوءات دانـيال ويوحنا، وفى مـحاولته التوفيق بين التسلسل الزمنى للأحداث، كما هو مـسجل فى الإنجـيل وتاريخ الأمم القـديمة، وقضـى فى ذلك أكثـر مما خصص لبحوثه فى الطبيعة.

احتضن كثير من العلماء من أصحاب الالتزام الدينى القوى، مبدأ الأروقة بأشكال متـعددة، بداية من الجدل الذى صـور الإله كضـابط للسـاعـات، وهو المثـل المحتـذى من قـبل المعـاصـرين لنـيوتن، إلى المادية التجريبية لأغلب العلماء المتدينين اليوم (الذين يتبعون القول، بأن الأسئلـة العمـيقة حول المعانى النهائية، تقع خارج نطاق العلم، وتحت رعـاية البحوث الدينـية). أما وسائل البحث العلمية المعتمدة على قوانين الطبـيعـة الثابتـة، بغض النظر عن الزمـان أو المكان، فـتنطبق على كل التساؤلات حول حقائق الطبيعة، المحتمل بصفة مبدئية إيجاد حل لها. مـادامت المعـتقـدات الدينيـة بعـيدة عن فـرض الإجابات عن المسـائل التجريبية، أو استـبعاد قبول الحقائق الموثقة، فلن يجد أشد العلماء تمسـكًا بالدين أية مشكلة، فى متابعة أعمالهم اليومية بالحماسة نفسها.

يمكن إيجاز الوصـية الأولى لكل أنواع الأروقة كما يلى: "لا تخلط بين الأروقة بزعم أن الله أصدر مرسـومًا مباشرًا للأحداث المهمة فى تاريخ الطبيعة، عن طريق تدخـل بعيـنه، لا يمكن معرفته إلا بطريق الوحى، ولا يمكن الوصـول إليه عن طريق العلم". نحن نشـيـر إلى هذا التدخل فى اللغة الدارجة باعتباره "معجزة"، ويمكن تعريفها عمليًا بأنها

حالة استثنائية، تعلق فيها القوانين الطبيعية بصفة مؤقتة، لإعادة ترتيب حقائق الطبيعة، من خلال قرار إلهى قاطع (أعلم تمامًا أن البعض يستعملون لفظ معجزة بمعانٍ أخرى، لا تتعارض مع مبدأ الأروقة، لكنى أشير هنا إلى المعنى الدارج). إن مبدأ الأروقة يفرض هذا "الحد" على مفهوم الإله، كما أنه يفرض قيوداً شديدة على الأهداف المتعدية لكثير من العلماء (خاصة فيما يتعلق بكبتهم لدعاوى الآخرين بمعرفة الصواب الأخلاقى، بناءً على فهمهم الأسمى لواقع الحقيقة لأى موضوع).

من المعلوم أن كل الاتفاقات من هذا النوع تتم ببطء، وتبدأ من بدايات عامة أولية، قبل اتضاح واستتباب النتائج والتحديدات النهائية. فى الأيام الأولى للعلم الحديث، لم تكن هناك حاجة لتحديد المفاهيم الواضحة، لوضع المعجزات خارج نطاق هذا الرواق النامى (العلم)، فظهرت المناقشات وكثرت، حتى رست فى النهاية -كما تبين أعلاه- على الإبقاء على المعقل الأخير، المتمثل فى تدخل الله المباشر فى خلق الأنواع الحية، بعد التخلى عن الأفعال الإعجازية فى عموم نطاق حقائق الطبيعة. من المفارقات اللافتة أن نجد نيوتن ذاته، وقد تعاطف- إلى حد كبير- مع احتمال وقوع المعجزات ضمن مسار العلم. لقد تعرف بكل تأكيد على مزايا التفسيرات القائمة على أساس إله يتصرف فى إطار قوانينه الخاصة. لكنه اعتبر كل المحاولات التى يقوم بها الباحثون للحد من قدرات الإله - فى مجال دراسة نظام الطبيعة- بلا جدوى (فرضيات غير لازمة). فإذا أراد الله أن يوقف العمل بهذه القوانين للحظة من

التدخل الخلاق، فسيفعل حتمًا ما يشاء، وعلى العلماء متابعة مهمة التفسير بأقصى ما لديهم من قدرة.

من المدهش حقًا أن أشد المعارضات حدة لهذا الاتجاه داخل رواق العلم النامي، وأقوى الحجج دفاعًا عن كون المعجزات خارجة تمامًا عن مجال العلم، أتت من أبرز رجل دين، من شريحة رواد العلم المعاصرين لنيوتن ذاتها، إنه نفسه توماس بيرنيت المبجل، الذى زيَّن الفصل الأول من هذا الكتاب. يجب أن تقنعنا هذه المفارقة الواضحة، المتمثلة فى دعم رجال الدين الصارم لمبدأ الأروقة، فى معارضة صريحة لوجهة نظر نيوتن الخاسرة، بعدم ضرورة وجود الخلاف بين الأروقة، وأنه حتى بالنسبة إلى رجل الدين الملتزم، فبقدرته أن يعمل كعالم قدير، وبالقدر نفسه من الالتزام والتكريس.

فور انتهاء نيوتن من قراءة كتاب صديقه بيرنيت "النظرية المقدسة للأرض" (Sacred Theory of the Earth)، كتب إليه فى يناير ١٦٨١ مسجلاً إعجابه ومديحه، وذاكراً فى الوقت نفسه بعض الانتقادات. احتج نيوتن- بصفة خاصة- على مسألة توفيق وضع العمل المبدع لله فى بداية الخلق فى مجرد ستة أيام[٤٨]، وأن ذلك يمكن تفسيره بافتراض أن الأرض فى ذلك الحين كانت تدور فى فلكها، ولكن بسرعة بطيئة للغاية؛ مما يجعل الأيام بالغة الطول. رد عليه بيرنيت فى الحال بخطاب حار: " لقد جلبتم على أنفسكم مشقة تحمل هذا الخطاب الطويل، الذى لا أملك إلا أن أرى أنكم أصررتم عليه... ضرورة ارتباط

مسألة موسى وأيامه الستة للخلق بكونها وصفًا ماديًا ... لأريكم العكس... طال خطابى ...

لكنه رفض تأويل نيوتن لسبب آخر؛ إذ خشى ألا يتمكن نيوتن من تصميم تفسير "طبيعى" لتسارع دوران الأرض بعد ذلك، حتى أصبحت "الأيام" ٢٤ ساعة كما نعرفها اليوم، وقد يضطر صديقه حينها، إلى الاستشهاد بتفسير مبتَدع خارق للطبيعة. كتب بيرنيت إلى صديقه: "أما إذا كان دوران الأرض بطيئًا إلى هذا الحد فى البداية، فكيف تباطأت؟ أمِنْ فعْلِ أسبابٍ طبيعية أم خارقة للطبيعة ؟" (أثار بيرنيت أيضًا اعتراضات أخرى لاستقراءات نيوتن؛ فتلك الأيام الأولى الطويلة، تراها تطيل من عمر السلف القديم، حتى لأطول من الإشكالية القائمة بشأن عمر متوشالح(٤٩) (Methuselah) والمذكور أنه ٩٦٩ عامًا؛ علاوة على ذلك، فعلى الرغم من أن الحيوانات تكون قد تمتعت بطول الساعات المشمسة أثناء النهار، فإن الليل الممتد قد يكون غير محتمل: "إذا كان اليوم بكل هذا الطول، فياله من ليل بائس هذا ")!

جاء رد نيوتن مباشرة على تحفظات بيرنيت وتشككاته المنهجية، فقد فهم أن صديقه يرغب فى تفادى أى جدل يقوم حول المعجزات فى العلم، وهو موضوع أهم كثيرًا من موضوع معين، مثل مسألة طول الأيام الستة الأولى للخلق. على ذلك كتب مؤكدًا لأسوأ مخاوف بيرنيت:

"يستعملها (المعجزات) الله كأدوات فى أعماله، عندما تكون الأسباب الطبيعية فى متناول اليد. لكنى لا أعتقد بكفايتهم لمسألة الخلق، وعلى ذلك يجوز الافتراض - ضمن الأشياء الاخرى - بأن الله أعطى للأرض سرعة حركتها بدرجات معينة، فى أوقات محددة، بحيث تلائم المخلوقات على أفضل الوجوه."

أجاب نيوتن كذلك على قلق بيرنيت بشأن الليالى الطويلة وأثرها على المخلوقات الأولى: "ولماذا لا تتحمل الطيور والأسماك ليلة طويلة، تماماً كما يفعل كثير منهم الآن، فى جرينلاند بالقطب الشمالى؟"

من المؤكد أن نيوتن بوصفه واحداً من أذكى الناس فى تاريخنا، قد فاز بنقطة ثانية على بيرنيت، فى سرعة بديهته وإشارته إلى الحياة فى القطب الشمالى، النقطة الأولى كانت فى إشارته إلى الدببة القطبية (والثانية الأقل مقاماً، فى إشارته فى الطرف الآخر، إلى طائر البنجوين فى القطب الجنوبى، الأقل شهرة من الدببة). لكنى أعتقد أننا يجب أن نعطى بيرنيت حقه فى تفوقه فى الجدل بأسلوب منهجى، فيما يعتبر الآن مطلباً أساسياً فى تعريف العلم: ألا وهو تحديد موقف المعجزة بصفتها بالضرورة، خارج نطاق رواق العلم. أمدنا رجل الدين الذى لا يعد بحالٍ من الأحوال الرمز الأول للعلم الحديث بحجة متماسكة أقوى من نيوتن، دفاعاً عن أساسيات الأساليب المنهجية، اللازمة لتحقيق إجابات مثمرة؛ وبذا تحصل الأروقة على الدرجة النهائية.

تذييل وتمهيد

يعتبر ج. س. هالدين[٥٠] J.S. Haldane من أكبر علماء وظائف الأعضاء الإسكتلنديين، وهو معروف بشدة التدين (وهو والد ج. ب. س. هالدين الأكثر شهرة، والمتخصص في علم الأحياء التطورى، الذى كان يميل إلى الأصولية (الراديكالية) فى السياسة والإلحاد فى الدين). ألقى هالدين محاضرة فى جامعة جلاسجو (عام ١٩٢٧)، ضمن سلسلة محاضرات جيفورد (Gifford Lectures)، وهى المحاضرات المكرسة لدراسة واستكشاف العلاقات بين العلم والفلسفة. خصص هالدين محاضرته عن " العلوم والدين " للتوصل إلى الحل الأمثل لمسألة الأروقة، ودورها المركزى بالنسبة إلى المفكرين الدينيين، حول المعجزات وتفسيرات العالم الطبيعى، بدأ هالدين هكذا :

" عادة ما يفترض أن العلوم... تعد غير متفقة مع الدين. وهذا فكر شائع جداً فى أيامنا هذه، يبدو للوهلة الأولى أن للمقولة أساساً قوياً، ومن المؤكد أن هذا الاعتقاد شائع أيضاً بين رجال العلم أنفسهم، على الرغم من أنهم قليلاً ما يتحدثون فى الموضوع، من باب احترامهم للمتمسكين بإخلاص، بالمعتقدات الدينية ممن يوقرونهم.

ثم يحدد هالدين بعد ذلك العائق الأعظم المواجه للأروقة، فى اللبس والخلط بين جميع أنواع المعتقدات الدينية، والادعاء المحدد -الذى يزج بالأروقة - بصفة عامة - فى الجدل، وبذلك يستبعد الرواق القائل بأن معظم الطبيعة المادية قد خلقت عن طريق المعجزات الخارجة بطبيعتها عن مجال الدراسة العلمية:

" أما الذين اعتقدوا أن الدين يعتمد على الإيمان بالتدخلات فوق الطبيعية، فيبدو أنهم سيلقون مصير باقى الخرافات نفسه. ومع هذا - وإقراراً للواقع - فقد استمر إغراء الأديان للإنسان قوياً، كما كان من قبل إن لم يكن أكثر قوة... أعتقد أننى قادر على توضيح الأسباب الخلفية لذلك". إذا صح منطقى، فلا توجد رابطة حقيقية بأى شكل من الأشكال، بين الدين والاعتقاد فى الأحداث فوق الطبيعة".

فى النهاية يؤكد هالدين أن موقفه تجاه المعجزات، إنما ينبع من التزامه الشخصى العميق بالدين، وليس بسبب أى ميول دفاعية عن رواق العلم الذى ينتمى إليه:

"وإنى لأضع قلبى فى هذه المحاولة (من أجل الوصول إلى العلاقة السليمة بين العلم والدين)، فلا أحد يستطيع أن يشعر بقوة مثلى، أن الدين هو أعظم شيء فى الحياة، وأن خلف الكنائس المعروفة، هناك كنيسة غير معروفة، قد ينتمى الكل إليها، على الرغم من خلو عقيدتها من الأحداث الخارقة للطبيعة".

توضح وتؤكد جدلية هالدين صلابة مبدأ الأروقة، وتمهد للانتقال إلى الجزء الثاني من هذا الكتاب؛ حيث أتساءل، لماذا يستمر عدد كبير من الناس في رفضهم لهذا الحل الإنساني العاقل والقابل للتطبيق، لأكبر مشكلة في حياتنا. لا يجوز اعتبار الأروقة مسألة تافهة أو قليلة الوزن، أو مجرد طلاء أو شيء سطحي، وأنها تعمل كمجرد قصة خيالية دبلوماسية، أو ستار دخان لجعل الحياة أكثر راحة، من خلال التسويات والتنازلات، في عالم مشحون بالمشاعر المتعددة المتناقضة. إن الأروقة حل مركزي، يعتمد على الفلسفة السليمة لمشكلة لها وزنها التاريخي والعاطفي. الأروقة عنيدة، الأروقة تحث على الحوار المحترم بين التزامين أوليين مختلفين. الأروقة لا تسلك مسلك القائلين : " أنا بخير وأنت بخير، إذاً دعنا نتفادى أي حديث عن العلم والدين".

هكذا تفرض الأروقة متطلبات، قد يجدها البعض في غاية الصعوبة؛ حيث تتصدى الأروقة على وجه الخصوص، لبعض الأنماط الخاصة (والشائعة) بالمعتقد الديني، على الرغم من التمسك الشديد بالأهمية العامة للدين. كما تمنع الأروقة العلم من الدخول إلى حقول يهواها كثير من العلماء المتغطرسين، ويحلمون بامتلاكها والتحكم فيها. مثلاً إذا كان من ضمن متطلبات عقيدتك الخاصة، الإيمان بأن عمر الأرض لا يزيد عن عشرة آلاف سنة (لأنك اخترت قراءة سفر التكوين كنص حرفي، بغض النظر عما يمكن أن يعنيه النص)، إذاً فأنت تنتهك الأروقة، بمحاولتك فرض قراءة نص عقائدي مفرد، على مسألة واقعية

تقع داخل حرم رواق العلم، واستقر الرأى فيها إلى تقدير مختلف ببضعة ملايين من السنين المتحفية.

يمكن التعرف بسهولة على المغالطات الأصولية المتطرفة، لكن ماذا عن انتهاكات أكثر حذقًا للأروقة، تلك التى نراها عادة فيَ بعض الناس، ممن ينطوى مفهومهم عن الرب، على إله محبٍّ مهتم بصفة شخصية بحياة كل مخلوقاته – وليس مجرد ضابط الساعات الإمبراطورى غيرالمرئي؟. عادة ما يخطو هؤلاء الناس خطوة أخرى إضافية، بإصرارهم على أن إلههم يشير إلى وجوده (وعنايته)، من واقع آثار بصماته الحقيقية على الطبيعة، التى يمكن أن يأخذ مجراها شكلاً مخالفًا للعلم. لا اعتراض هنا للعلم بأى شكل كان، على احتياج أى شخص أو اعتقاده فى مثل هذا المفهوم الشخصى للقوة الإلهية، لكن طبيعة الأروقة تحول دون المطلب الإضافى، بضرورة تنظيم هذا الإله لحقائق الطبيعة، فى شكل محدد سابق التقدير. فإذا آمنت مثلا بأنه يجب على الله المحب بالدرجة المناسبة، أن يظهر قدرته من خلال تزويده الطبيعة بعض المعجزات الملموسة، أو أن هذا الإله يسمح للتطور أن يحدث فقط، بطريقة مخالفة لحقائق سجل المستحاثات (الحفريات)، (مثل مسألة تقدم مسيرة التطور ببطء فى خط مستقيم، نحو نوع الإنسان العاقل[٥١] **Homo Sapiens** مثلاً، إذًا فإن مفهوم بعض المغاوير (وهم قلة)، للدين قد تطاول وتعدى على رواق العلم، بطلب فرض استنتاجاتهم

الخاصة التى يجب أن تظل قيد الاختبار التجريبى، مع ما تحمله من احتمال فشلها.

بالمثل، فبالنسبة إلى العالم الذى ينجز بنجاح الخطوة الأولى، لابتكار جديد يمكن تشكيله مستقبلاً، ليلبى احتياجات المجتمعات المتغيرة، فيعتقد بذلك، أنه اكتسب الحق فى تقرير شتى منافعه واستعمالاته، وأنه يعرف بالتبعية عن تفاصيله التكنولوجية، أكثر من أى شخص آخر، ويرفض الالتفات إلى الاهتمامات والمخاوف الأخلاقية من المواطنين الواعين، خاصة تمسكهم بدورهم فى الحوار، حول مدى احتمالات التحكم فى الابتكار. تجيب الأروقة بالقدر نفسه من القوة، بأن حقائق الطبيعة لا يمكنها تحديد الأسس الأخلاقية للاستعمال، وأنه ليس للعالم الحق فى طلب هذه القوة، أكثر مما يستطيع جاره المتطرف من حشد للجماهير ليصبح دكتاتور عصره على الأرض.

بناءً على ذلك، تعمل الأروقة كمصمم للمهام، وليس كعامل مساعد، ولا يمكن للأروقة توقع سرعة الاندفاع للوصول إلى موافقة ساحقة، يقابلها الابتسام عبر العالم، وتستقبل بالصيحات والتهليل من الجانبين. لكن يمكن لنجاح الأروقة أن تكون محررة وموسعة لمجالات كل طلاب الحكمة.

هوامش

(٢٦) رديارد كيبلنج: (١٨٦٥-١٩٣٦)، كاتب وشاعر إنجليزى، قبره مع العظماء فى ساحة ويستمنستر، عاش فترة طويلة في الهند وتأثرت كتاباته بذلك. والاقتباسات المذكورة من قصيدته عن الشرق والغرب. [المترجم]

(٢٧) أعتذر لزملائى فى الفلسفة وما يمت لها بصلة من ميادين، لما قد يبدو كنوع من الفروسية من ناحيتى، بمناقشتى لموضوع قديم وصعب، ومازال محل جدل كثير، ويحتاج إلى قدر كبير من الحنكة والحذاقة، باحثًا بكل تدقيق من أجل الإمساك بالتعقيدات المتشعبة. أنا أعلم بأن كل مطلب للفصل بين كل ما هو مادى وكل ما هو أخلاقى، هو محل خلاف، بل محل خلاف شديد، مُنذ وضح دافيد هيوم David Hume بدقة، الفرق بين ما "ينبغى أن يكون" وبين "ما هو كائن" (حتى أنى كتبت قبل تخرجى، مقالاً متحيزًا مثيرًا للارتباك حول التحديد الذى وضعه مؤخرا ج. إ. مور G. E. Moore لهذه المسألة، فى كتابه مبادئ الأخلاق Principia Ethica فى عام ١٩٠٣، حيث وصفها بأنها "الزيف الطبيعى". إنى أقر بقوة حجة بعض الاعتراضات التقليدية على الفصل الكامل بينهما، خاصة فى ظل غيبة التحديد لـ "ما ينبغى أن يكون"، عن السلوكيات التى ثبت استحالة وضعها ماديًا فى إطار "ما هو كائن" . كذلك أقر بعدم إلمامى بتفاصيل المناقشات الأكاديمية الجارية (على الرغم من محاولتى الإلمام بما يجرى)، وأخيراً أقر بأنى سأصاب بالضيق الشديد، إذا ما حاول بعض الدخلاء الأكاديميين من غير تخصصى، الإدلاء بتصريحات مشابهة، عن موضوعات حرجة فى داخل تخصصى المتعلق بالحفريات (المستحاثات) أو التطور.

لن أدافع عن معالجتي للموضوع وكأنني أستهين به، أو كأنني أقلل من احترام هذا الموضوع المعقد، ولكن كإقرار أساسي بأن معظم الموضوعات في هذا المجال، تحتاج إلى معالجات متعددة، على مختلف مستويات البحث. فالتعميمات الكبرى دائمًا ما تحمل في طياتها بعض مناطق الاستثناءات وبعض الـ "لكن" البسيطة على أطرافها، بما لا يفند ولا يعيب تماسك الجوهر العام. (كثيرًا ما نشير في مجال عملي – التاريخ الطبيعي – إلى هذه الظاهره بوصفها قاعدة " فأر متشيجان " تكريمًا لذلك الخبير في تفصيلات علم التصنيف الذي يظهر فجأة في آخر القاعة، ليقاطع أحد المحاضرين في موضوع القاعدة العامة للتطور بقوله:"نعم، ولكن هناك ذلك الفأر من مدينة متشيجان الذي...". فبين الخبراء، يتوجه الاهتمام إلى التوقعات واحتمالات "لكن"؛ حيث إنها تمثل التفاصيل المثيرة، التي تغذي الأستاذية الحقة على أعلى المستويات. فعلى سبيل المثال، ينشغل حاليًا زملائي من المتخصصين في نظرية التطور بجدل صحي، حول ما إذا كان هناك قدر ضئيل من الصحة لنظرية لامارك Lamarck عن التطور (النظرية التي وضعها لامارك وتقول بأن الصفات المكتسبة يجرى توارثها، مثل طول عنق الزرافة كناتج لمحاولاتها المتكررة، للوصول إلى أوراق الأشجار العالية). [المترجم] (يحدث في قطاع محدود من الجراثيم. وعلى الرغم من حماستهم المشتعلة حول هذه النقطة، فإن ذلك لا يغير من الاستنتاجات الموثقة بسيادة التطور كما وصفه داروين، على المسار العام لأمور التطور. لكن تركيز المتخصصين الشديد على مثل هذه الفرعيات الطرفية، يجب ألا يؤثر ولا يقلل من صحة القانون العام ومصداقيته. بناءً على ذلك، فالتفرقة بين "ما ينبغي" و "ما هو كائن" تقف في الموقف نفسه ولها قوتها كمبدأ عام، كما أن هذا الكتاب الصغير، قد تم تدوينه، كمعالجة على نطاق واسع (لكل القراء الأذكياء وبلا تنازلات وسطية ولا تهوين).

حدث موقف مشابه أثناء محاكمة الخَلقية في ولاية أركنساس Arkansas creationism trial (التفاصيل في الفصل الثالث)، حيث قدم الفيلسوف ميكائيل روس Michael Ruse تعريف كارل بوبر Carl Popper عن معنى " التفنيد" وأهميته، كعنصر لتحديد كل ما هو علمي (وقد أخذت المحكمة بهذا التعريف، وباعتبار "علم الخلق" لا يمكن تفنيده فحكمت المحكمة برفضه). لقد قبل القاضي أوفرتون Overtonبتحليل "روس"، وتبنى استعمال هذا العنصر في تعريفه الأساس للعلم، ليصل

إلى قراره برفض قانون "الوقت المساوي" Equal time في أركنساس. لكن الـ تفنيد (كمسألة الفرق بين "ما هو كائن" و "ما يجب أن يكون"، يمثل تعميمًا جيدًا لموضوع خاضع لجدل عميق ولخلافات عديدة بين المتخصصين والأساتذة من تخصصات كثيرة. وقد هاجم بعض الفلاسفة الأكاديميين "روس" لتبسيطه الشديد لبعض مناحي تخصصاتهم، لكني أؤيد شهادته بشدة (كما فعل في اعتقادي، أغلبية الفلاسفة المتخصصين)، كتحليل صادق ومناسب للتعريفات واسعة النطاق. [المؤلف]

(٢٨) الدين Religion باللغة الإنجليزية مشتق من اللاتينية ومكون من جزأين Re، بمعنى التكرار مرة أخرى، وإما Lego بمعنى القراءة، وفي هذه الحالة يكون المعنى الإجمالي إعادة القراءة، والمقصود به النصوص الدينية، أو Ligare، بمعنى الاتصال والترابط، ومنها كلمة Ligamentبمعنى الرباط. [المترجم]

(٢٩) مثل الانفجار الكبير والشواش وتكوين المجرات وفنائها وغير ذلك، مما نرصده اليوم من نشاط كوني.[المترجم]

(٣٠) المعيار الجزيئي (أو الكسري) Fractal scale، يرجع الفضل في استعمال هذا التعبير لأول مرة، إلى مؤلف الكتاب. ونوجه عناية القارئ إلى أن لفظ Fractal لم يدخل إلى اللغة إلا في عام ١٩٧٥ على يد عالم الرياضيات الفرنسي بنوا ماندلبرو Benoit Mandelbrot، للتعبير عن المتكررات الرياضية أو الهندسية لوحدات غاية في الصغر، وتنتج – في نهاية الأمر– منظومة عظمى، مختلفة تماما من الظاهر عن شكل الوحدة البادئة، مثل الصحراء المترامية الناتجة من تكرار حبات الرمال. [المترجم]

(٣١) الداروينية: مذهب فكري مقتنع بالخطوط العامة لنظرية داروين عن التطور. [المترجم]

(٣٢) الزواج المفرد بمعنى قصر العشرة على اثنين، وهو عكس التعددية . [المترجم]

(٣٣) موت وجيف. شخصيتان كاريكاتيريتان متناقضتان ومتلازمتان مثل لوريل وهاردي أو السبع أفندي ورفيعة هانم، وصدرت في أمريكا باسمهما مجلة خفيفة الظل، وظلت تصدر منذ ١٩٠٧ حتى ١٩٨٢ [المترجم]

(٣٤) الـ ين والـ يانج : نشأ مضمون الين واليانج فى الفلسفة الصينية القديمة ويقول بتكوين كل شيء فى الكون من قوتين متعارضتين أوليتين ويكمل بعضهما بعضًا ويدعم كل منهما الآخر، ويرمز لها بدائرة مقسمة بأسلوب انسيابى يتعادل فيه اللونان الأبيض والأسود، وتمثل الـ ين (الأسود) الشق الأنثوى (السلبى) ويمثل اليانج (الأبيض) الشق الذكرى الموجب. [المترجم]

(٣٥) البابا إيربان الثامن Urban V111 (١٥٦٨-١٦٤٤) اسمه الأصلى مافيو باربيرينى .Maffeo Barberini تولى البابوية من ١٦٢٣ إلى ١٦٤٤ عاشها كلها فى فترة حرب الثلاثين عامًا، وكان له دور سياسى كبير فيها. [المترجم]

(٣٦) حرب الثلاثين عامًا دارت ما بين عام ١٦١٨ وعام ١٦٤٨ فى وسط أوروبا وشاركت فيها معظم القوات الأوروبية حينذاك. واتخذت- فى ظاهرها - شكل حرب دينية بين البروتستانتية والكاثوليكية، وأما - فى حقيقتها- فكانت صراعًا سياسيًا بين مختلف الحكام، دمرت خلالها كثير من المدن، وانتشرت الأوبئة، وراح ضحيتها حوالى ربع السكان فى ألمانيا وحدها. [المترجم]

(٣٧) ما يعنى بالعربية شيئًا مثل "بساطة" أو سذاجة. [المترجم]

(٣٨) البابا يوحنا بولس الثاني: بولندى الأصل (١٩٢٠ - ٢٠٠٥) تولى البابوية من ١٩٧٨ حتى٢٠٠٥، واستمر لأكثر من ٢٦ عاما فى البابوية، وكان من معارضى الشيوعية.[المترجم]

(٣٩) البابا بيوس الثانى عشر (١٨٧٦ - ١٩٥٨)، استمر فى رئاسة الكنيسة الكاثوليكية قرابة العشرين عامًا (من ١٩٣٩ حتى وفاته) ولعب دورًا سياسيًا واجتماعيًا مهمًا أثناء الحرب العالمية الثانية. [المترجم]

(٤٠) تم اقتباس الجزء المتبقى من هذا الفصل بشأن آراء البابا حول التطور، من مقالة نشرت سابقًا فى عام ١٩٨٨: "eonardo's Mountain of Clams and the Diet of Worms (Crown, 1998).[[المؤلف] .

(٤١) من المثير للانتباه أن الثقل الحقيقى لهذه الفقرات، لا يقع على التطور بصفة عامة، ولكن على تفنيد ما أسماه بيوس بالـ Polygenism أو تعددية السلف ؛ حيث اعتبر

هذه الفكرة متعارضة مع الاعتقاد الديني بالـ "خطيئة الأولى"، التي ارتكبها آدم كفرد ثم انتقلت عبر الأجيال التالية إلى كل البشر، لتصبح خاصية فردية لكل إنسان. يبدو بيوس منتهكًا لمبدأ الأروقة في هذه الجزئية، لكني لا أستطيع الحكم لأني لا أفهم تفاصيل اللاهوت الكاثوليكي، وعليه، فلا أدري مدى الرمزية التي يمكن بها قراءة النص. أما إذا أعلن بيوس أنه لا يمكننا استعمال نظرية حول منشأ كل البشر المعاصرين من مجموعة من البشر الأوائل، بدلاً من أصل فرد واحد (وهي حقيقة محتملة)، لاحتمال تعارض ذلك مع المعتقد الديني في الخطيئة الأولى (مسألة دينية)، ساعتها، أستطيع وصفه بالخروج عن الخط لسماحه لرواق الدين بفرض استنتاج مع رواق العلم. [المؤلف].

(٤٢) ألبرتوس ماجنوس (القديس): (١١٩٣-١٢٨٠) الاسم يعني ألبرت العظيم، كان مدينًا ومتبعًا لأرسطو وعلومه حتى أطلق عليه البعض لقب "قرد أرسطو" ويعتبر هو وتوما الإكويني من أبرز فقهاء اللاهوت في عصرهم (القرن الثالث عشر)، أشار إليه دانتي في "الكوميديا الإلهية"، ومن أفكاره أن لبس الياقوت يلطف من الإحساس الداخلي بالغضب ويطرد الأرواح الشريرة، فكان المقاتلون يلبسونه لتفادي وقوعهم في الأسر.[المترجم]

(٤٣) توما الإكويني (القديس): (١٢٢٥-١٢٧٤). من دعاة التعايش السلمي بين العلم والدين كما لقبوه بالطبيب العالمي. لم يكن له منازع في تمكنه من العلوم الدينية والمعرفة الثقافية. تعلم على يدي ألبرتوس ماجنوس ورافقه لفترة. [المترجم]

(٤٤) الأسقف نيكولاس ستينو: (١٦٣٨-١٦٨٦) دانماركي،اشتهر برحلاته العديدة في أنحاء أوروبا، حيث التقى بالأطباء والعلماء البارزين. تميز بحدة الذكاء وقوة الملاحظة. آمن بما تراه عيناه أكثر مما ترويه قصص التراث، كما كان من أوائل من تعرفوا على المستحاثات (الحفريات) بوصفها بقايا كائنات حية سابقة. له أيضا إسهاماته المهمة في معرفة تكوين طبقات القشرة الأرضية، وهناك متحف لتاريخ العلم والطب باسمه في الدانمارك. [المترجم]

(٤٥) لازارو سباللانزاني: (١٧٢٩-١٧٩٩)، قسيس إيطالي يعد من أكبر الأسماء في مجال علم وظائف الأعضاء التجريبي، والعلوم الطبيعية، ومهدت بحوثه لأعمال لويس باستير

من بعده، وله بحوث رائدة فى مجال تجدد الأنسجة وزرع الأعضاء، وأخرى فى الدورة الدموية والجهاز الهضمى، وفى منشأ الحياة والتلقيح الصناعى، وأخطأ كغيره باعتباره الحيوانات المنوية مجرد طفيليات لا قيمة لها فى عملية الإخصاب. ارتحل كثيراً بين الجبال طلبًا للمعرفة عن أصل الينابيع الموجودة على منحدرات الجبال. [المترجم]

(٤٦) أبيه هنرى برويل (١٨٨٧-١٩٦١)، كان قسًا متعمقًا فى دراسة الآثار والأحافير (الحفريات)، ترك ممارسة مهام وظيفته كقسيس، وتفرغ لدراسة الكهوف فى أوروبا وإفريقيا. اهتم بوجه خاص بفرنسا وإسبانيا، وكان مرجعية زمانه فى هذه العلوم. أما لفظ "أبيه" السابق على اسمه فمعناه بالفرنسية القس، وقد درج استعماله بين بعض طبقات المجتمع المصرى بمضمون الأخ الأكبر. [المترجم]

(٤٧) ألكسندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨-١٧٤٤)، من أعظم الشعراء الإنجليز فى بداية القرن الثامن عشر، واشتهر بالهجاء وبترجمته لأعمال هوميروس. [المترجم]

(٤٨) جاء فى كتب التراث الاسلامى قول مشابه فى كتاب تاريخ الطبرى (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة ١٩٩١ المجلد الأول ص ١٥ فى باب: القول فى كم قدر الزمان... "اختلف السلف قبلنا من أهل العلم فى ذلك، فقال بعضهم : قدر جميع ذلك سبعة آلاف سنة ... وقال آخرون: قدر جميع ذلك ستة آلاف سنة". [المترجم]

(٤٩) متوشالح وُجد قبل زمن نوح حسب ما جاء بالعهد القديم (سفر التكوين، الإصحاح الخامس، الآية ٢٧):"فكانت كل أيام متوشالح تسعمائة وتسعا وستين سنة، ومات"، توفى عام الفيضان الكبير، ويعتبر مضرب الأمثال فى طول العمر. [المترجم]

(٥٠) جون سكوت هالدين: عالم إسكتلندى بارز فى الطب، ومن المرجعيات العلمية فى زمانه. ابتكر قناع التخدير بالأثير أثناء الحرب العالمية الأولى، ومبتكر أول غرفة لعلاج مشكلات الغواصين، فى حالة صعودهم من أعماق البحر إلى السطح بسرعة عالية. [المترجم]

(٥١) هومو سابيانس: ينتمى الإنسان، حسب التصنيف العام للمملكة الحيوانية، إلى نوع الـ هومو سابيانس *Homo Sapiens*، ومعناها فى اللاتينية "الإنسان العاقل" أو"الإنسان المعرفي" وهو نوع يقع فى إطار عائلة أوسع معروفة باسم هومينيدى "*Hominidae*"، بمعنى " القردة العليا العظيمة" أو "القردة البتراء العليا"، و تدل الآثار والحفريات على وجوده مُنذ حوالى ١٢٠,٠٠٠ ألف سنة أو أكثر. [المترجم]



الفصل الثالث

الأسباب التاريخية للنزاع
الأسس المحتملة للحدة

شـــغـــل أندرو ديكـــســــون وايـــت Andrew Dickson White (١٨٣٢ – ١٩١٨) منصب أول رئيس لجامعة كورنيل، كما عمل وزيراً مفوضاً لأمريكا فى روسيا، فى منتصف التسعينيات من القرن التاسع عشر، وبعدها بقليل (١٨٩٦)، وقد ألف كتاباً من مجلدين أصبحا بعد ذلك من أهم مرجعيات نهاية القرن التاسع عشر فى هذا الشأن: "تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت فى المسيحية:

A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom

بدأ وايت كتابه بتشبيه مجازى مستعار من التراث الروسى. فها هو ذا فى أوائل أبريل، ينظر من غرفته فى مدينة سانت بطرسبرج عبر نهر النيفا (Neva River) إلى حشد من الفلاحين يستعملون عصيهم لكسر حاجز من الجليد، الذى كان لا يزال يعوق سريان النهر، مع اقتراب موعد الذوبان فى الربيع. ويفلح الفلاحون فى فتح مئات الثغرات

الصغيرة فى الجليد لإتاحة الفرصة لمياه النهر المتكاثرة فى الخلف؛ للانسياب بلطف، بدلاً من تحطيم السد بفيضان هائل، فى حالة الانهيار المفاجئ للحاجز بأكمله:

" تضغط المياه المتجمعة من آلاف الجداول المرتفعة المحتقنة خلف السد الجليدى؛ تتدافع النفايات والحطام فى مواجهته، يعلم الكل بحتمية استسلامه فى النهاية. لكنْ هناك خطر من انهياره المفاجئ، مقتلعاً حتى الأرصفة الجرانيتية من أساسها، آتيًا بالدمار لأعداد هائلة من السكان... يفعل المزارعون الصبورون الصواب، فلسوف ينهار الحاجز بالتدريج، متناسباً مع ما يقابله من ازدياد فى الحرارة مع الربيع، ومع عدد ما ينجزونه من ثقوب، وستنساب مياه النهر بعدها، بكل الخير والجمال".

فى هذا المثال المركب الذى ساقه وايت، نجد النهر المنساب ممثلاً للتقدم الإنسانى، فى حين يمثل الجليد القشعريرة الناجمة عن فرض المعتقدات الدينية على نتائج العلم. لا يمكن إعاقة التقدم إلى الأبد؛ وإذا لم يسلم اللاهوت قيادته السالفة لرواق العلم، فسيموت الدين على الرغم من كل ما لديه من فضائل، بسبب تفجر بعض الأزمات الحضارية أو السياسية المدمرة للإنسانية جمعاء. أما إذا ما ارتضى اللاهوت، بعد التدبر وخطوة خطوة، التنازل عن هذه الأراضى محل النزاع بنفس صافية، وتسليمها لأصحابها الحقيقيين من أهل العلم، ساعتها ستجرى

مياه نهر التقدم بسلاسة، تماماً مثل عدم فيضان نهر النيفا، إذا ما قام المزارعون بفتح ثغرات صغيرة كافية فى حاجز الجليد.

من المثير للدهشة أن وايت لم يصمم نموذجه من البداية، ليعبر عن الصراع بين العلم واللاهوت، ودفاعًا عن قضية العلم، بل لإنقاذ الدين من أعدائه الدينيين من الداخل. أصيب وايت بكثير من الإحباط وخيبة الأمل، أثناء محاولته تأسيس جامعة كورنيل كجامعة غير طائفية؛ جاء ذلك نتيجة المعارضة التى لقيها من رجال الدين، الذين اعتبروا مثل هذا العمل المدنى كأحد أعمال الشيطان، فكتب يقول:

" بدأت المعارضة فى الحال... بداية من القس البروتستانتى الصالح، الذى طالب بأن يكون جميع الأساتذة من الملتزمين دينيًا، استنادًا إلى أن تعليم الأمم حق شرعى للكنيسة وحدها ".. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم(٥٢) ".. إلى الراهب الورع الذى نشر اتهاماته بأن... جاء إلى كورنيل أستاذ مرموق ليغرس الكفر... ومن عالم اللاهوت البارز، الذى تنقل من مدينة إلى أخرى، شاجبًا "الميول الإلحادية" لأسلوب التعليم المقترح، إلى الوزير المتحمس الذى صرح فى مجمع كنسى بأن أجاسيز(٥٣) **Agassiz**؛ آخر كبار المعارضين لداروين ومن المتدينين الورعين، يقوم الآن " بتعليم الداروينية والإلحاد" فى الجامعة الجديدة.

كان وايت متدينًا مخلصًا، بل إن اهتمامه بالدين كان أكثر من اهتمامه بالعلم، كتب عن عمله مع إيزرا كورنيل(٥٤) **Ezra Cornell** :

"نحن أبعد ما نكون عن مجرد الرغبة فى المساس بالمسيحية، بل كلانا كان يأمل فى دعمها؛ لكننا لم نخلط بين الدين والعلمانية ". هذا وقد عرض وايت لقضيته الأساسية فى مقدمة كتابه:

"وقعت أعظم الشرور فى تاريخنا المعاصر لكل من الدين والعلم، بسبب تدخل العلم فيما يفترض أنه لصالح الدين، بغض النظر عن مدى النيات الحسنة... ومن الناحية الأخرى؛ فكل البحوث العلمية المتحررة، بغض النظر عن مدى الخطورة البادية لبعض مراحلها، بالنسبة إلى المفاهيم الدينية السائدة حينها، عادت نتائجها بأعظم الخيرات على كل من الدين والعلم".

فى الوقت الذى لا نملك فيه إلا التصفيق لنيات وايت، إلا أن تشبيهه البارز للصراع بين قوتين هائلتين متعارضتين، من أجل أحد السهول الخضراء - وهو نموذج شاع استعماله فى أواخر القرن التاسع عشر، وبالمناسبة فقد شاع أيضا ترديده (بسخرية فيما نحن بصدده)، نتيجة للقراءة السطحية لبعض أقوال داروين المحورية، مثل "الصراع من أجل البقاء" والبقاء للأصلح"- أنتج عواقب سيئة للحوار المتنامى حول علاقة العلم والدين. على الرغم من أن وايت أراد فقط أن ينقد قطاع اللاهوت العقائدى(٥٥) (Dogmatic Theology)، بهدف دعم صحيح الدين، إلا أن مقولته قرئت بسطحية وعجالة كما لو كانت تعنى أن التقدم البشرى يحتاج إلى انتصار العلم على جميع نواحى المؤسسة الدينية.

يمكن تتبع خط التشويش السيئ (لقراءة الأعمال)، إلى ثانى أعظم الأعمال وأوسعها انتشاراً فى هذه المنظومة، وهو كتاب "تاريخ الخلاف بين الدين والعلم" History of the Conflict between Religion & Science، لمؤلفه الطبيب المتمرس والمؤرخ الهاوى، جون وليام درابر(٥٦) John William Draper الصادر فى عام ١٨٧٤ ، كان درابر أكثر حدة من وايت، وأبعد ما يكون عن الكياسة مع الدين، وقد قصد نقد شريحة اللاهوت العقائدى والطائفى فى عنوان كتابه، إلا أن هذا لا ينفى أن النص الذى كتبه درابر، تجوز قراءته بحق كهجوم على الدين – أو على الأقل على دين معين – وكان يهدف إلى تقوية العلاقة بين العلم والبروتستانتية، إلا أنه اتبع النهج المعتاد نفسه، لأوائل الأمريكيين الناجحين فى عصره، من ناحية تحاملهم الشديد على الكاثوليكية، حيث كانت سائدة بين غالبية المهاجرين الفقراء، الذين وصفوهم بالـ "القذرين العظام"، ورأوا فى تكاثرهم ما يهدد نقاء عنصرهم ورفعته .

بغض النظر عن مدى المنطقية أو الإنسانية التى يمكن أن نحكم بها على الأروقة، وبغض النظر عن مدى حكمنا بالزيف أو البساطة، على الفكرة البديلة عن الصراع المستأصل بين العلم والدين، فليس بإمكان أحد إنكار حقيقة الصراع السافر، الذى ميز العديد من التفاعلات التاريخية بين هاتين المؤسستين. كيف يمكن إذاً الدفاع عن فكرة الأروقة، إن كانت نماذج التاريخ الفعلى تتحدث بصوت مختلف؟ أعتقد أن هناك أربعة أسباب رئيسية – كلها من مصطنعات التاريخ أو

تداعياتها النفسية ، وهى- فى حقيقتها - حجج ليس لها ما يدعمها، حتى تقف عقبة فى سبيل الوصول لهدف يرجى تحقيقه بشكل بارز- من الممكن أن تقوم بتوضيح هذا الموقف الخارج عن المألوف، وتساعدنا على تحديد السبب وراء استمرار المعوقات، أمام تقبل جدلية راقية، مثل فكرة الأروقة أو حتى تفهمها.

١- من أجل تبسيط التاريخ قليلاً، وكما سبق ذكره (مع الإبقاء على الصدق فى السياق الأساسى)، لا يملك العقل البشرى التوقف عن تأمل طبيعة الأشياء، سواء لأسباب عملية كالزراعة أو الإبحار، أم لدوافع أكثر شمولية مستوحاة من حاستنا المباركة بالتأمل (كما يحدث عندما نتساءل: لماذا تشرق الشمس؟ ولماذا تبدو الحشائش خضراء؟). فى أزمنة سابقة لمعظم الحضارات الغربية، عندما لم يكن للعلم وجود ككيان واضح المعالم، وعندما جمع الإحساس الشمولى الأكثر توحيداً للطبيعة، كل أسئلة "لماذا" تحت عنوان الدين، وقعت حينذاك موضوعات عديدة تحت رعاية مفهوم الدين الواسع، لكن لها الآن تفسيرات علمية حقيقية، وتوضع فى رواق العلم.

يتولى مثقفو الدين ورعاته هذه الأسئلة فى العادة، بأسلوب نعتبره علميًا بنظرتنا المعاصرة، مثل مراقبة وحساب الدورات الفلكية، عند الاحتياج لتصميم تقويم، سواء للمتطلبات العملية أو الدينية (كما فى حالة التقدير العسير المعقد، لعيد دينى متحرك مثل عيد الفصح). لكن

نظراً إلى غياب المعرفة العلمية، أو لضيق الأفق، أو لمبررات متعجرفة، فكثيراً ما تلقت بعض الأسئلة، التى تتبع الآن رواق العلم، إجابات سلطوية قاهرة مثل: "كيف لى أن أعرف؟ إن الإنجيل يقول: كذا وكذا"، أو إجابات ملائكية مثل: "الملائكة فعلت كذا أو كذا"، وكلها إجابات غير مقبولة الآن، بصفتها مناقضة لروح ومفهوم الأروقة.

إذا تضمنت الطبيعة البشرية بعض الخواص المثيرة للإعجاب، مثل خاصية التأمل، فنحن مدفوعون أيضًا -إلى درجة ما - بميولنا الأقل تقديراً، المتمثلة فى بعض القواعد العامة، مثل : "عدم التنازل طوعاً عن القوة أو السيطرة عن السهول الخضراء، وإن لم يكن لنا حق فيها". لا أعتقد أنه يجب علينا أن ننظر بعمق أكثر، لنفهم سبب تكرار الصراعات عبر التاريخ، فى الوقت الذى كان يجب فيه للأروقة أن تسود. ينتشر المتعجرفون والأفاكون وهواة السلطة فى أوساط جميع المهن، وكثيراً ما يتوصل هؤلاء لامتلاك مقاليد الأمور. امتلك الدين يوماً قدراً كبيراً من السلطة المدنية، ليجذب أكثر من نصيبه من هؤلاء البشر. تخلى كثير من المثقفين الدينيين بكل رضًا عن أقاليم غير مناسبة له، وسلموها إلى سلطة العلم الشرعية. لكن آخرين خاصة ممن يمتلكون زمام القيادة - يختارون عدم التنازل عن شبر واحد، ثم يلعبون لعبة "فرق تسد" القديمة، لوصم رواق العلم النامى، ووصفه كمجموعة ضالة من المغتصبين، تحت قيادة الشيطان، من هنا ينبع أصل الصراع المتكرر مع العلم، ليس مع الدين بصفة عامة، ولكن مع بعض النماذج

المتجسدة فى أنصار اللاهوت العقائدى، الذين يتصرفون بعكس مفهوم غالبية الناس عن الديـن، بالرغم من حملهم الراية الرسمية لمذهب معين.

٢- لا تمثل القواعد العامة بالضرورة كل الجزئيات، فقد تمخضت حقائق التاريخ هذه، عن مصادمات قاسية بين مؤسسات تمثل إما الدين وإما العلم، حول موضوعات محددة متعددة، هذا علىٰ الرغم من أن المنطق التجريدى والنيات الحسنة العادية، بإمكانها بث روح السماحة فى رحاب الأروقة. وإذا تذكرنا شدة بعض الملابسات بين قادة دينيين بعينهم، وبعض الاستنتاجات العلمية (مثل حالة جاليليو قديمًا، أو معركتنا الحالية مع الخَلقيين). ووضعنا فى الاعتبار ما هو أعظم، متمثلاً فى حروب (ولو حرفيًا) بعض القادة الدينيين، والقوى السياسية المعارضة. وكلها - فى حقيقتها - من أجل كسب السهول الخضراء أو القوة والسيادة، وإن كانوا يقدمونها للجماهير، تحت مختلف الشعارات الدينية، لكسب تأييدهم.

جاء ذكر درابر ووايت لمجرد تسجيل مثل واحد واضح، بصفتهم الأصل فى النموذج المثالى للصراع بين العلم والدين. حيث كتبوا كتبهم واضعين فى أذهانهم واحدًا من أكبر الأمثلة الدرامية فى تاريخ أوروبا، إبان القرن التاسع عشر، ألا وهو الصراع الطويل بين مؤسسى ولاية إيطاليا، وواحد من أبرز العناصر المثيرة للدهشة والحيرة فى زمانه، البابا بيو نونو Pio Nono المشهور بـ بيوس التاسع (Pius IX)، الذى كان متحررًا فى البداية، ثم تنامت مرارته بعد ذلك وتزايدت ردود أفعاله،

وهو بالمناسبة، صاحب الرقم القياسى لأطول مدة شغل فيها أحد منصب البابوية؛ فقد حكم من ١٨٤٦، حتى وفاته فى ١٨٧٨.

فى بداية حكم البابا نونو، وكنتيجة لثورات ١٨٤٨ تم نفيه إلى مدينة جايتا(٥٧) Gaeta فى مملكة نابولى (لم تكن دولة إيطاليا قد تكونت بعد)، عاد بعدها إلى السلطة فى عام ١٨٥٠، حيث اعتمد بعد ذلك وطوال فترته فى البابوية، برنامجًا متزايداً من التزمت والمواجهات، ضد الوقائع السياسية من حوله، وتبلور هذا المسلك فى النهاية، فى صورة منشور عام ١٨٦٤ غير المشهور، الذى سجل فيه ثمانين بنداً عن "الأخطاء الأساسية فى أزمنتنا"، وأعلن حرباً لا هوادة فيها ضد المجتمع الحديث، خاصة فيما يتعلق بالعلم ومفهوم السماحة الدينية. عقد بيو نونو أول اجتماع لمجمع الفاتيكان فى عام ١٨٦٩، حيث قام بمناورة رائعة لكسب غالبية الأصوات ليؤكد على عصمة البابا. (يذكر أن مجمع الفاتيكان الثانى الذى عقد فى عام ١٩٦٢، فى عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين، تبنى برنامجًا مختلفًا تمامًا، باتباع أسلوب يخلو من المواجهات).

أُعلنت دولة إيطاليا الحديثة فى عام ١٨٦١، وأصبحت السيطرة على روما والمناطق المحيطة بها – حيث حكم البابا كملك مدنى ذى دولة حقيقية و كأمير روحانى – من المسائل التى لا يمكن تفاديها طويلاً، وفى ٢٠ من سبتمبر ١٨٧٠، دخلت القوات الإيطالية مدينة روما، بعد مقاومة رمزية من حرس البابا، واستمر بيو نونو فى الفاتيكان

(التى تركتها إيطاليا تحت إمرة البابا، ومازال الأمر مستمراً حتى اليوم)؛ حيث ظل بقية حياته ينعى بمرارة خسارته للسلطة، ويصف نفسه بالسجين.

هل يجوز تفسير هذا التاريخ الآن، كإحدى حلقات الصراع بين الدين والمجتمع الحديث ؟ إن مثل هذا التفسير ليسخر من تعقيدات التاريخ.

فأولاً: وقبل كل شيء، لا يوجد نصب صخرى واحد اسمه الدين. وقد دار معظم الصراع فى هذه القصة داخل الكنيسة الكاثوليكية، حيث انهزم بيو نونو وشكل جناحه الليبرالى الخاص.

ثانيًا : لماذا يجب علينا قراءة هذه الأحداث كرواية بين الدين والدولة الحديثة، بدلاً من كونها صراعًا بين قوتين سياسيتين، يستعمل كل طرف فيها أقصى ما يملك من الأدوات البلاغية؟ إذًا، فإن لم يكن من الممكن النظر إلى معركة حقيقية تدور على أرض فعلية، بين إحدى الديانات العظمى ودولة جديدة، كحرب متأصلة بين مؤسستين متعارضتين، لماذا إذًا نقبل بتعميم هذا النموذج، ليشمل الحوار الباهت والأكثر انتشاراً، والأقل تخاصمًا، بين العلم والدين؟ لقد رحب دائمًا رجال الدين (كل الأديان) المتحررون بالعلم واحترموه، ذلك - فى الوقت نفسه - الذى يظل فيه كثير من العلماء الرواد، ملتزمين بإخلاص تجاه معتقداتهم الدينية.

٣- استند الرافضون لبعض النتائج العلمية، إلى خلفية دينية لتبرير رفضهم، وكانت الموضوعات المعنية دائمًا قريبة جدًا، من منطقة الصراع النفسى العميق، الذى يمس آمالنا ومخاوفنا جميعًا كبشر، مثل التساؤل عن ماهية الإنسان، وكما جاء فى إنجيل الملك جيمس: "من هو الإنسان حتى تذكره، وابن آدم حتى تفتقده" (٥٨).

من المؤكد أن الحقائق العلمية المتعلقة ببعض جوانب هذا السؤال، لا يمكنها الرد على الجوانب المتعلقة بالقيم الروحية أو الغايات السامية. وهى موضوعات مستقرة داخل رواق الدين. لكن الاستنتاج الحقيقى بأننا اشتركنا مع سلفنا من أشباه القردة غير المذيلة، مُنذ ٥-٨ ملايين سنة، فهو أمر لابد أن ترتعد له فرائص الكثير من الناس ممن لم يتقيدوا بمفهوم الأروقة، ويخشون إن قبلوا بأى شىء غير الخلق الإلهى من العدم، أن تفقد الحياة الإنسانية مكانتها المميزة الضرورية للاتزان الشخصى، فى عالم مفعم بالمآسى المتعاقبة. من الممكن أن ينظر إنسان ما إلى ما يريح أخاه، على أنه شىء غير منطقى، ولا يمكن إنكار ما للممارسات النفسية من أثر مريح، بل ما لها من إمكانات عظيمة وضرورية، لمساعدة الإنسان على الصمود أمام الصعاب. لا يمكن التنازل عن هذه المعتقدات بشأن الواقع الفعلى بسهولة، حتى لو بقى الإيمان الدينى محصنًا ضد معطيات العلم المناقضة، ولا ننسى الإجابة المريحة التى يعطيها المزمور الثامن، عن السؤال المطروح أعلاه:" تسلطه

على أعمال يديك جعلت كل شيء تحت قدميه، الغنم والبقر جميعًا وبهائم البر أيضًا، وطيور السماء وسمك البحر السالك في سبل المياه".

٤- إذا انفصل العلم عن الدين بأسلوب مبدأ الأروقة السليم، ووقف كل منهما على بعد كاف من الآخر، ولم يتجادلا حول الموضوعات نفسها مرة أخرى، أمكن - إذًا إغلاق ملف التاريخ الطويل، للمنازعات غير الضرورية. لكن كما تمت الإشارة إليه سابقًا فإن العلم والدين يقفان وجهًا لوجه، ويتشابكان عن قرب شديد، وأسلوب معقد للغاية، ويجب على العلم والدين أن يطرحا أسئلة مختلفة ومحددة بالمنطق، فكثيرًا ما تتماثل موضوعات التساؤلات ويكون لها أسمى المعاني. يحرس العلم والدين مناطق مختلفة، من أهم النقاط الحيوية في حياتنا، فياليتهم يفعلون ذلك بسلام وتكاتف، بدلا من تصرفهم كالرجال الذين استخدموهم إبان الحرب العالمية الأولى[٥٩] لتحصدهم المدافع؛ مدفونين في خنادق الخلاف الذي يبدو بلا نهاية، ولا معنى لوجودها من الأساس، يتقاذفون الرصاصات وعبوات الغاز السامة مع عدو مفترض، يبغي هو الآخر الخلاص من ميدان المعركة، والعودة إلى الحياة الواعدة المثمرة.

كولومبس والأرض المنبسطة:

مثل على زيف الصراع بين العلم والدين

يعرف كل صبية المدارس - أو على الأقل قبل فترة الإصلاح السياسى المعاصر - قصة التخلص من أمير البحار الكفء بإغراقه تمامًا. إنها قصة كريستوفر كولومبس، البطل الذى اكتشف أمريكا، على الرغم من الاقتناع شبه العالمى حينها، بأنه سيبحر ويهوى مباشرة عند حافة الأرض المسطحة. تقع هذه الرواية السخيفة بزيفها الفاضح، ضمن الكتب المحترمة من قبيل "دروس الأخلاقيات للصبية"، وتعطينا أحسن مثل أعرفه، لكشف مبلغ الضرر الذى يقع باستعمال نموذج زائف، لتصوير الحرب بين العلم والدين؛ حيث يمكننا تتبع مصدر تلك الأسطورة مباشرة إلى مؤلفيها وهما: درابر ووايت السابق الإشارة إليهما (Draper & White) . ولعل العموميات التى ذكرت فى القسم السابق، تعطى قدرًا كافيًا من الوقود اللازم لاستكمال هذا الحوار حول الأروقة، مبنيًا على إثبات زيف نموذج "الصراع المقابل".

بصفتى كاتبًا تحليليًا فى الأساس، أعتقد أن أحسن تمثيل للعموميات، يكمن فى اختيار حسن لنموذج "بسيط"، موثقًا بالقدر الكافى، وليس بالهجوم العنيف على لب الموضوع؛ حيث نادرًا ما يفضى هذا الأسلوب التصادمى إلى شىء، أكثر من كونه مجرد ارتعاشات منحازة لاستمالة آراء الآخرين، دون تقديم أية تفصيلات أو توثيق(٦٠) .

كلنا يعلم أن الأساتذة الكلاسيكيين الأوائل استقروا على مسألة كروية الأرض؛ حيث افترضت فلكيات أرسطو أن الأرض جرم كروى، كما قام إيراتوثينيس(٦١) (Eratosthenes) بالفعل، بقياس محيط الأرض فى القرن الثالث قبل الميلاد. يحتج المرددون لأسطورة تسطيح الأرض، بأن هذه المعلومات كانت قد فقدت، عندما جثم الظلام الكنسى فوق أوروبا، ثم اعتقد معظم الباحثين على مدى ألف عام، أن الأرض لابد أن تكون مسطحة، كما يفهم من القراءة الحرفية للإنجيل فهى مثل أرضية خيمة معلقة بقبة السماء، ثم أعيد بعد ذلك اكتشاف الإشارات إلى كروية الأرض فى عصر النهضة ؛ ولكن الدليل المادى المطلوب احتاج إلى كولومبس الشجاع وغيره من الرحالة العظام. لقد كان متوقعًا إبحارهم إلى الهاوية عند حافة الأرض، لكنهم (بداية ببعثة ماجلان) عادوا إلى بلادهم من الناحية الأخرى، بعد أن قطعوا كل المسافة حول الأرض.

يركز نموذج الأسطورة بما يحمل من إيحاءات، المقدم للصبيان، على كولومبس الذى يفترض أنه تغلب على الافتراء الفاحش لرجال الدين، الذين اجتمعوا فى مدينة سالامانكا(٦٢)، فى معركة ملحمية دارت رحاها بين حرية الفكر والمنظومة الدينية المتصلبة. دعنا نقرأ الآن الأسطورة نفسها، ولكن من أحد كتب تلاميذ المدارس الابتدائية، المكتوبة حينذاك فى عام ١٨٨٧، مباشرة بعد ابتكار الأسطورة (وهى مختلفة قليلاً عما قرأته كطفل فى الخمسينيات من القرن الماضى ١٩٥٠).

قال كولومبس: "ولكن إذا كان العالم مستديراً، فليس الجحيم هو الذى يرقد خلف ذلك البحر الثائر وتلك الأعاصير، بل لابد أن تكون هناك شواطئ آسيا الشرقية أو كاثاى "Cathay" (الصين) كما سماها ماركو بولو... اجتمعت العصبة المتسلطة فى قاعة الاجتماعات، رهبان متأنقون فى ثيابهم المسربلة... ومطارنة فى ثيابهم القرمزية... "وتقول إن الأرض كروية... ألا تعلم أن آباء الكنيسة المقدسة أدانوا هذا الفكر... إن نظريتك هذه تبدو مجرد هرطقة". لعل كولومبس ارتجف وتزلزل تماماً لدى سماعه لفظ الهرطقة، فقد كانت محاكم التفتيش فى ذلك الوقت فى أحسن حالاتها، فمن تحطيم العظام، إلى نهش اللحم، ولىّ الأصابع، والشنق، والحرق، وتقطيع أوصال الأعضاء، كعقوبة للهرطقة.

(تأتى بعض الاقتباسات وكثير من الوثائق الخاصة بهذا الشأن، من كتاب ممتاز للمؤرخ ج. ب. راسل(٦٣) J. B. Russell بعنوان "ابتكار

الأرض المسطحة" للناشر برايجر، ١٩٩١ Inventing the Flat Earth، Praeger، ١٩٩١) .

إنها مأساة حقيقية وتصلح لأن تكون إحدى الروايات الخيالية، فلم يردد العلماء أبداً ما يمكن تسميته بعصر الظلام أو الأرض المنبسطة (مهما بلغ عدد الجهلاء ممن يفكرون في كوكبنا بهذا الأسلوب، سواء في السابق وحتى يومنا هذا).

لم تتلاشَ أبداً المعرفة اليونانية بكروية الأرض، حتى أن كل العلماء من رجال الدين في العصور الوسطى، قد تناولوا مسألة كروية الأرض كحقيقة فلكية. أحال فرديناند وإيزابيلا [٦٤]خطط كولومبس إلى لجنة برئاسة هيرناندو من تالافيرا (Hernando de Talavera) القس الشخصي لإيزابيلا، الذي رقي إلى رئيس أساقفة غرناطة بعد هزيمة المغاربة. تكونت اللجنة من خليط من رجال الدين وكبار رجال المجتمع، واجتمعت في سالامانكا بجانب اجتماعاتها في أماكن أخرى، أثاروا عدة اعتراضات حادة على كولومبس، لكن أبداً لم يعترض أحد على كروية الأرض. من أهم الانتقادات التي وجهت إليه أنه لم يكن باستطاعته الوصول إلى جزر الإنديز[٦٥]، في التوقيت الذي زعمه، حيث إن محيط الكرة الأرضية كان أكبر من أن يقطعه في الوقت المذكور. إضافة إلى ذلك، فإن منتقديه كانوا على صواب؛ حيث لفق كولومبس بياناته، لتتلاءم مع حساب محيط أصغر للكرة الأرضية؛ وبذلك تقع الإنديز في متناول رحلته. غني عن الذكر أنه لم يصل إلى آسيا، ولم يكن

ذلك حتى باستطاعته، كما أن سكان أمريكا الأصليين مازالوا يسمون بالـ "هنود"، نتيجة توارث خطئه.

أكد معظم الأساتذة المسيحيين مسألة كروية الأرض؛ أشار القديس بيدى[٦٦] (Venerable Bede) إلى الأرض بكونها جرمًا سماويًا كالكرة، وأنها تقع فى مركز الكون فى القرن الثامن الميلادى. ساعدت ترجمة كثير من الأعمال اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، على انتشار تقدير العلوم الطبيعية خاصة الفلك بين الأساتذة، وقوى اقتناعهم بفكرة كروية الأرض. كما أكد كل من روجر - بيكون[٦٧] Roger Bacon (١٢٢٠ - ١٢٩٢) وتوما الإكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤) كروية الأرض من خلال أعمال أرسطو والتعليقات العربية التى تلته. وكذلك أيضا نحا كبار العلماء فى أواخر العصور الوسطى، بما فى ذلك نيكولاس أوريسم[٦٨] Nicholas Oresme (١٢٢٥-١٢٧٤) شغل كل هؤلاء الرجال مناصب كنسية.

من كان هناك إذًا ليجادل بأن الأرض مسطحة، إذا كان كل الأساتذة الرواد من المؤيدين لكروية الأرض؟ لابد من التعرف على الجانى المتسبب فى أى خرق للقانون، ويشير راسل إلى أن وليام ويويل[٦٩] willam whewell، كان أول من تعرف على المذنب الأساسى فى كتابه : " تاريخ العلم الاستقرائى" (History of Inductive Sciences) الصادر عام ١٨٣٧، وهما شخصيتان ليستا بالقدر الكافى من الأهمية،

أولاهمـا الأب لاكـتنانيـوس[٧٠] Lactanius(٣٤٥-٣٢٥)، وثانيتـهمـا الشـخـصـيـة الغـامـضـة الأخـرى؛ كـوزمـاس إنديكـوبلوسـتـيـس[٧١] Cosmas Indcopleustes، مؤلف كتاب "التضاريس المسيحية"Christian) Topography) حوالى ٥٤٧ - ٥٤٩ م، ويعقب راسل : "أشار ويويل إلى المذنبين... كدليل على الاعتقاد الذى ساد فى العصور الوسطى بأن الأرض مسطحة، ويبدو أن كل المؤرخين اللاحقين قلدوه، فلم يكن متاحًا لهم الكفاية من أمثلة أخرى.

أمتلك نسخة من كتـاب لاكتانيوس بعنوان "التعـاليم الإلهية"De-) vine precepts)، المنشـور فى ليون بفـرنسـا عـام ١٥٤١، يحـتوى هذا الكتاب بالفعل، على فصل بعنوان " النقاط المتقابلة الواقعة على الجهة الأخـرى من الأرض"، وفـيـه يسـخـر المؤلف من فكرة كـروية الأرض، ويستشهد بعدد من الأمثلة، كسكان أستراليا المقلوبين... إلخ، وهى الجدليـات نفسها، التى كنـا نتفـكه بها كـتلاميذ فى المدرسة الابتدائية. كتب لاكتانيوس : " هل بلغت الحماقة بأى إنسان، إلى درجة أن يصدق بوجود بشر رأسهم إلى أسفل وأرجلهم إلى أعلى... وأن الأشجار تنمو إلى أسـفل وأن المطر والجليد يهطـلان إلى أعلـى بدلا من هبوطهمـا على الأرض؟! أما كـوزمـاس فـصـاحب الريادة فى تفسيـره الحـرفى للإنجيل؛ حيث يمثل الأرض بأنها الضلع المستوى الأسفل لقبة السماء الفوقية المستطيلة.

لا يمكن لمروجي أسطورة الأرض المنبسطة، إنكار الإقرارات الصريحة لكل من القديس "بيدي" وبيكون والإكويني وغيرهم. إلا أنهم يتمادون في الجدل بأن هؤلاء الرجال كانوا قلة نادرة، مثل المنارات المكافحة وسط دياجير الظلام الدامس. لك أن تتأمل في هذا الموقف المنافي للعقل، من الذي شكل الأصولية الدينية وجعلها تمثل هذا الاتفاق على الجهالة؟!

مجرد شخصيتين تافهتين باسم لاكتانيوس وكوزموس إنديكوبلوستيس. لم يكن القديس "بيدي" وبيكون والإكويني وأمثالهم من أبطال تحطيم الأصنام، لكنهم شيدوا بآرائهم واقتناعاتهم صرح كروية الأرض الذي صمد كقانون أمام لاكتانيوس وأمثاله، الذين مكثوا مهمشين.

أين إذاً ومتى نشأت أسطورة العصور الوسطى عن تسطيح الأرض؟ لعل أعمال راسل التاريخية تعطينا تسجيلاً سليماً عن الأوقات وعن الناس. لم يتهم أي من العقلانيين المعارضين للكنيسة - من شخصيات القرن الثامن عشر البارزين أمثال كونديلاك CondillacK، وكوندورسيه Condorcet، وديديرو Diderot، وجيبون Gibbon، وهيوم Hume، أو بنيامين فرانكلين - الأساتذة المسيحيين الأوائل، بأنهم صدقوا تسطيح الأرض، على الرغم من أنهم قليلاً ما داروا عدم ارتياحهم، عن النماذج المسيحية في العصور الوسطى.

كذلك أعطى واشنطن إيرفنج[٧٢] Washington Irving دفعة قوية لقصة استواء الأرض، فى روايته الخيالية عن كولومبس، التى نشرت فى عام ١٨٢٨، لكن رؤيته لم تصمد طويلاً. نمت الأسطورة خلال القرن التاسع عشر، لكنها لم ترقَ أبداً حتى إلى الحيز الضيق الخاص بمصّاصة الأطفال، أو إلى لغة المرشد السياحى اللاّحنة. أجرى راسل مسحًا مثيرًا لنصوص التاريخ، فى كتب تلاميذ المدارس الثانوية فى القرن التاسع عشر، ووجد أن قلة قليلة جدًا ذكرت مسألة تسطيح الأرض قبل عام ١٨٧٠، فى حين وردت الأسطورة فى معظم النصوص بعد عام ١٨٨٠، نستطيع إذًا أن نحدد بدقة بالغة، توقيت غزو أسطورة التسطيح للثقافة العامة.

حددت تلك السنوات معالم بناء نموذج الحرب بين العلم والدين، كعنصر رئيسى فى تحديد ملامح تاريخ الغرب، ولا شك أن مثل هذه النظريات بشأن الصراع الانشقاقى، تحتاج دائمًا إلى بعض الصبية لإثارته، ولبعض الخرافات لدعم ونشر مزاعمهم. لقد أورد راسل فى تحليله، أن خرافة تسطيح الأرض وصلت إلى مكانتها البارزة، كعنوان رئيسى يمثل انتصار العلم، فى ظل الانشقاق الزائف لتاريخ الغرب، ويالها من حبكة مدهشة، تم من خلالها إقحام العلم. لقد دمرت حقبة الظلام الدينى المعرفة اليونانية، وألقت بنا فى شبكة عنكبوتية من المخاوف، مبنية على منظومة صارمة ضيقة الأفق، ومعاكسة لكل من العقلانية والتجربة، وبناءً على ذلك، عاش أجدادنا فى قلق وتوتر،

محددين باللاعقلانية الكنسية، خائفين من الدخول في أى تحد أو تجربة جديدة، لن تكون عقباها إلا السقوط من على حافة الأرض، إلى هاوية اللعنة الأبدية. إنها رواية توافق الهدف المنشود، لكن كلها زيف فى زيف، فلم يشكك أى من الأساتذة والمفكرين المسيحيين من العصور الوسطى، فى مسالة كروية الأرض.

تتبعت فى القسم التالى، منشأ مثال الحرب بين العلم والدين، إلى الكتب المؤثرة لكل من درابر ووايت، وقد استعمل كل منهما خرافة الأرض المسطحة كمثله الأساسى . بدأ درابر بعرض فرضيته:

إن تاريخ العلم ليس مجرد تسجيل للاكتشافات المنعزلة، إنما هو سرد للخلاف بين قوتين متعارضتين مناضلتين، القوة المتوسعة للفكر البشرى من ناحية، والقوة الضاغطة الناجمة من المعتقدات الدينية التقليدية واهتمامات الناس، من ناحية أخرى... إن الدين بطبيعته غير متغير، ثابت لا يتحرك؛ أما العلم فبطبيعته دائم التقدم، وفى النهاية لابد من حدوث الافتراق، الذى يستحيل إخفاؤه.

يسترسل درابر من تلك النبرات المحسوبة بعناية، إلى ما يشبه إعلان الحرب ضد الكاثوليكية فى حدة بالغة :

ـ هل ستوافق الحضارة الحديثة على هجر مسار التقدم، الذى منحنا الكثير من القوة والسعادة؟... هل تستسلم لفرض القوة... تلك التى أبقت أوروبا فى حالة راكدة لعدة قرون؟! الكبت المؤذى بالشنق والحرق

والسيف لكل محاولة للتقدم، تلك القوة المؤسسة في سحابة من الألغاز، التى اختارت لنفسها مكاناً فوق التعقل والمنطق؛ وتجاهر بحقدها المكنون لحرية الفكر والحرية فى المؤسسات المدنية...

ثم هل وصلنا فعلاً إلى هذا الحد؛ حيث تتحدد معالم كل من أنصار الكاثوليكية الرومانية وأنصار العلم، كأضداد يستحيل توافقهما، ولا يمكن وجودهما معًا؛ لابد أن يتراجع أحدهما، على الإنسانية أن تختار، وليس لها أن تحصل على كليهما.

صدرت مقولات متشددة لا تقبل المساومة بإعلان الحرب من الجانب الآخر، كما جاء فى القرار التالى لمجلس الفاتيكان الأول:

عليه اللعنة...ذلك الذى يرفض حدوث المعجزات، أو يقول بأنه لا يمكن معرفتها يقيناً، وأن التعرف على الأصل الإلهى المسيحى، لا يمكن أن يثبت من خلالها...ذلك الذى سيقول بوجوب اتباع العلوم البشرية فى مناخ من الحرية، يسمح له بالاعتقاد فى صحة مزاعمه، حتى عند تعارضها مع التعاليم الموحاة. ذلك الذى سيقول باحتمال تغيير التعاليم الموضوعة من الكنيسة مع الزمن ومع تقدم العلم، واحتمال النظر إلى التعاليم بتفسير مختلف عن الذى تلقته الكنيسة ومازالت.

إنها كلمات حرب بينهما بكل تأكيد، لكن يجب تذكر أن هذه الحدة من الجانبين، إنما عكست الوقائع السياسية لعصر معين (كما سبق ذكره)، وليست الضرورات المنطقية لحوارات متماسكة وغير متغيرة. لقد

انزعج العلماء - ولهم كل الحق - من إعلان بيو نونو (السابق ذكره) المتسلط، كذلك أحزن الأحرار ومؤيدى العلم من داخل الكنيسة، أضف إلى ذلك - كما سبق توثيقه فى الفصل الثانى- موقف البابوية حينها من تطور الإنسان، تركت الكنيسة مُنذ ذلك الحين اتخاذ مواقف المواجهة هذه، التى وُجدت فى إطار منظومة أحداث تاريخية معينة، ورحبت بحرارة بالأروقة.

أبرز درابر خرافة تسطيح الأرض كالمثل الأول على تحجيم الدين وتزايد قوة العلم :

لا يمكن أن تفوت ملاحظة الأفق الدائرى المرئى، وتلاقيه على البعد مع البحر، وظهور واختفاء السفن التدريجى فى عرض البحر؛ على البحارة النبهاء؛ وتقودهم إلى الاعتقاد فى شكل كروى للأرض. ثم إن كتابات الفلكيين المسلمين وفلاسفتهم، أشاعت الفكرة عبر أوروبا الغربية، لكن - وكما هو متوقع - استقبلت الفكرة بالاستنكار من قبل رجال الدين ... وقفت التقاليد والأحوال السياسية (حكومة البابا) ضد الإقرار بأى شى سوى الشكل المسطح للأرض كما جاء بالمخطوطات.

يعقب راسل على نجاح أعمال درابر فيكتب: كتاب " تاريخ الخلاف.." كتاب بالغ الأهمية ؛لأنها المرة الأولى التى يفصح فيها أحد كبار الرموز فى المجتمع بمنتهى الوضوح، عن وجود حالة حرب بين

العلم والدين ولقد نجح نجاحًا منقطع النظير. أما بالنسبة إلى العقول المثقفة، فقد ثبتت لديها فكرة أن "العلم" يقف مدافعًا عن الحرية والتقدم فى مواجهة الخرافات وقمع الـ "دين"، وتحولت وجهة نظرها إلى حكمة تقليدية.

يقدم كتاب وايت اللاحق، شخصية كولومبس كأحد رسل العقلانية فى مواجهة المنظومة العقائدية الجامدة. فيتناول مسألة نظرية الأرض المسطحة لـ كوزماس إنديكوبلوستيس على سبيل المثال، ويكتب: "إن بعض أبرز رواد رجال الكنيسة كرسوا أنفسهم لدعمها بمقولات حديثة، مع إضافة بعض الحجج العقائدية إليها؛ مما أدى بغالبية المؤمنين إلى اعتبارها من هبات الله".

شيَّد كل من درابر ووايت نموذجهما الأساسى عن العلم فى مواجهة الدين، فى إطار صراع جذرى معاصر؛ بحيث يمكن رؤية كل الأبعاد بوضوح من هذا المنظور، خاصة معركة التطور، فيما يتعلق بنموذج داروين العلمانى المرتكز على الانتقاء الطبيعي. فمُنذ قضية جاليليو، لم يوجد موضوع قام بالتحدى بهذه القوة للآراء التقليدية، حول أعمق معانى الحياة الإنسانية. وعلى ذلك فقد مس أيضًا منطقة التساؤلات الدينية. ليس من المبالغة القول بأن الثورة الداروينية، كانت السبب المباشر لبداية هذا الانتشار القوى، لفهم تاريخ الغرب فى صورة حرب بين العلم والدين. أوضح وايت هذه العلاقة (انظرالاقتباس الذى

ورد سابقًا) فى مقولته عن أجاسيز (مؤسس المتحف الذى أعمل به حاليًا، والمحاضر الزائر بجامعة كورنيل). علاوة على ذلك، فإن الفصل الأول من هذا الكتاب يعالج موضوع الصراع حول التطور، فى حين يبدأ الفصل الثانى بأسطورة الأرض المسطحة.

يتشبث درابر أكثر برداء الداروينية، فيسجل فى نهاية مقدمته، خمسة نماذج بارزة فى مسيرة تاريخ معركة العلم مع الدين: الحط من قدر المعرفة التقليدية وبداية انتشار عصور الظلام؛ وازدهار العلم فى ظل الإسلام المبكر، ومعركة جاليليو مع الكنيسة الكاثوليكية، وعصر الإصلاح (وهى نقطة تحتسب لصالح درابر المناهض للكاثوليكية)، وأخيرًا الصراع من أجل الداروينية. إضافة إلى ذلك فلا يوجد من يستطيع ادعاء الفضل الشخصى وريادته فى هذا المجال، أكثر من درابر، فقد كان شاهدًا - دون إرادته - بل يمكننا القول إنه كان محرضا - على أكبر الأحداث شهرة، فى الصراع المكشوف بين داروين واللاهوت. لقد سمعنا كلنا بقصة المشادة الحامية المشهورة بين القس ويلبرفورس Wilberforce و ت. هـ. هاكسلى T. H. Huxley فى عام ١٨٦٠، التى دارت أثناء اجتماع الرابطة البريطانية، واستعملت فيها اللكمات. لكن كمًا من الناس يعلم أن الألفاظ النارية المستعملة، لم تكن ضمن برنامج الاجتماع، ولكنها جاءت فى أعقاب المحاضرة الرئيسية فى تلك الجلسة، وألقاها صاحبنا نفسه الدكتور درابر، بعنوان "التطور الثقافى فى أوروبا، فى ضوء آراء السيد داروين".

يسمح لنا هذا الارتباط بين النزاعات حول الداروينية، والنموذج الخرافي الذي شيده درابر ووايت بين العلم والدين - النموذج الذي يكشف بكل تأكيد عن أهمية سيادة مبدأ الأروقة- بالانتقال الهادئ لمناقشة ما لا يمكن تفاديه، ممثلاً في أقوى الصراعات الدائرة حاليًا في أمريكا، بين المجتمع العلمي والمزاعم المرفوعة باسم الدين - دامت المحاولات والنزاعات التي بدأها المتطرفون الدينيون، لمنع تدريس التطور في المدارس الحكومية الأمريكية، لأكثر من سبعين عامًا؛ حيث يطالبون المدارس بتخصيص وقت مساو لتدريس "الخَلق"، كما جاء حرفيًا في الإنجيل (الذي ينص على أن عمر الأرض لا يزيد عن عشرة آلاف سنة) في أي فصل يقدم شيئًا عن التطور. إذا كانت هذه المعركة لعبت دورًا بارزًا في تاريخ أمريكا الحضاري في القرن العشرين، واستنفدت بالإكراه وقتًا ثمينًا من كثير من العلماء (بما فيهم أخوكم المخلص)، في حملات سياسية ناجحة؛ من أجل الإبقاء على التعديل الدستوري الأول(٧٣)، ورفض تقنين تخصيص التدريس الرسمي للمهاترات الواضحة، وإلا فلن يمكن الدفاع عن الأروقة، أو اعتبارها أكثر من مجرد أوهام، في عالم فاضل خيالي .

الدفاع الآن عن الأروقة من الجانبين:

الصراع ضد مذهب الـ "خَلق" الحديث.
الخَلقية: انتهاك أمريكى صريح للأروقة

تدعم أسطورة كولومبس والأرض المنبسطة، مسألة الأروقة بأسلوب عكسي؛ حيث تبين كيف يقوم الخصم فى الصراع بين العلم والدين بابتكار معارك، لم يكن لها وجود فى الأساس، ولكنها تنشأ فقط كاستدلال ضرورى نابع من النموذج الخيالي. كذلك لم يدَّعِ أى من الأساتذة المسيحيين، بوجود أرض منبسطة، بعكس ما تدل عليه نتائج العلم ومعرفة الأوائل، ولم يخض كولومبس أية معركة مع السلطات الكنسية بشأن هذا اللا موضوع. أما أنصار مذهب الخلق(٧٤) الحديثون، فقد فعلوا، وهم بذلك يدعمون مبدأ الأروقة بمثل إيجابى، بشأن المبدأ الذى تنشأ على أساسه كل المصادمات بين العلم والدين، إنه انتهاك الأروقة. ذلك عندما تحاول مجموعة صغيرة منتمية إلى أحد الأروقة، فرض إرادتها اللا شرعية وغير ذات الصلة بالموضوع، على المجال الآخر. وفى واقع الأمر لا تضع الصراعات التاريخية الفعلية العلم ضد الدين، إنما تمثل فقط استعراضًا للقوة من جانب بعض

المتطرفين المنتمين رسميًا إلى أحد الجوانب، الذين يحاولون فرض آراء أقليتهم الشاذة على الرواق الآخر.

تمثل السيرة الطويلة لمحاولات أنصار الخلقية لحظر تدريس التطور، أو لفرض نظرتهم الخاصة المتطرفة عن تاريخ الحياة، على مناهج المدارس العامة، واحداً من أكثر ما يميز مراحل التاريخ الثقافى لأمريكا فى القرن العشرين، وأكثرها إثارة للاهتمام، وأطولها بقاءً. تبدأ الرواية بداية عاصفة، بشخصيتين بارزتين متألقتين فى العشرينيات من القرن الماضى، وتشمل أيضًا نهاية مرضية، فى صورة قرار المحكمة العليا المناسب فى عام ١٩٨٧، لم تنته بذلك المعركة الكبرى، فالآن وبعد أن حال التعديل الدستورى الأول، دون إنجاز خطتهم الهادفة لفرض الخلقية عن طريق قانون الولايات، انتقل ميدان الصراع، ولجأ المتطرفون إلى ميدان آخر لفرض إرادتهم وتفاهاتهم.

أرجو ملاحظة أنى أناقش فقط مرحلة تاريخية بعينها، متمثلة فى محاولة المتطرفين فرض الخلقية على مناهج المدارس العامة، عن طريق سلطة القانون، ولا أناقش كل جوانب الفروق الدقيقة المندرجة تحت لفظ "الخَلقية"؛ حيث إن بعض الآراء الشخصية المنفردة للخلق، تستقر تماماً داخل روح الأروقة، ولا علاقة لها بما نحن بصدده؛ مثل الاعتقاد بأن الله يعمل من خلال قوانين التطور، عبر الزمن الممتد والمحدد بشكل واضح، من خلال نتائج الدراسات الجيولوجية، وأن هذا النمط يمكن احتسابه شكلاً من أشكال الخلق.

إقرارًا للواقع وليس بالضرورة أن يكون متمشيًا مع المنطق، فإن النشطاء فى حركة الخلق من المعارضين لتدريس التطور، هم أنفسهم المتطرفون من أنصار حركة "الأرض الفتية[٧٥]" (young-earth)، الذين يعتقدون بوجوب الالتزام والإيمان بالحقيقة الحرفية للإنجيل، وأن عمر الأرض لا يمكن أن يزيد عن عشرة الآلاف سنة، وأن الله خلق كل الأنواع الحية بطريقة مباشرة من العدم، وفى ستة أيام كل منها ٢٤ ساعة بالتمام. ثم يبدى هؤلاء الناس نوعًا من العجرفة الفارغة (أو قد يكون من باب الجهل المطبق)، بمساواتهم تلك المزاعم التافهة، التى ثبت عدم صحتها منذ زمن بعيد، بكل محيط " الدين".

لا اعتراض عندى إذا اعتقد هؤلاء المتطرفون وجوب تدريس تعاليمهم داخل البيوت أو فى الكنائس، لكن ليس فرضًا بالقوة على المدارس العامة. وكلى ثقة من خطئهم بشأن حساب عمر الأرض وتاريخ الحياة، وسأكون سعيدًا أن أعارض وأجادل أى مؤيد منهم، إذا كان متمتعًا بعقل متفتح حول هذه الموضوعات (وهى بضاعة ليست رائجة داخل تلك الحركة). يعلم الله أن من حقنا فى ظل الديمقراطية أن نخطئ، بل وأن نكون أغبياء، وبناءً على ذلك، فليست لدى أية مشكلة مع أكبر تجمعات الخلقانيين وأكثرهم نفوذًا فى أمريكا - شهود يهوذا - فهم لا يحاولون فرض معتقداتهم الدينية على المناهج العلمية فى المدارس العامة، كما أنهم يوافقوننى الرأى بأن المكان المناسب لتعليم معتقداتهم العنترية، إنما يكون فى الكنائس والبيوت. وبمعنى آخر، فإن

صراعنا مع الخلقيين هو- فى جوهره - صراع سياسى محدد، وليس صراعًا دينيًا بأية حال من الأحوال، ولا حتى ثقافيًا بأى معنى أصيل (أعتذر عن حدتى، لكن مذاهب الخلق والأرض الفتية، لا تقدم شيئًا له أى وزن ثقافى أستطيع رؤيته، وكل ما فى الأمر مجرد خليط من المزاعم مكانها السليم فى رواق العلم، وتم إثبات عدم صحتها ورفضها منذ أكثر من قرن مضى).

قبل أن أقدم نبذة تاريخية صغيرة، سأقوم بتلخيص خصائص معركتنا المعاصرة مع الخلقية فى مقترحين:

١- لا يمكن النظر بعين الاعتبار إلى شرعية محاولات الضغط المستمرة من قبل أنصار الأرض-الفتية الخلقيين (Young-earth Creationists)، من أجل حشر منظومة أقليتهم العنترية العقائدية، فى مناهج تدريس العلوم فى المدارس العامة الأمريكية، أو اعتبارها حلقة من سلسلة الحرب المفترضة بصفة عامة بين العلم والدين. فإن كان ولابد من تقسيم المسألة، فيجوز تحديد الجانبين بصفة كل منهما، إما مدافعون عن الأروقة وإما مناهضون لها؛ بمعنى وقوف حماة التعديل الدستورى الأول بالفصل بين الكنيسة والدولة، فى مواجهة الدينيين من أنصار الدولة الدينية، الذين يودون دمج يقينهم بالخط السياسى الرسمى للدولة، أو بكلمات أكثر عمومًا؛ ليكونوا مدافعين عن حق التساؤل والبحث، وحق المدرسين فى تقديم أفضل مفاهيمهم للموضوعات فى ضوء تجربتهم، فى مقابل وضع المناهج عن طريق المشاعر والمعتقدات المحلية (أو بواسطة

القادرين على إصدار أعلى الأصوات، أو كسب أية قوة مرحلية)، بغض النظر عن حالة العلوم الطبيعية أو خبرات الأساتذة.

على أية حال لقد اخترنا أن نحلل هذا التناقض. لا يمكن - بناءً على أهم المعايير الأساسية للأدلة التجريبية - وصف الطرفين وتسميتهما علمًا ودينًا، فالغالبية العظمى من رجال الدين المحترفين وأساتذته، يقفون في جانب الغالبية العظمى نفسها من العلماء؛ كمدافعين عن الأروقة وعن التعديل الإصلاحي الأول للدستور، ومناهضين لفرض أي مذهب عقائدي معين، خاصة مثل ذلك الذي يتبناه قلة المغاوير، على مناهج تدريس العلوم للمدارس العامة. فعلى سبيل المثال، تم رفع قائمة طويلة من الدعاوى القضائية، ضد قانون ولاية أركنساس بشأن مسألة الخلق، في عام ١٩٨٠، ضمت القائمة بعض العلماء والمعلمين، وحتى بعض رجال الدين الرسميين من مختلف الأديان الكبرى، بالإضافة إلى أساتذة الدين.

٢- هذا الخلاف محلي وخاص بأمريكا بالتحديد، تمامًا مثل فطائر التفاح والعم سام؛ فلا تواجه أية دولة غربية أخرى مثل هذا الكابوس، كحركة سياسية جادة (باستثناء قلة هامشية لا حول لها ولا قوة). وتنشأ حركة فرض الخلقية على مناهج تدريس العلوم في المدارس العامة، من مجموعة تناقضات أمريكية مميزة، كتعبير نابع من واقع الخصوصيات الأمريكية لأمور عامة مثل، الشمال في مواجهة الجنوب، الريف ضد المدينة، الغني ضد الفقر، والحكم المحلي في مقابل المعايير الفيدرالية.

علاوة على ذلك، فلا يمكن أن يؤيد أنصار الأرض- الفتية الخلقيون، إلا من نسميهم المتطرفين، الذين يأخذون بالمعنى الحرفى لكل كلمة جاءت بالإنجيل، وهو معتقد هامشي بالنسبة إلى كل الديانات الغربية العظمى فى هذه الأيام، ولم يتطور المذهب بهذا الشكل، إلا فى المناخ المميز للكنيسة البروتستانتية التعددية الأمريكية. كما أنه ليس لهذا المنظور المتطرف أى معنى فى أى دولة مسيحية؛ حيث لم تحدث أبداً عادة قراءة الإنجيل والأخذ بمعناه الحرفى (إن كانوا يقرءونه على الإطلاق لهذا السبب). على الرغم من تقديس عادات اليهود بمن فيهم من أصوليين للتوراة باعتبارها ممثلة لكلمات الله الخالصة، وغير قابلة للتغيير أو التبديل، ولا فى أصغر حرف فيها، إلا أنه يندر أن تجد من بين المتفقهين، من يأخذ بتفسير هذا النص الثابت حرفياً(٧٦).

أكدت البروتستانتية على أهمية الدراسة الشخصية للإنجيل، مع إيجاد التبرير الملائم عن طريق الإيمان، بدلاً من اللجوء إلى القديسين وتفسيرات القسس، وعلى أساس مثل هذه الممارسات يصبح لـ " حرفية " معنى معقول. من ناحية أخرى، فإن الغالبية العظمى للبروتستانت المعاصرين، لا تفضل قراءة النصوص المقدسة بهذا الأسلوب الجامد، الذى لا يعطى مساحة كافية للحركة، خاصة فى بلدان أوروبا حيث تقل التشعبات، كما أن معظمها من الأنماط الحرة. فى المقابل تشعبت البروتستانتية الأمريكية إلى قطاعات كثيرة بطريقة فريدة، لتضم جميع أشكال العبادة والتدين، يتبع معظمها - بطبيعة الحال - الأساليب

المجازية والروحية نفسها فى القراءة، تمامًا مثل جيرانهم الكاثوليك واليهود، إما للدلالة على التقسيمات المميزة التى سبق ذكرها، فنجد أن بعض المجموعات الصغيرة – خاصة من بين فقراء الريف فى الجنوب – شقت طريقها الغائر ضد كل "الحداثة"، مع التمسك بقراءاتهم الحرفية غير القابلة للتغيير، ولا حتى للمناقشة، وقد يقول أحدهم: "أعطنى هذا الدين القديم، لقد كان جيداً لأجدادى، وهو جيد لى". (انطلاقًا من جهلى الشخصى، فلن أتعرض هنا للممارسات الإسلامية، أو الديانات الأخرى غير السائدة فى الغرب).

أود تسجيل مثال واحد عن نموذج التطرف المميز فى أمريكا، نظراً إلى البلبلة التى يثيرها الخلقيون فى باقى العالم المتدين، نزلت مرة بفندق كازا ديل كليريكو فى روما، وهو فندق يديره الفاتيكان، وغالبًا ما يؤمه الرهبان المرتحلون. دعتنى فى يوم من الأيام مجموعة من اليسوعيين الفرنسيين والإيطاليين للحديث ونحن فى غرفة الطعام، وهم من العلماء العاملين، حضروا إلى روما للمشاركة فى أحد المؤتمرات عن العلم والكنيسة، كانوا قد قرءوا عن تزايد " الخلقية العلمية" "Scientific creationism" فى أمريكا، وكانوا فى شدة الحيرة، حيث ظنوا أن التطور قد ثبت بشكل قاطع، ولا يمثل بأية حال أى تعارض أو تحدٍ للدين (سواء فى رأيهم الشخصى أو بإعلان البابا، (كما سبق ذكره) فسألوا بلهجاتهم عما يحدث فى بلدى : هل نمت وترسخت فعلا القواعد العلمية، لمطالبات أنصار "الأرض-الفتية الخلقيين"؛ وبواسطة عامتهم

وليس عن طريق العلماء؟ ثم اندمجنا في حوار من أروع ما يكون بلغات ثلاث، لما يقرب من نصف الساعة، أفدتهم خلاله بعدم وجود أدلة جديدة (ولم تكن يومًا)، وأن الظاهرة برمتها سياسية ومتفردة في أمريكا. افترقنا وهم راضون ولديهم تفهم أفضل للمتاهة التي تمثلها أمريكا مقارنة بباقي العالم.

مشاكل فى بيتنا الخاص:

عرض قانونى موجز من سكوبس[٧٧] إلى سكاليا[٧٨]

قد تكون حركة التطرف قديمة قدم أمريكا نفسها، ولابد أن تكون معارضة تدريس التطور قديمة منذ داروين نفسه. لم يكن لهذه الحركة المحلية الهامشية العقيمة سياسيًا، أن تحشد بعض الخِرق المهملة المحلية، حتى يكون لها أى وزن قانونى، حتى جاء واحد من أبرز الرجال فى تاريخ أمريكا، ويليام جينجز برايان[٧٩] William Jennings Bryan (سيأتى ذكره فيما بعد) وقرر أن يسجل آخر صيحات انتصاراته فى هذا المجال. أعطى برايان لحركة الخلقيين النفوذ والاتصالات. أجازت عدة ولايات جنوبية قوانين ضعيفة جداً ضد مسألة التطور فى بداية العشرينيات، فمثلاً اعتبرتها قوانين ولاية تينيسى[٨٠] جريمة، إذ قام أحدهم بتدريس انحدار الإنسان من أصل أدنى منه مرتبة من الحيوانات"، مما أصاب الأمريكيين الأحرار، ومنهم كثير من رجال الدين - بالارتباك والحرج، حيث أُخِذوا بغتة بسرعة نجاح هذه الحركة. وفى تحدٍ لمدى دستورية هذه القوانين، قام اتحاد الحريات المدنية الأمريكى

بإثارة قضية سكوبس المشهورة، بمدينة دايتون بولاية تينيسى فى عام ١٩٢٥، كان سكوبس شابًا من ذوى التفكير الحر، وكان معروفًا بين طلابه، وكان غالبيتهم من المتطرفين. عمل مدرسًا للفيزياء ومدربًا رياضيًا فى المدرسة الثانوية المحلية، حيث حل محل المدرس الأصلى لعلم الأحياء المتطرف، لغيابه بسبب المرض. تحدد له تدريس التطور، من واقع فصول الكتاب الذى اختارته المدرسة (كتاب علم الأحياء المدنى **A Civic Biology** لمؤلفه جورج ويليام هنتر **(George William Hunter**، رضى سكوبس بالقيام بدور فأر التجارب، من أجل اختبار مدى دستورية قانون ولاية تينيسى الجديد، المعادى للتطور. أما باقى الرواية، فمجرد تاريخ، تم انتقاؤه وتشويهه لمعظم الأمريكيين، من خلال الرواية المسرحية "أرث الريح" **Inherit the Wind**، التى ألفها عام ١٩٥٥ كل من جيروم لورنس وروبرت إدوين لى **Jerome Lawrence & Robert Edwin Lee**، وقام بالأدوار فيها نخبة من أرفع الممثلين فى أمريكا، فى عدد من العروض المختلفة (كان لى حظ كبير عندما كنت صبيًا، أن أشاهد الممثل الكبير بول مونى **Paul Muni** فى نهاية مشواره الفنى، وهو يقوم بدور كلارنس دارو(٨١) **Clarence Darrow**، فى العرض الأصلى الذى عرض فى برودواى. وشاركه الممثل القدير أيضًا إد بيجلى **Ed Begley**، فى دور ويليام جينجز برايان، كذلك أُنتج فيلمان لعب سبنسر تراسى **Spencer Tracy**، دور دارو ولعب فريدريك مارش **Fredric March** دور برايان فى أحدهما، وفى الثانى لعب كيرك دوجلاس **Kirk Douglas** دور

دارو وقام جاسون روباردز Jason Robards بدور برايان، في النسخة التي أعيد تجهيزها للتليفزيون.

بعكس ما تظهره الرواية، فإن سكوبس لم يحاكم بواسطة حاملى الإنجيل، كما أنه لم يقض ثانية واحدة فى السجن. كانت للمحاكمة لحظاتها الملحمية، خاصة عندما قام برايان فى خطابه الأساسي، بإنكار انتماء الإنسان إلى الثدييات؛ كذلك - في أكثر المشاهد شهرة - عندما جمع القاضى رولستون Raulston هيئة المحكمة فى الحديقة (حيث ارتفعت درجة الحرارة في ذلك اليوم بشكل غيرعادي؛ مما تسبب فى تشقق السقف فى الطابق الواقع أسفل قاعة المحكمة المكتظة)، كما سمح لدارو باستجواب برايان كشاهد للدفاع. على أية حال لا يكفى النظر إلى المحاكمة كمجرد صراع ملحمى بين بعض المهللين من فرسان الظلام وبين الفضيلة المشرقة. بغض النظر عن الجهد المبذول لإبراز تلك الرؤية، سواء كان فى رواية "أرث الريح" أو من واقع التقارير المشهورة لـ هـ. ل. مينكين[٨٢] (H. L. Mencken) الذى حضر المحاكمة، وأقل ما يمكن أن يقال، إنه أبدى أقل احترام لـ برايان، الذى أطلق عليه التعبير الساخر: "البابا العلبة فى حزام الكوكاكولا"[٨٣]
(A tinpot pope in the Coca-Cola belt)

تم استخدام سكوبس لمهمة معينة، من قبل كل من اتحاد الحريات المدنية الأمريكي؛ والمتطرفين بمدينة دايتون، الذين رأوا فى المحاكمة فرصة لا تعوض، لوضع مدينتهم الصغيرة على الخريطة[٨٤]، وليس من

منطلق الاضطهاد. على أية حال، رغب الاتحاد في إجراءات سريعة وإدانة مؤكدة، وليس لهدف الدعاية (شدت المحاكمة انتباه أجهزة الإعلام، وأذيعت جلساتها على الهواء مباشرة عن طريق الإذاعة[٨٥]، وعلى ذلك يمكن النظر إليها كبداية لمسار مفضٍ إلى الشهرة، مثل محاكمة أو. ج. سيمبسون[٨٦] (O. J. Simpson) أو إلى غير ذلك من مظاهر الترف المشكوك في فائدتها. لم يملك القاضي السلطة القانونية اللازمة لتقرير مدى دستورية حكمه، وعلى ذلك، تراءى لاتحاد الحريات المدنية الأمريكي أن يحصل على حكم إدانة دون مشاكل، حتى يرفعه بعد ذلك إلى محكمة أعلى. من المحتمل أنهم أحبوا كلارنس دارو كشخص، ولكنهم بالتأكيد كرهوا وجوده في مدينة دايتون أشد الكره، على أية حال، فعندما أعلن برايان عن اشتراكه في المحاكمة، كممثل للاتهام بولاية تينيسي، بهدف استئصال جذور الشيطان من دايتون، أصبح الأمر محسوماً، وبات من المستحيل رفض العرض المقابل، المقدم من "دارو" غريمه في المحاكمة[٨٧].

لا شك في جودة تسجيل الوقائع، لكن أسيء فهم الاستنتاجات في معظم الأحوال. استدعى دارو عدة علماء بارزين للشهادة، ورفض القاضي السماح لهم باعتلاء المنصة للشهادة؛ لكنه بفعله هذا، كان يتخذ القرار السليم، بأن على محكمته الوصول إلى حكم بالبراءة أو الإدانة فقط، في ظل القانون المتاح، وليس للمحكمة أن تنظر في مدى شرعية القانون نفسه أو دستوريته. بناءً على ذلك، تصبح شهادة الخبراء حول

صحة التطور وأهميته، غير ذات موضوع. فى السياق نفسه، لم يفهم المؤرخون السبب فى المفارقة الظاهرية بسماح القاضى رولستون فى المقابل لـ برايان، بالمثول كشاهد للطرف الآخر (الدفاع) بصفته خبيراً. تم تحليل هذا الفصل المهم بطريقة خاطئة، فأولاً استبعد القاضى فيما بعد، مجمل الشهادة من سجل المحاكمة، ثانياً من الجائز أن دارو تقدم قليلاً فى البداية، إلا أن برايان أبلى بلاءً حسناً وتخلص ببراعة، ولم يحرج نفسه. أما اللحظة التى توجت المشهد كله فكانت حين أجبر دارو برايان على الإقرار بأن أيام الخلق ربما تكون أطول من مجرد ٢٤ ساعة، فقد مثلت إفصاح برايان بمطلق الحرية عن معتقداته الشخصية المعروفة (لم يكن أبداً من الآخذين بحرفية النصوص)، تحت وطأة استجوابات دارو.

لإصلاح الجزء الأخير المتعلق بأكثر وقائع المحاكمة شهرة، فقد توفى برايان بعدها بحوالى أسبوع، عقب وجبة عشاء رسمية بالكنيسة نتيجة هبوط فى القلب، وليس بصورة مأسوية داخل قاعة المحكمة (كما قد يذهب الخيال لإتمام الحبكة وضمان التأثير على الجمهور). على أية حال يقع أكثر الأمور أهمية، فى الخلط وسوء فهم الحكم نفسه، وما تلاه من تاريخ حركة الخلقية. فقدمت رواية "أرِث الريح" الموضوع، فى شكل انتصار الفكر الحر على المنظومات الجامدة، كما جرت العادة بين العامة علىّ النظر إلى المحاكمة، كانتصار لقضيتنا. أما فى واقع الأمر، فلم تكن العواقب القانونية إلا كارثة، فقد أدين سكوبس ولا غرابة فى ذلك،

لكن الموضوع تحول إلى مجرد جدل قانوني - غير قابل للاستئناف- بسبب خطأ القاضى الذى أمر بتغريم سكوبس مبلغ مائة دولار (كما ينص القانون الخاص بمسألة الخلقيين)، هذا فى الوقت الذى ينص فيه قانون ولاية تينيسى، على حق القاضى فى التغريم بحد أقصى ٥٠ دولاراً، وما يزيد عن ذلك، فيجب الرجوع فيه إلى هيئة المحلفين قبل إقراره (لعل بلدة هادئة صغيرة مثل دايتون، لم يسبق لها تغريم أى شخص أكثر من ٥٠ دولاراً لأى سبب كان، ولعل القاضى قد نسى هذه الجزئية من القانون غير المستعمل). على أية حال أعطى هذا الخطأ مبرراً قوياً لعدم الاستعانة مستقبلاً بمثيرى الزوابع من خارج الولاية، كممثلين وحيدين فى المحاكمات المحلية. أما هيئة الدفاع بقيادة دارو والمحامى دادلى فيلد مالون Dudley Field Malone من نيويورك، فلم تضم أحداً ممن لهم دراية كافية بالمجتمع المحلى، ليحتج على القاضى ليضمن سلامة الإجراءات.

رفضت إدانة سكوبس بسبب خطأ فى الإجراءات، وهى النتيجة التى يجرى تصويرها كانتصار، لكنها - فى حقيقتها - هزيمة إجرائية مرة، أعاقت الوصول إلى الهدف الحقيقى من الموضوع برمته، ألا وهو اختبار مدى دستورية القانون. وأصبح من الواجب إعادة جميع الإجراءات، بما فى ذلك إعادة محاكمة سكوبس، فى حالة الرغبة فى الوصول بالقضية إلى المحكمة العليا المناسبة، لكن التاريخ لا يعود إلى الوراء، فقد توفى برايان والتحق سكوبس بجامعة شيكاجو لدراسة علم

طبـقــات الأرض، ولـم تكن لديه أدنـى رغـبــة فى عــودة النظر إلى هذا الفاصل من حياته (يتميز سكوبس بشـخصية متواضـعة جداً، وهو رجل شريف نجح بعد ذلك فى العمل فى مـجال البـترول بمدينة شـريفـبورت Shreveport بولاية لويزيانا. كما أنه لم يسعَ أبداً لتحقيق أى مكسب، مما اعـتـبره مـجرد شـهرة عابرة، ولم يتردد يوماً فى الدفـاع عن حـرية الفكر وحقوق المدرسين).

بقى قانون ولاية تينيسى بالتبعية (وقوانين أخرى مماثلة فى ولايات أخـرى) فى طـىِّ الكتب، التى لم يجـر تفـعـيلهـا بأى شـكل، ولكنهـا تقف دائماً مشـهرة فى وجه تدريس علم الأحياء بالأسلوب السليم. استسلم الناشرون - وهـم الجناح الأجبن فى صناعة الطباعة - فإما استغنوا عن ذكـر التطور، وإمـا خـصـصـوا له جزءاً بسيطاً فى نهـاية بعض الكتب. مازلت أمتلك نسخة من الكتاب الذى استعملته حين كنت تلميذاً فى عام ١٩٥٦، فى مـدرسـة عـامـة فى مـدينة نيـويـورك، وهو كـتـاب حـر يتناول مـوضـوع التطور بلا خـجل ولا ندم. انتشـر ذلك الكتـاب وسـاد الأسـواق فى حينه، ومـنه تعلم أكثر من نصـف تلاميذ المدارس الثانوية الأمريكية (كتـاب علم الأحيـاء الحديث لمؤلفيه موون، و مان، وأوتو Modern Biology by Moon, Mann and Otto)

احتل التطور ١٨ صفحة فقط، من الكتاب المكون من ٦٦٢ صـفـحـة، وجاء فى الفصل الثامن والخمسين من مجموع فصول الكتاب، البالغ عـددهـا سـتـيناً (يذكـر كـثـير من القـراء حـقـائق أيام المدرسـة الثـانوية،

وسيتذكرون من فورهم ندرة الوصول إلى هذا الحد فى أى فصل فى المدارس). علاوة على ذلك فالنص خالٍ تمامًا من ذكر التطور صراحة، ويستعيض عن ذلك بالإشارة إلى نظرية داروين، على أنها "فرضية نمو الأعراق". من باب المقارنة، نجد الطبعة الأولى من الكتاب نفسه، الصادرة فى عام ١٩٢١، أى قبل محاكمة سكوبس وبها صورة داروين متصدرة غلاف الكتاب (قد تم استبدالها فى الطبعات التالية ١٩٥٦)، بصورة بعض الحيوانات النادرة)، ويحتوى على عدة فصول تتناول موضوع التطور كحقيقة علمية ثابتة، وبأنها الخلفية العامة المنظمة لكل علوم الأحياء.

استمر هذا الموقف المحزن حتى عام ١٩٦٨، عندما طعنت سوزان إيبرسون (Suzan Epperson) – المدرسة الشجاعة من ولاية أركنساس – فى أحد القوانين المماثلة أمام المحكمة العليا، وانتزعت حكمًا طال انتظاره، بعدم دستوريته على أساس تعارضه مع التعديل الدستورى الأول (عقب إلقائى محاضرة فى مدينة دنفر العام الماضى، جاءت إلىّ سيدة لطيفة وشكرتنى على ما أقوم به من عمل فى محاربة الخلقية، ثم عرفتنى بنفسها " سوزان إيبرسون". حضرت بصحبة ابنتها التى تدرس علم الأحياء التطورى، وحظيت بقدر وافر من شجاعة أمها، لم أتمكن من الرد بغير قولى، إن الشكر الحقيقى يجب أن يكون لها).

لا شىء يمكن أن يوقف مؤمنًا حقيقيًا، فقد تجمع الخلقيون مرة أخرى وعادوا للكفاح بأسلوب جديد، يستهدف تخطى المشاكل

الدستورية. كانوا دائمًا يتباهون بنظامهم البديل، والإشارة إليه بأنه لاهوتى صريح، ومؤسس دينيًا على القراءة الحرفية للإنجيل. أما الآن فقد عدلوا نصوصهم، وابتكروا تعبيرهم الجامع للمتناقضات، "علم الخلق" Creation Science، بما يشير إلى عكس كل تصريحاتهم السابقة، فيبدو وكأنه ليس للدين ثقل حقيقى بالنسبة إلى الموضوع، حيث يقولون بأن الاكتشافات العلمية الخالصة الآن، إنما تنم عن عالم واقعى، ووجدت - هكذا - متفقة تمامًا مع حرفية سفر التكوين. إذا حدث فى عالم الخيال، أن اجتمع كل العلماء المدربين المحترفين، واتفقوا على عدم منطقية هذه المقولة، وأنها نابعة إما من جهل مطبق وإما كمراوغة صريحة، فلنا ساعتها أن نستنتج أن فريق العلماء هذا، لا يعرف حدود تخصصاته، فى هذه الظروف، يصبح التدخل القانونى ضرورة ملحة.
علاوة على ذلك، يسترسل الخلقيون: من الآن لن نطالب المدارس بحظر تدريس التطور (انتهت محاولاتهم بفشل ذريع بعد قرار إيبرسون)، نحن نطالب الآن بإتاحة وقت مماثل فقط لتدريس (علم الخلق)، فى أى فصل دراسى يدرس التطور (ومن البديهى أنهم إذا قرروا عدم تدريس التطور من أساسه، فنحن هنا).

مهما بدت هزلية هذه الحوارات، ومهما كان أسلوبهم المتواضع واضحًا، كوسيلة لإخفاء الهدف الحقيقى (فرض المنهج الدينى المتطرف) فى رداء جديد ولغة جديدة، حتى يمكن اجتياز الحاجز الدستورى، فقد أجازت ولايتان قانونًا مشابهًا لـ "الوقت المساوى"، فى نهاية السبعينيات

هما ولايتا أركنساس ولويزيانا. قام تجمع مكون من اتحاد الحريات المدنية الأمريكي وعدد من المنظمات المهنية، سواء العلمية أو الدينية، بالطعن في قانون ولاية أركنساس، في محاكمة أسمتها أجهزة الإعلام "سكوبس ٢"، أمام القاضي الفيديرالي وليام ر. أوفرتون William R. Overton، بمدينة ليتل روك في ديسمبر ١٩٨١، أوضح القاضي أوفرتون في قراره المنحوت بعناية، مفهوم وروح العلم، والدور السليم للدين، وتولت مجلة ساينس Science - إحدى أبرز المجلات العلمية في العالم - نشر النص حرفيًا، وصدر الحكم بعدم دستورية قانون الوقت المساوي في يناير ١٩٨٢ .

انتقلت بعد ذلك ولاية أركنساس إلى القيادة المتحررة لـ بيل كلينتون، وقررت عدم استئناف الحكم. بالمثل تخلص قاض فيديرالي آخر من قانون ولاية لويزيانا، مستنداً إلى قطعية حكم أركنساس. لكن ولاية لويزيانا استأنفت الحكم ورفعت الأمر إلى المحكمة العليا، في القضية المعروفة باسم إدوارد ضد أجيلارد(٨٨) Edward v. Aguillard، حيث انتصرنا في عام ١٩٨٧ نصراً نهائيًا، بأغلبية ٧ أصوات ضد ٢ (وكان الصوتان - غالبًا - لكل من رينكويست Rehnquist وسكاليا Scalia في المعارضة، مع احتمال حصولهم على صوت ثالث لتوماس، ولكنه لم يحضر الجلسة).

قدمت بشهادتي في محاكمة أركنساس، كواحد من الشهود الخبراء في علم الأحياء وفلسفة العلم واللاهوت. حيث تركزت شهادتي

فى عرض التشويه الذى يقوم به الخلقيون، للأعمال العلمية عبر الزمن الجيولوجى، وثبوت التحولات التطورية من سجل المستحاثات (الحفريات). أما شهادتى أثناء الاستجواب، فقد جاءت روتينية محضة (أدى المدعى العام لولاية أركنساس دوره بكفاءة عالية، فقد التزم بواجبات وظيفته، ودافع عن قانون يعتبره هو شخصيًا قانونًا سخيفًا ومخجلاً لولايته؛ لذا لم يدافع عنه بقلبه).

بالمناسبة، لم نحاول كمجموعة أن نثبت مسأله التطور فى شهاداتنا، فقلما تكون قاعات المحاكم مناسبة، لتوضيح وضع مثل هذه المسائل (التطور) فى رواقها الصحيح (العلم). تركزت جهودنا لتحديد الهدف القانونى الوحيد المواجه لنا - وهو إثبات أن "علم الخلق" ما هو إلا ستار من دخان - وذلك باستعراض وتحليل نصوصهم ونشاطاتهم الأخرى، وأن "علم الخلق" تعبير متناقض، بلا معنى، تم ابتكاره كأسلوب جديد للتمويه، كمن يُلبس الذئب العجوز ثياب الحملان، تمشيًا مع حرفية نص سفر التكوين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى قضية إيبرسون وتعريفه بالمذهب اللاهوتى الشارد، ولا يمت إلى العلم بأية صلة، كما أنه انتهاك صريح للتعديل الدستورى الأول، الذى ينص على الفصل بين الكنيسة والدولة، إذا ما طبق قانونًا على مناهج التدريس فى المدارس العامة.

لا أستطيع ادعاء أن المحاكمة كانت قمة التوتر فى حياتى. ولم يكن هناك كثير من الشك فى النتيجة واحتفلنا بانتصارنا فى اليوم التالى،

بعد المحاكمة التي دامت أسبوعين. ليس من طبعي السخرية ولا التهكم، وأتوقع أنه حين يحين الحين لأردد بعض التراتيل الدينية، مثل تراتيل الشكر مثل "نانك ديميتيس" Nunc Dimittis، أو بعض طقوس الصلاة مثل "شما يسرويل" Sh'ma Yisroel، فسأذكر ضمن مسببات فخرى، حقيقة انضمامى إلى مجموعة من الأساتذة، لأمثل الحالة الفريدة في التاريخ، كشاهد خبرة أمام القضاء، من خلال هذه الواقعة المثيرة فى تاريخ أمريكا الحضارى. أقصد المعركة القضائية بشأن الخلقية، والتى استعرت منذ سكوبس١٩٢٥، إلى إدوارد ضد أجيلارد ١٩٨٧ (يذكر أن القاضى رولستون لم يسمح لشهود الخبرة الذين دعاهم "دارو"، بالشهادة فى قضية سكوبس، أما تمرير قانون ولاية لويزيانا، فقد تم كحكم استخلاصى(٨٩)، ولم يتعرض للمحاكمة، ولم تستغرق مناقشاته الفعلية أمام المحاكم العليا سوى ساعة واحدة، ولم تتضمن الاستماع إلى شهود). أسعدنى جداً كما أنه كان امتيازاً بالنسبة لى، أن أؤدى دوراً صغيراً فى رواية تاريخية، ضمت عمالقة كباراً مثل برايان ودارو.

كانت محاكمة أركنساس سهلة للغاية، ولكنها لفتت نظرى بشدة لكثرة رواياتها، سواء الهزلية أو الجادة، فكانت - برمتها - مفيدة للغاية ومثرية لمعرفتى؛ فأولاً، فيما يتعلق بالمشاهد المضحكة، أذكر واقعتين مفضلتين عندى، أذكر شهادة مدرس ثانوى، شرح كيفية استخدامه أحد التمارين، لينقل للتلاميذ مفهوم عمر الأرض الطويل؛ حيث كان يمد

خيطًا عبر الفصل، ثم يطلب من التلاميذ الجلوس على الخيط؛ فالتلميذ الأول يمثل بداية ظهور الحياة، ثم يوزع الباقين على أبعاد معينة تمثل المراحل المختلفة، حيث تأتى نهاية الديناصورات وبداية الإنسان فى نهاية الخيط وقرب الحائط. قام مساعد النائب العام أثناء الاستجواب، بإلقاء سؤال ندم عليه بعد ذلك، إذ قال: ماذا تراك ستفعل فى ظل قانون "الوقت المساوى"، إذا اضطررت لتدريس وجهة النظر البديلة، بأن عمر الأرض لا يزيد عن عشرة آلاف سنة؟! أجاب المدرس: "لعلنى أستعمل خيطًا أقصر". ضجت القاعة بالضحك، كان واضحًا أن الباعث على الضحك هو تلك الفكرة التى قفزت إلى ذهنى من فورى، بتصور هؤلاء التلاميذ العشرين وهم مضغوطون جميعًا، فى ملليمتر واحد من الخيط.

فى لمحة مؤثرة أخرى، أحضر الخلقيون- نظرًا إلى جهلهم بموضوع التطور- عالمًا رفيعًا من سريلانكا، اسمه شاندرا ويكراماسنجى Chandra Wickramasinghe، وكانت له اعتراضات على نظرية داروين (لكن لم يكن معارضًا للتطور، كما أنه لم يكن بالتأكيد من أنصار الـ "أرض-الفتية" الخلقيين وهى مميزات يبدو أنها تاهت تمامًا عن قواد هذا الفريق). سأله محاميهم: ما رأيك فى نظرية داروين ؟ فأجاب ويكراماسنجى بلكنة بلاده الإنجليزية القاطعة: "هراء" وعندما جاء دور محامينا لاستجوابه، سأله: وما رأيك فى فكرة أن عمر الأرض عشرة آلاف سنة فقط ؟ فأجاب باقتضاب شديد: "هراء أشد".

على متن الطائرة وأنا في رحلة العودة، قمت من مقعدى لأتمشى لأحرك ساقى قليلاً (بصراحة أردت الذهاب لإفراغ مثانتى). أوقفنى رجل شكله مألوف، كان يجلس فى مقعد مجاور للممشى فى الدرجة الممتازة، وقال لى بلهجته المحلية: "مستر جولد، أود أن أشكرك على حضورك إلى هنا، ومساعدتنا للخروج من هذه المشكلة الصغيرة"، أجبته: "إنى سعيد بذلك، ولكن قل لى ما سبب اهتمامك بالقضية؟ هل أنت أحد العلماء؟" ضحك وأنكر ذلك، فسألته: "هل أنت من رجال الأعمال؟" فأجاب: "كلا كلا" وأخيراً أجاب: "كنت العمدة من قبل، ولو كان الأمر بيدى لاعترضت على هذه الدعوى". كنت أتناقش مع بيل كلينتون حول الاحتمالات الغريبة للتاريخ، تلك التى سمحت لهذه المأساة أن تجد موقعها، وتستمر حتى المحكمة العليا، كان كلينتون معجباً بنفسه، كالطفل المعجزة، الذى وصل إلى مركز العمدة، ولم يجهز حملته الانتخابية بما تستحق من جهد واهتمام، حتى يفوز فى انتخابات عام ١٩٨٠، وهو خطأ لم يكرره ثانية، حتى وصل إلى منصب الرئاسة بعد ذلك. أجيز قانون الخلقية الذى كان سيعارضه حتماً خلال فترة تفرغه للرئاسة، وصدق عليه عمدة آخر أكثر تحفظاً.

ولكن كل هذا العبث والفكاهة، ما أفاد إلا معادلة لحظات الجد والمعاناة أثناء المحاكمة، ولعله لم يكن هناك شىء أكثر تحريكاً للمشاعر، من كرامة المدرسين الذين شهدوا بعدم قدرتهم على ممارسة مهنتهم بشرف، فى حالة إقرار القانون. أشار أحد المدرسين إلى ضرورة تعديل

فقرة ضمن النصوص المقررة في منهج الكيمياء، تتعلق بالزمن الطويل اللازم لتكوين البترول، بما يتعارض تحديداً مع ما جاء بقانون أركنساس، الذى ينص على عمر حديث نسبيًا للأرض، ضمن تعريفات "علم الخلق" الذى يتطلب "معالجة متزنة"، أفصح المدرس عن حيرته إزاء إيجاد التعديل المناسب للموقف. أجابه مساعد النائب العام مهمهمًا أثناء استجوابه: "ولم لا ؟ كل ما تحتاجه هو إضافة جملة بسيطة، "يعتقد بعض العلماء أن عمر تكوين البترول حديث نسبيًا". بعدها رد المدرس بعبارة مؤثرة للغاية، ولعلها أكثر العبارات المؤثرة التى قيلت طول المحاكمة: "يمكننى إضافة مثل هذه الجملة كاستجابة آلية للقانون، لكن لا يمكننى كمدرس له كرامته أن أفعل ذلك، حيث إن المعالجة المتزنة لابد أن تعنى أيضًا "كرامة متعادلة"، وعلىَّ فى هذه الحالة أن أبرر الإضافة المطلوبة، وهو ما لا أستطيع فعله؛ حيث لم أسمع من قبل بأى دليل موثق لتبرير الموقف.

تحدث مدرس آخر عن بلبلة مشابهة، بشأن تقديم معالجة متزنة بضمير واع، وليس بطريقة آلية؛ حيث سئل عما يمكنه فعله إذا طبق القانون؟ نظرً إلى أعلى وقال بصوت هادئ مفعم بالاعتزاز والكرامة: "ستكون رغبتى ألا ألتزم، أنا لست من الثوار أو الشهداء، ولكن علىَّ التزامات نحو تلاميذى، ولا أستطيع التخلى عنها.

أخذتنى هذه الملاحظة الجادة إلى الماضى لأتامل شريط الذكريات، لأجد أنى كنت متفائلاً أكثر من اللازم. نعم، حقًا لقد نلنا نصراً صغيراً

محدوداً، بعد ستين عامًا من النزاع، لم يعد للخلقيين أمل لتحقيق أهدافهم من خلال القانون. لكن هؤلاء المتحمسين الملتزمين المولين جيدا لن يستسلموا. بل غيروا من أساليبهم، ولجئوا إلى وسائل أخرى فعالة، لا يمكن أن ينال منها القانون. استمروا في الضغط على الناشرين لحذف أو إضعاف أجزاء الكتب الخاصة بالتطور (نستطيع أيضًا الدفاع هنا، وقد فعلنا ذلك بنجاح كبير في أماكن متعددة في أمريكا؛ حيث قمنا بتشجيع مجالس المدارس لرفض المراجع، التي تفتقر إلى تغطية ملائمة لهذا الموضوع الحيوي في العلوم الحياتية)، كما أنهم يثورون في مجالس إدارة المجالس المحلية، أو يرشحون أحدهم لخوض بعض الانتخابات غير المهمة، التي لا تغري غالبية المواطنين على المشاركة فيها، وبالتالي يمكنهم إدارتها بأقليتهم الملتزمة، المؤلفة ممن يعرفون من أنصارهم، ويأتون بهم إلى صناديق الانتخاب (لكن العلماء أيضا آباء في الوقت نفسه، و"كل السياسة محلية"، على حد تعبير صديقي عضو الكونجرس السابق من كامبريدج بولاية ماساشوستس).

أما أخطر ما يكون، فهو ما يتبعونه من أسلوب خفي ماكر وفعال، يصعب التصدي له؛ ذلك بقيامهم ببساطة بالهياج والثورة، بشكل يحمل بعض التهديد. أغلبنا – بما فينا من مدرسين – لسنا شجعانًا بصفة خاصة، ولا نختار الاستشهاد، فمن ذا الذي يبحث عن المتاعب؟ إذا أبلغ الصبي والديه بأني أقوم بتدريس التطور، يفعلون ما هو متوقع من إثارة عامة على أكبر نطاق ممكن (خاصة في الأماكن الأمريكية، حيث

تستوطن الخلقية ولها وجود قوى)، ماذا سيحدث إذًا لى ولعائلتى ووظيفتى؟ من المحتمل ألا أقوم بتدريس التطور هذا العام، يا للجحيم من يريد كل هذا الصراع؟

يقودنى هذا إلى تكرار نقطة بديهية أخيرة: لقد أخطأنا التعرف على أول الدعاة لهذه المعركة بأسوأ شكل ممكن، ذلك عندما صورنا التطور ضد الخلقية كمشادة عظمى، فى الحرب العامة الدائرة بين العلم والدين. وانضم كل العلماء ورجال الدين الكبار تقريبًا إلى القوات المحاربة، وفى الجانب نفسه ضد الخلقيين. وموضوع هذا الكتاب العام، يقدم المناخ المناسب للاتفاق وهو الأروقة، مع دعوة لحوار دائم ومحترم بين كلا الرواقين. يقطن كل منهما فى واحد من قصور الحياة الكبرى، ويعمل كل منهما كأفضل ما يكون بدعمه لداره، فى الوقت الذى ينظر فيه بإعجاب لمسكن جاره، ويتمتع بدفء الصداقة الثرية بينهما بتزاورهما وحواراتهما.

الخلقيون لا يمثلون رواق الدين، لكنهم يروجون بحمية لمذهب لاهوتى بعينه، لا يعدو كونه نظرة ضحلة ثقافيًا، لمجموعة ضئيلة من البشر، يتمنون تعميمه على كل العالم. ويمثل مدرسو أركنساس- فى الحقيقة - أكثر كثيراً من "العلم"؛ فهم يدافعون عن السماحة والكفاية المهنية وحرية الفكر، كما يدافعون عن الدستور، وهى مجموعة من الأهداف النبيلة، تشاركهم فيها الغالبية العظمى من العلماء المحترفين ورجال اللاهوت فى أمريكا الحديثة. العدو ليس الدين، لكنه التزمت

وضيق الأفق وعدم السماحة، وهى عادات بشرية قديمة قدم البشرية نفسها، ولا يمكن إخمادها دون اليقظة الأبدية، وهذا ما ينطبق عليه اللفظ الدارج " ثمن الحرية".

لا يمكن الاستخفاف بحركة هامشية مثل خلقيى الأرض- الفتية، دون خطر حقيقى علينا. فالتاريخ يبرز *القاعدة* بأن الاستخفاف والتجاهل، غالبًا ما يتيح لهم الفرصة للنمو والتطور ليصبحوا أبطال الظلام، إن لم يتم إيقافهم من البداية. ودعنا نعطى الكلمة الأخيرة لـ كلارنس دارو، الذى سجل ما يلى فى خلاصته عن محاكمة سكوبس فى عام ١٩٢٥:

إذا تمكنت اليوم من تناول موضوع كالتطور، وجعلت من تدريسه فى المدارس العامة جريمة، فغداً تستطيع أن تجعله جريمة، إذا جرى تدريسه فى المدارس الخاصة، أما فى العام القادم فستجعله جريمة إذا ذُكر فى منابر الدعاية الانتخابية أو فى الكنيسة. وفى المناسبة التالية ستمنع وتصادر الكتب والجرائد...إن الجهل والتعصب دائمًا فى نشاط وعمل وفى حاجة إلى غذاء، دائما فى نهم وفى تشوق للمزيد. مدرسو المدارس العامة اليوم وغداً المدارس الخاصة، واليوم الذى يليه، الوعاظ والمحاضرون، وبعد فترة، يا سيادة القاضى، إنها حكاية رجل ضد رجل، ومذهب ضد مذهب، ونسير إلى الخلف بقرع الطبول ورفع الشعارات، حتى نعود إلى الأيام المجيدة للقرن السادس عشر، حين أشعل المتعصبون الحطب لإحراق البشر، ممن تجاسروا على إضافة أى فكر وتنوير وثقافة إلى الذهن البشرى.

عاطفة وتعاطف وليام جنينجز برايان:

الجانب الآخر من الأروقة

إلى هنا يتوقف سرد هذا النموذج البطولى للصراع الأمريكى بين التطور والخلقية، بعد تاريخ النجاح على المستوى القضائى، مع بعض التنبيهات الصارخة عن مدى الاحتياج لمزيد من العمل والجهد فى المستقبل، ومع إعادة التأكيد على أهمية العناصر الثقافية. لكن لابد لى أن أستمر لأروى فصلاً مهمًا من الجانب الآخر، إنها قصة مجهولة نسبيًا ونادراً ما تروى، وتتطلب اهتمامًا خاصًا فى كتاب مخصص لمبدأ الأروقة.

تمثل الملامح الشخصية العامة لـ وليام جنينجز برايان(٩٠) هدفًا سهلاً للسخرية، فقد رشح نفسه ثلاث مرات للرئاسة. وهو ثرثار متميز كخطيب خاص بالنسبة إلى من يمثلون ما يمكن تسميته بـ "المؤسسة *الثقافية الشمالية الشرقية*"، ولم يغوصوا فى تقاليد مجتمع "الغرب الأوسط" **Midwest** لأمريكا كما يمثلها برايان. تكفى الإشارة إلى

التهكم المكشوف لـ هـ. ل. مينكين H.L. Mencken، الذى تابع تصرفات برايان أثناء محاكمة سكوبس، فكتب يقول:

فى يوم ما، وضَعَ ساقًا فى البيت الأبيض، فارتعشت الدولة لزئيره. والآن هو بابا أجوف تافه، بحزامه المزين بعلامة الكوكا كولا، وأخ للقساوسة الميئوس منهم، البائسين الذين يستفيضون فى كلامهم للبلهاء، فى أكواخ حديدية مجلفنة فى ساحات السكك الحديدية الخلفية. إنها لمأساة حقًا، أن يبدأ حياته كبطل ثم ينتهى كمهرج.

أبرز تعقيب مينكن اللاذع مفارقة مدهشة، فقد أمضى برايان معظم مسيرته السابقة كمصلح اجتماعى، وليس أبدًا كإنسان بدائى فاسد. كيف بالله تحول من كونه أبرز رجال حزب الشعب الأمريكى (٩١)، إلى أكثرهم رجعية ؟!

إنه هو برايان الذى فاز بترشيح الحزب الديمقراطى لخوض انتخابات الرئاسة عام ١٧٩٦ وهو بعد لم يتجاوز الخامسة والثلاثين – السن القانونية للترشيح – إلا بسنة واحدة، وكان صوته يدوى فى تجمعات الحزب الشعبى لإلغاء عيار الذهب، فكان يقول: " لن تثقلوا على جبين العمال بإكليل من الأشواك، ولن تصلبوا الإنسان على صليب من ذهب". برايان الذى رُشح مرتين بعد ذلك لانتخابات الرئاسة، وخسر فى حملات نبيلة من أجل الإصلاح، خاصة فيما يتعلق باستقلال الفليبين، وضد الاستعمار الأمريكى. برايان نصير السلام الذى استقال من

منصبه كوزير للخارجية فى عهد ويلسون، حيث كان يتطلع إلى حياد عادل قوى إبان الحرب العالمية الأولى. برايان الذى كان على رأس كل الانتصارات التقدمية فى حينه: معاناة المرأة، الانتخابات المباشرة لمجلس الشيوخ، ضريبة الدخل المتدرجة (لا يحبها أحد، لكن هل لديك وسيلة أخرى أكثر عدالة؟). كيف حدث أن انضم مثل هذا الرجل إلى ركاب الحَرفية النَصية للإنجيل، من أجل تفريغ الدين من كل مظاهر الحرية وإخماد أنفاس حرية الفكر نفسها، التى نادى بها ودافع عنها فى مجالات أخرى عديدة؟

تظل المفارقة تقرع أذهاننا؛ لأن برايان زيف أسطورة حية (كما تم تسجيله فى الجزء السابق)، ليس فقط كموضوع ضاع فى ضباب التاريخ، فلولا برايان لما وجدت أصلاً قوانين معارضة للتطور، ولا محاكمات مثل محاكمة سكوبس، ولا نهضة فى أيامنا، ولا قرار من المحكمة العليا. إن كل واحد من انتصارات برايان هذه كان سيحدث حتمًا به أو من دونه؛ لقد حارب بشدة وساعد بقوة، ولكن على أية حال، كانت النساء ستذهب اليوم إلى صناديق الانتخاب، وكنا سندفع الضرائب المستحقة علينا، حتى لو لم يولد برايان من الأصل. لكن محاولته القانونية لكبح جماح التطور كان طفله المحبب، وقد والى هذا الموضوع بكل ما أوتى من ضراوة شيطانية. فلا يوجد ضمن هذه الحركة ضعيفة التنظيم من المتطرفين، غير برايان من أصحاب هذه النزوات، ولا غيره بالتأكيد ممن يملكون المهارة القانونية أو القوة السياسية.

يمثل تذبذب ولاء برايان سمة عامة فيما تمت كتابته عنه، فها هى سيرته الذاتية - كما وردت فى موسوعة المعارف البريطانية - تنص على أن محاكمة سكوبس "ثبت أنها غير متمشية مع الكثير من الأهداف التقدمية التى كافح من أجلها، وكان بطلها لمدة طويلة". استقر المحللون على اتجاهين أساسيين: يقول الأول وهو يمثل أغلبية الآراء، بأن معركة برايان الأخيرة كانت - بلا شك - غير متمشية مع كل ما سبق من حملاته مع حزب الشعب. فمن ذا الذى قال بأن على الإنسان أن يتمسك بفكر معين، ولا يغيره طوال حياته العاقلة؟ وهل هناك مسألة أكثر شيوعًا فى علم النفس، من تحول شاب ثورى حر إلى عجوز تافه ممل؟.

يتعامل معظم المؤرخين مع محاكمة سكوبس، على أنها مفارقة مخجلة ونهاية مؤسفة ومحيرة؛ حيث يتضمن عنوان الفصل الأخير من أى كتاب تمت كتابته عن برايان، كلمة "تراجع" أو "انسحاب".

على الجانب الآخر، نجد الرأى الأقل شيوعًا، والذى بدأ يكتسب شيئًا من الانتباه فى التحليلات الحديثة، وفى تقديرى أنه صواب تمامًا. يحمل هذا الرأى مضمون أن برايان لم يتغير ولم يتراجع، وأنه كان ينظر إلى معركته الأخيرة ضد التطور، كامتداد لفكر الحزب الشعبى، الذى ألهم عمله وانشغل به طوال حياته. لكن كيف يمكن النظر إلى موقفه المطالب بمنع تدريس التطور فى المدارس العامة كمسألة تقدمية؟ وكيف ربط برايان جهوده وسيرته السابقة بهذا المخطط الجديد؟

ارتكز موقف برايان من التطور على ثلاثة أخطاء: أولاً، وقع فى الخطأ الشائع بخلط حقيقة التطور، مع تفسيرات داروين لكيفية حدوثه. ثم إنه أساء تفسير مبدأ "الانتقاء الطبيعى"، كما لو كان نظرية عسكرية لبقاء المنتصر وتدمير الأعداء، وأخيرًا وقع فى الخطأ المنطقى باعتباره أن الداروينية تحتضن عنصر الفضيلة الأخلاقية اللازمة لهذه المعركة القاتلة.

يمكن اعتبار الخطأين الأولين سوء تفسير لإحدى النظريات داخل رواق العلم. أما الخطأ الحرج الثالث – وهو منبع التزام برايان العاطفى والسياسى – فيعبر عن عدم وضوح رؤيته وخلطه بين الحقائق العلمية والحقائق الأخلاقية، وفى هذا انتهاك صريح لمبدأ الأروقة، وتأسيس لمعظم نزاعاتنا بلا داع، حول التطور والأخلاق. كتب برايان فى كتابه "أمير السلام" Prince of Peace المنشور عام ١٩٠٤ – ما يلى :

"تصور النظرية الداروينية وصول الإنسان إلى كماله الحالى، من خلال قانون الكراهية، ذلك القانون الخالى من الرحمة، وبمقتضاه تقتل الفئة القوية الفئة الضعيفة. إذا كان هذا هو قانون نمائنا، وإذا كان هناك أى منطق يحكم العقل البشرى، فسنتوجه خلفًا نحو الحيوانية والتوحش، بالقدر المتناسب مع إحلالنا إياه مكان قانون المحبة. أفضل الإيمان بأن قانون المحبة وليس الكراهية، هو قانون النماء".

في عـام ١٩٠٦ أخـبـر برايان، إي. إيه. روس - E. A. Ross وهو أحد الإخصائيين في علم الاجتماع – بما يلي: "حَرِيٌّ بمثل هذا المفهوم عن أصل الإنسان أن يُضعف الديمقراطية، ويقوي الفروق الطبقية، ويدعم قـوة الثـروة". ظل برايـان في هذه الحـيـرة، حـتى صـهـرته أحداث الحرب العالمية الأولى، وعلم بموضوعين دفعاه إلى التصرف بجنون: الحدث الأول، عندما علم بقيام معظم المثقفين والقادة العسكريين الألمان، بالترويج للنظرة العسكرية للداروينية، كمبرر للحرب ولسيادتهم المستقبلية، والثاني، خشيته من انتشار الارتباك والبلبلة وزعزعة القيم، كأساس لإضعاف الروح المعنوية لبلاده، في مجابهة القوة العسكرية الألمانية.

جمع برايان هذه المخاوف إلى سابق تشككاته، وترجم كل ذلك إلى حملة ضد التطور في فصول المدارس. لنا أن نختلف في حجته، ولكننا لا نستطيع إنكار أن تأجج عواطفه تجاه هذا الموضوع، إنما نشأ كنتيجة لتحمسه الشديد للأمور التقدمية طوال حياته. يجب وضع الركائز الثلاثة الأساسية لحملته، وعلاقتها بماضيه في حزب الشعب، في عين الاعتبار:

١- من أجل السلام ومن أجل تعاطفه ضد الأنشطة العسكرية والقتل، كتب برايان يقول:

"علمت أن الداروينية كانت أساس المذهب الملعون، القائل بأن القوة تصنع الحق الذى انتشر فى ألمانيا".

٢- من أجل العدالة للمزارعين والعمال، وضد الاستغلال الهادف للاحتكار والتربح، فقد احتج وعقد بأن الداروينية قد أقنعت الكثيرين من الوسطاء، بفضيلة الفوز بمكاسب شخصية، حتى أصبح على الحكومة الآن حماية الضعفاء والفقراء، من انفجار التحلل الخلقى المضاد للمسيحية، فكتب:

"أصبح هناك احتياج ضرورى فى الولايات المتحدة لقوانين الطعام النقى، لمنع الصناعات الغذائية من تسميم المواطنين، كما أصبحت هناك ضرورة لقوانين تشغيل الأطفال، لمنع أصحاب العمل من الإضرار بأجسامهم وعقولهم وأرواحهم، وأصبحت هناك ضرورة لقوانين ضد نظام الائتمان، لردع الشركات والمؤسسات العملاقة من خنق المنافسين الأصغر، ومازلنا فى القبضة القاتلة للمتربحين والمقامرين بالمنتجات الزراعية".

٣- من أجل حكم رأى الأغلبية ضد رأى النخبة المتطفلة، فإن العقيدة المسيحية مازالت تتمتع بدعم الأغلبية المنتشرة فى أمريكا، لكن بدأ التعليم الثانوى العالى يفقد تدريجيًا الإجماع، الذى أكد التعاطف من خلال الديمقراطية. ثم سرد برايان بعض نتائج الدراسات التى أظهرت، أن ١٥ ٪ من الطلاب المستجدين يحملون بعض الشك فى الله، ولكن ٤٠٪ من الخريجين أصبحوا فعلاً متشككين. زودت الداروينية هذا

التشكك بالوقود، بما تحمل من المبدأ اللاأخلاقي بتسيد نخبة أنانية معينة. هنا هاجم برايان بشدة تلك الزعزعة الخبيثة للأخلاق، التي يثيرها قلة من المثقفين، وعقد العزم على محاربة النار بالنار. فإذا اختاروا العمل من خلال الفصول الدراسية، فسيرد بالمثل، وسيمنع مناهجهم من المدارس العامة. واضعًا في الاعتبار أن معظم المواطنين لم يقبلوا فكرة تطور الإنسان، ولهم الحق الديمقراطي في إبعاده من التدريس.

تعقيبًا على هذه النقطة الثالثة، فإن نزاع برايان يضرب في قلب الحرية الأكاديمية، فالتساؤلات العلمية لا يجوز حسمها باقتراع الأغلبية. أذكر ببساطة أن برايان زج بحجته الطريفة داخل مفهومه الشخصي للشعبية، فكتب يقول:

"إن لدافعي الضرائب الحق في إبداء رأيهم فيما يجب تدريسه... ولتوجيه أو فصل *الذين* يستأجرونهم كمدرسين ونظار... *اليد التي* توقع على شيكات المرتبات تحكم المدرسة، وليس للمدرسين الحق في تدريس ما يعترض عليه الذين وظفوهم".

ثم ماذا عن الحجتين الأوليين لبرايان، حول تأثير الداروينية على المنظومة العسكرية، وعلى استغلال المواطنين؟ قد يستشعر البعض بلمسة من الجهل في أقوال برايان، لكن لابد أن نقر أنه تعرف على شيء مقلق للغاية، وأن الخطأ يقع جزئيًا في انتهاكات العلماء وأشباههم للأروقة.

أقر برايان أكثر من مرة بأن طبيعة نظرته المعارضة للتطور تغيرت من عدم المبالاة إلى العمل النشط الشديد، بسبب قراءته لكتابين: "ليالى مقر القيادة" Headquarters Nights للكاتب فيرنون ل. كيللوج (١٩١٧) Vernon L. Kellogg، و"علم القوة" The Science of Power للمؤلف بنيامين كيد(١٩١٨) Benjamin Kidd .

قرأت الكتابين ووجدتهما- كما قال برايان- مثيرين للغاية، وفهمت مخاوفه، ووافقته إلى حد ما (بالطبع لا أوافق بأية حال على ما يتعلق بتحليله أو نصائحه).

كان فيرنون كيللوج مختصًا بعلم الحشرات، ولعله كان المدرس الأول للتطور فى أمريكا (كان يعمل أستاذًا بجامعة ستانفورد، وكتب مرجعًا عظيمًا بعنوان (التطور وحياة الحيوان)، بمشاركة مرشده والرسول الرائد لداروين فى أمريكا، دافيد ستار جوردان David Starr Jordan، خبير الأسماك ورئيس جامعة ستانفورد). فى الفترة التى التزمت فيها أمريكا رسميًا بالحياد، تولى كيللوج منصبًا رسميًا عاليًا، فى مجال الجهود الدولية غير المتحاربة، لتقديم الغوث لبلجيكا، وهو سبب تحملته ألمانيا على مضض. انتقل للإقامة بحكم وظيفته إلى مقر إقامة كبار رجال الجيش الألمان، فكان بذلك الأمريكى الوحيد هناك. كان يستمع ليلة بعد ليلة إلى أحاديث العشاء، وكانت الحوارت تدور أحيانًا فى وجود القيصر شخصيًا، وكبار ضباط الجيش. وقد سجل كيللوج هذه الحوارات فى كتابه "ليالى مقر القيادة". أتى إلى أوروبا من أجل

السلام، وتركها وهو مؤمن بضرورة عمل ما يستطيع، من أجل تدمير المنشأة العسكرية الألمانية بالقوة. ارتاع كيللوج قبل أى شىء من تبريرهم للحرب، وتأكيدهم للتفوق الألمانى. كان كثير منهم من أساتذة الجامعات قبل نشوب الحرب، لم يقترحوا فقط تبريراً تطورياً، لكن تمادوا إلى حد الدفاع عن نموذج زائف لمسألة الانتقاء الطبيعى، بل فظ بوجه خاص، ويعرف بالـ "المعركة الدموية التى لا ترحم":

الأستاذ فون فلوسين Von Flussen، من أنصار الداروينية الحديثة، مثله مثل معظم علماء الأحياء وفلاسفة الطبيعة الألمان. تمثل عقيدة "كل القوة" (Allmacht) للانتقاء الطبيعى، المبنى على أساس العنف والصراع التنافسى؛ كان ذلك هو الإلهام للمثقفين الألمان، وكل ماعدا ذلك فمجرد أوهام وملعون.

لا يجب لهذا الصراع أن يستمر، ليس فقط لأن هذا هو القانون الطبيعى، بل يجب أن يدوم حتى يتسنى للقانون الطبيعى هذا، أن يفعل فعله بكل قسوة، من أجل إنقاذ الجنس البشرى فى النهاية.....إن المجموعة البشرية المتصدرة لمراحل التطور، يجب أن تنتصر فى الصراع من أجل البقاء، ويجب أن يحدث هذا الصراع بكل دقة؛ بحيث يتم اختبار كل النماذج الأخرى. أما الأفضل فسيستمر ليس فقط للإبقاء على ذاته، لكن ليتخذ مكاناً، يفرض منه نظامه الاجتماعى الخاص على الآخرين، أو الحل البديل بإبادتهم واستبدالهم. كان هذا نوع الحوارات المفجعة التى واجهتها فى المقر، أضف إلى هذا الفرضية القائلة، بأن

الألمان هم الجنس المختار، وأن المؤسسات والأنظمة الاجتماعية والسياسية الألمانية، هى النظم المختارة لحياة المجتمع البشرى، وبذلك تجد أمامك حائطًا من المنطق والاقتناع، ويمكنك أن تخبط رأسك به كما تشاء، ولكنه أبدًا لن يتحطم، وتتمنى ساعتها أن تكون لديك عضلات مثل شمشون.

لم يجد كيللوج فى هذا الجدل إلا "فتاوى أكاديمية مريعة... واقتناعًا بأن الانسان لا يساوى، شيئًا والدولة هى كل شىء" استخلص برايان تفسيرًا بعيدًا عن الصواب، مبنيًا على انتهاك أساس صريح للأروقة، وتأكدت مخاوفه من قوة الشر الموجودة فى نظرية التطور.

أما بنيامين كيد، فمعلق إنجليزى تحترمه الدوائر الأكاديمية، كما تحترمه العامة، كتب عدة كتب عن أبعاد التطور وآثاره. ظهر كتابه "علم القوة" إلى الوجود فى عام ١٩١٨ بعد وفاته، وفيه يبنى حوارًا مثيرًا مختلفًا تمامًا عن أسلوب كيللوج، لكن أيضًا يؤجج مخاوف برايان. بما أن "كيد" كان فيلسوفًا يؤمن بالمثاليات، فقد آمن بأن تقدم الحياة لا يمكن أن يتم، إلا برفض الصراع المادى والمنفعة الشخصية. تعرض للداروينية – مثله مثل العسكريين الألمان – ولكن بالنقد اللاذع بدلاً من التمجيد، وقد عَرَّف الداروينية بأنها التسيد بالقوة، فجادل مثلاً بأن الداروينية قد أوقدت النار، فى أخطر ما فى الميول الإنسانية، وهى روحنا الوثنية المتوحشة، التى ظلت فى السابق (ولكن ليس بالكامل) مكبوتة لعدة قرون، بالمسيحية وتعليمها السمحة بالمحبة وإعادة التوحد:

إن الانطباع الذى حققته نظريات "أصل الأنواع" فى أذهان العامة فى الغرب، لهو من أعظم الحوادث تميزًا فى تاريخ الفكر الإنسانى... ففى كل مكان عبر المدنية، ظهرت تبريرات غير مفهومة للمبدأ القائل، بأن القوة هى أساس السلطة الشرعية، تصارع الوثنى الغربى على مدى عدة قرون، مع مثاليات ديانة مثقلة بالتبعية والتبرؤ، كما أصابه الملل الشديد لعدة قرون، من مثاليات عالم قدمتها له سياسة الكنائس المسيحية باختلافها. لكن كان هناك مفهوم للحياة يتحرك فى أعماقه الإحساس بوراثته لعصور ضارية فى القدم. كان هذا هو العالم الذى فهمه سادة القوة. وردد قلب الوثنى الغربى مرة أخرى، أناشيد السعادة الموروثة.

يمكننا استنتاج أن برايان – غالبًا دون وعى منه – كان يلعب لعبة "لوم الضحية" بسلخه لداروين، أو نظرية الانتقاء الطبيعى، أو حتى مسألة التطور نفسها، على أساس أنها السبب الأصلى فى التحلل الأخلاقى فى أيامه. لا يمكن اعتبار مبتكر الفكرة مسئولاً عن فظاعة سوء استعمال نظريته (إلا إذا كان سوء الاستعمال ناتجًا عن بلبلته هو نفسه أو سوء تعبيره، دون أن يبذل أى جهد لإصلاحه، انطلاقًا من غطرسته وتكبره. فالخطأ ليس خطأ ألكسندر جراهام بل (مخترع التليفون)، إذا أفلستك فاتورة تليفون ابنك المراهق فى العام الماضى. فشل برايان كما أشرنا فى السابق، فى فهم التطور بأى شكل مقبول. بالقطع لم يفهم فكرة داروين حول الانتقاء الطبيعى، وهى ليست مبدأ

الانتصارات الحربية، لكنها نظرية عن نجاح النسل، بغض النظر عن كيفية الوصول إلى هذا النجاح فى البيئات المحلية (عن طريق الصراع - قطعًا - في بعض الأحيان، ولكن عن طريق التعاون أيضًا فى أحيان أخرى). ولعل أهم الأمور المتعلقة بموضوع هذا الكتاب، هو أن برايان لم يفهم أبدًا مبدأ الأروقة الأساسى، بأن حقيقة الواقع كيفما تشكلت - لا يمكنها فرض الحقيقة الأخلاقية، أو حتى الإيعاز بها. إن أى جدل يقول إن بإمكان الحقائق أو النظريات البيولوجية الخاصة بالتطور، فرض أى سلوك أخلاقى أو إثباته، يعتبر سوء استعمال فاضحًا للفكر العظيم لداروين، وانتهاكًا رئيسيًا للأروقة.

لكن برايان استمر فى اعتبار التطور كقاعدة للحرب وتدمير الأضعف، وهى مقولة من شأنها سحب البساط من تحت أقدام أية أخلاقيات حميدة، لتستحق الإلغاء من المدارس. سجل برايان، فى نوع من التكرار المفيد، الفقرة التالية قرب نهاية خطبته بعنوان "آخر جدل للتطور"، التى أعدها بعناية شديدة، لكن لم تتح له الفرصة لإلقائها فى محاكمة سكوبس:

مرة أخرى تلتقى القوة والمحبة وجهًا لوجه، ولا بد من الإجابة عن السؤال: ماذا تراني فاعلاً مع المسيح؟ تطالب المقولة الفجة الملعونة - التطور- بما طالبت به الرعاع مُنذ تسعمائة عام، أن عليه أن يصلب.

أتمنى أن أتوقف هنا قليلاً، للتعليق الماكر على برايان كرجل بدائى، ولأجلجل دفاعًا عن التفسير العلمى الصحيح للداروينية، لكن ليس من العدالة إصدار مثل هذا الحكم الرافض؛ حيث لا يمكن تخطئة برايان فى مثل هذ الموضوع المهم، فالله وحده يعلم أنه لم يفقه شيئًا فى العلم، ولم يحصل على أية جوائز فى مجال المناقشات المنطقية. لكنه كان على حق حين قال، بانتشار تصوير الداروينية كمبرر للحرب، والتسيد، واستغلال المواطنين.

نأتى الآن إلى النقطة الحاسمة فى هذه القصة. تنتهك هذه الاستعمالات الخاطئة للداروينية مبدأ الأروقة، كذلك اقتُرفت كثير من الآثام فى عصرنا، فمن المسئول عن هذا الاستعمال الخاطئ؟ لو أن العلماء احترسوا دائمًا كما يجب فى تفسيراتهم، والتزموا جانب التواضع، بمقاومتهم لتعديهم الباطل بنتائجهم، والدخول بها إلى النطاق الخطأ لأروقة أخرى، فمن الممكن ساعتها أن نبرئ أبناء مهنتى، بتعرفنا على سوء الاستخدام الذى لا يمكن تلافيه، من ناحية غير العلماء. تمشيًا مع المثل السائر: "لا يذهب أى عمل صالح دون عقاب" (٩٢).

إن قاعدة الأروقة حادة وقاطعة، وتفرض القيود والمسئوليات على كل من الرواقين. تمثل الحملات السياسية التى يقوم بها الخلقيون الأمريكيون - كما يجرى تفسيرها أحيانًا بصدق - محاولة غير سليمة من أنصارها المغاوير الشوارد، لفرض مفاهيمهم على رواق العلم، فى

المقابل – وبكل أسف – يرتكب كثير من العلماء الجرم نفسه، ولو لم يشكلوا حركات سياسية منظمة، قادرة على تشكيل القوانين.

يعتقد كثير من عامة الناس، أن مسألة التطور تثبت هذا أو ذاك السلوك الأخلاقى؛ لأن العلماء أخبروهم بذلك. فإذا نظرنا إلى هذا السلوك المبرر، واعتبرناه سلوكًا حميدًا أو غير ضار، فالواجب علينا أيضًا أن ننظر فى الاتجاه المعاكس، ونوجّه إنذارًا إلى العالم الذى أفتى بذلك لتطاوله وعجرفته. فإن الأمور تتغير وما قد نعتبره اليوم خيرًا وبركة، قد يتحول إلى لعنة فى المستقبل. فقد ارتضى المثقف المتوسط من الرجال الأمريكيين فى عام ١٩٠٠ بالعنصرية، واضعًا مجموعته على القمة، كنوع من أنواع مسلمات الطبيعة، ولعله أيد الانتشار الاستعمارى للقوة الأمريكية. ولعل الزعم بأن التطور يحمل فى ثناياه مبررًا كافيًا للاستنتاجين، بدا له واضحًا ومعقولاً. إلا أن المسألة تصبح أكثر إغراءً وقبولاً، خاصة إذا ما نادى بها أحد علماء الأحياء.

من منظور تداعيات ما حدث فى مدن مثل إيبرس[٩٣] Ypres وهيروشيما، واستخدام المشانق والإبادة الجماعية، فإن معظم الناس اليوم، يرون أنه من الضار جداً النظر إلى هذه التعديات، بوصفها امتداداً للحقائق التطورية إلى الأخلاقيات الاجتماعية. استخلص برايان درسًا ثمينًا من قراءاته، فالعديد من الجنرالات الألمان، الذين تبادلوا الحوار مع كيللوج، كانوا من أساتذة علم الأحياء بالجامعة. لا يستطيع العلماء ادعاء حصانتهم من فساد التفسير، خاصة بشأن الجدل الضار

اجتماعيًا، المتضمن انتهاكات للأروقة، وفى ضوء تكرار الوقوع فى الخطأ نفسه، مع ترديد زملائهم للمقولات عينها.

دعنى أختتم هذا الجزء، بمثل محدد من مصدر وثيق الصلة، وباعث على الارتعاش. فى خطابه الأخير"آخر جدل للتطور"، اتهم برايان التطوريين بإساءة استخدام العلم، لتقديم آرائهم الأخلاقية حول النسق الاجتماعى، كما لو كانوا يمثلون حقائق الطبيعة، فكتب:

يصاب العاملون على تحسين وضع الإنسان بالإحباط، نتيجة إصابة الأمل فى الإصلاح بالشلل... خطته الوحيدة للإنسان هى التناسل العلمى؛ حيث تقوم مجموعة قليلة ممن يفترضون فى أنفسهم الذكاء الخارق، بتعيين أنفسهم وتوجيه التناسل، والتحكم فى تحركات الجنس البشرى بأكمله... إنه حقًا نظام مستحيل.

من يستطيع أن يُخطِّئ برايان فى هذا الموقف؟ لعله واحد من أسوأ السجلات فى تاريخ العلم هذا الذى كرس سوء استخدام البيانات، لدعم مزاعم تبعيات القدرة على التحكم الحيوى فى الأخلاق وفى المجتمع، وللادعاء بأن عدم التكافؤ المبنى على أساس العرق أو الطبقة الاجتماعية لايمكن تغيره؛ حيث إنه يعكس تركيب الجينات المنحطّ الموروث، عند غير المتميزين. سبب كثير من العلماء أضرارًا بالغة بانتهاكهم للأروقة، من خلال كتاباتهم المرجعية المنمقة، حول رؤيتهم الخاطئة لطبقتهم الاجتماعية المفضلة، واعتبار ذلك من حقيقة الطبيعة. ستتضاعف

الأضرار حتمًا عندما يقوم العلماء الذين يكتبون المراجع لتلاميذ المدارس الثانوية بنشر تلك المذاهب الاجتماعية على أنها النتائج الموضوعية فى نطاق تخصصهم.

أمتلك نسخة من كتاب بعنوان "علم الأحياء المدنى" "A Civic Biology" نشر فى عام ١٩١٤، للمؤلف جورج وليام هنتر- أستاذ علم الأحياء بكلية كنوكس - وقد قام الكثيرون بمراجعة الكتاب، للوقوف على الأجزاء التى استعملها سكوبس فى التدريس، واقتبسها برايان. لكنى اكتشفت أيضًا عددًا من النصوص المزعجة، فى فصول أخرى من الكتاب، فاتت على المعلقين السابقين. على سبيل المثال، تناول الكتاب موضوع امتلاك العلم، للإجابة الأخلاقية عن مسألة التخلف العقلى والفقر الاجتماعى، بمزاعم فاضحة وتفسيرات خاطئة. استعار هنتر الرواية غير المشهورة، عن عائلتى "جوك وكاليكاك" (٩٤) Jukes and Kallikaks، وهو المثل الـ"تقليدى" المزيف، وكان يومًا بمثابة المثل الرائد، الدال على مساوئ انتقال الصفات الوراثية بين العائلات. كتب هنتر تحت عنوان "الطفيلية وغرامتها على المجتمع":

تعيش اليوم مئات العائلات كالتى سبق ذكرها، تنشر الأمراض والإباحية والجريمة فى كل أنحاء البلاد. إن الثمن الذى يدفعه المجتمع من جراء تلك العائلات باهظ جداً. فكما تعيش بعض الحيوانات والنباتات متطفلة على غيرها من النباتات والحيونات، كذلك تعيش تلك العائلات، عالة طفيلية على المجتمع. إن ضررهم لا يتوقف عند إيذاء

الآخرين، عن طريق الفساد والسرقة أو نشر الأمراض، لكن فى واقع الأمر، تقوم الدولة بحمايتهم ورعايتهم، استقطاعًا من أموال الشعب. من أجلهم توجد الملاجئ وبيوت الفقراء. إنهم يأخذون من المجتمع ولا يعطون شيئًا فى المقابل، إنهم طفيليون حقًا.

لو كان هؤلاء من الحيوانات المتدنية، لكنا أبَدْنَاهم لمنع انتشارهم. إن الانسانية لا تسمح بهذا، لكن لدينا الوسيلة العلاجية، بالفصل بين الجنسين فى الملاجئ أو الأماكن الأخرى، وباستعمال جميع السبل لمنع زواج الأقارب؛ لنمنع استمرار هذه السلالة المنحطة والمتحللة.

يسترسل هنتر بعد صفحتين، وبعد الرسم التوضيحى المشهور الذى رفعه برايان عاليًا أثناء المحاكمة؛ ليدلل على قيام سكوبس بتدريس الفكرة الخبيثة، القائلة بأن الإنسان ينتمى إلى الثدييات. يكتب هنتر فقرة واحدة تحت عنوان "أعراق الإنسان"، فى كتاب مرجعى مقرر على التلاميذ من كل المجموعات فى المدارس الثانوية فى كل أمريكا:

توجد على الأرض فى الوقت الحاضر خمسة أعراق من البشر، يختلف كل منها عن الآخر فى غرائزه وعاداته الاجتماعية، وإلى حد ما فى التكوين. تلك هى الأثيوبية أو النوع الزنجى الذى نشأ فى إفريقيا، والمالاوى أو العرق البنى من جزر المحيط الهادى، والهندى الأمريكى، والمنغولى أو العرق الأصفر، ويشمل سكان الصين، واليابان، والإسكيمو، وأخيرًا وأرقاهم جميعًا، القوقازى ممثلاً فى المستوطنين البيض المتحضرين فى أوروبا وأمريكا.

أيد برايان الحل الخطأ، لكنه نجح فى التعرف على مشكلة خطيرة!

العلم نظام وتخصص وانضباط. والنظام يستوجب ويملى الدقة، يكتسب الكل القوة والاحترام والقبول، بالعمل بشرف داخل حدودهم، وعلى دراية كافية بالوقت الذى يعتبر فيه التعدى على المناطق الأخرى، بمثابة حماقة وتكبر. يحاول العلم – كمنهج ملتزم – أن يتفهم الوضع الحقيقى للطبيعة، ويعمل جاهداً ليفسر وينسق تلك البيانات، فى صيغة نظريات عامة، يعلمنا العلم كثيراً، أن الأمور الرائعة قد تكون مزعجة، وكلها حقائق تحتاج إلى تقييم، عندما نحاول وضع مقاييس للسلوك، وعندما نتفكر فى الأسئلة الكبرى للأخلاقيات والقيم. لكن ليس باستطاعة العلم وحده الإجابة عن هذه التساؤلات، كما أنه لا يستطيع فرض السياسات الاجتماعية.

يمتلك العلماء القوة، بفضل الاحترام الذى يمليه التخصص، وقد نميل إلى إساءة استعمال هذه القوة بطريقة مؤلمة، لفرض وجهة نظر متحيزة، أو لأهداف اجتماعية: فلماذا – إذاً والأمر كذلك – لا أستغل هذه الميزة الإضافية، فى مد مظلة العلم، إلى الأفضليات الأخلاقية أو السياسية الخاصة؟ لكننا لا نستطيع ذلك، وإلا فقدنا الاحترام الذى أغرانا فى المقام الأول. فالأروقة قاطعة وحادة. نعيش مع الشعراء والسياسيين والوعاظ والفلاسفة ولكل منهم وسائله الخاصة للمعرفة، وهى تصح فقط فى إطارها السليم. كذلك لا يوجد أسلوب واحد، يمتلك القدرة على الإجابة عن كل التساؤلات المدهشة والمعقدة فى العالم. إلى

جانب هذا، فلو وضعنا الأخلاقيات الطنانة جانباً، واستمررنا فى توسيع حدود العلم، فسيأتى قوم من أمثال برايان لشجبنا وليضعونا فى مكاننا الصحيح، لأسبابهم الماكرة.

يجب أن نعطى الكلمة الأخيرة لفرنون كيللوج، المدرس العظيم الذى استوعب قاعدة القوة وحدودها، والذى استمع فى زعب لأبشع سوء استعمال للداروينية. علَّم كيلوج وسجل فى مرجعه (بالمشاركة مع دافيد ستار جوردان)، عدم قدرة الداروينية على تقديم الحلول الأخلاقية:

ينسى بعض الرجال ممن يسمون أنفسهم بالمتشائمين – لعدم قدرتهم على رؤية الخير فى أساليب عمل الطبيعة – أنهم لا يستطيعون أيضاً رؤية الشر. ففيما يتعلق بالأخلاقيات، لا يستطيع قانون المنافسة، أن يكون أكثر تبريراً للأنانية أو القسوة الشخصية أو الرسمية أو القومية، مما يمكن لقانون الجاذبية، أن يستعمل كمبرر لاصطياد طائر.

إلى هنا ندعو كل نوى النيات الصالحة؛ كل من يمتلكون العلم أو الدين أو كليهما – أعزائى جميعًا – أن يتعرفوا على الأروقة المتمايزة باعتبارها الوسيلة الإنسانية المنطقية العاقلة، للحياة المدنية السليمة، فى عالم مفعم بالتنوع، أدعو الكل ليقول: آمين.

هوامش

(٥٢) إنجيل متى، الإصحاح ٢٨، الآية ١٩. [المترجم].

(٥٣) لويس أجاسيز Louis Agassiz (١٨٠٧-١٨٧٣)، أمريكى تخصص فى علم الحيوان وعلم طبقات الأرض، له أعمال مشهورة عن العصر الجليدى . كان من أبرز علماء الحيوان المعارضين بشدة لنظريات داروين عن التطور. [المترجم]

(٥٤) إيزرا كورنيل (١٨٠٧-١٨٧٤) رجل أعمال أمريكى، أسس جامعة كورنيل بنيو يورك، بمساعدة أندرو ديكسون وايت. [المترجم]

(٥٥) اللاهوت العقائدى: فرع اللاهوت المعنى ببحث النواحى النظرية للإيمان بالله وبأعماله، ويعتمد - إلى حد كبير- على تعاليم الكنيسة. [المترجم]

(٥٦) جون وليام درابر: (١٨١١-١٨٨٢) عالم أمريكى برز فى علوم الكيمياء والنبات والتاريخ والتصوير، عمل بجامعة نيويورك. ويعد كتابه المذكور من أكثر المؤلفات أثراً فى حينه. [المترجم]

(٥٧) تقع مدينة جايتا فى وسط إيطاليا على خليج جايتا، على بعد حوالى ٨٠ كيلومتراً شمالى نابولى على الساحل الغربى . [المترجم]

(٥٨) العهد القديم، المزمور الثامن. [المترجم]

(٥٩) الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) دارت رحاها فى أوروبا أساسًا تحالفت فرنسا وروسيا وإنجلترا وإيطاليا وأمريكا ضد النمسا والمجر وألمانيا وبلغاريا والدولة العثمانية. [المترجم]

(٦٠) سبق نشر معظم الجزء التالى فى مقالة بعنوان : " الميلاد المتأخر لأرض مسطحة" (The Late Birth of a Flat Earth) ضمن كتاب " ديناصور فى كومة تبن (Dinosaur in a Haystack)، دار هارمونى للكتب Harmony Books 1995 [المؤلف].

(٦١) إيراتوثينيس (٢٧٦-١٩٤ ق م) رياضى وفلكى وجغرافى نابغة، ولد فيما يعرف الآن بالأراضى الليبية، وعاش فى الإسكندرية حيث،تولى الإشراف على مكتبة الإسكندرية القديمة. بلغت دقته فى قياس محيط الكرة الأرضية ٩٩٪ مما نعرفه اليوم. [المترجم]

(٦٢) سالامانكا : salamanka مدينة بإسبانيا على حدودها مع البرتغال. [المترجم]

(٦٣) جيفرى بيرتون راسل: أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا سانتا باربارا. [المترجم]

(٦٤) تزوج الأمير فرديناند من مقاطعة أرجون بالبرتغال، من الأميرة إيزابيلا من مقاطعة كاستى بإسبانيا عام ١٤٦٩؛ وبذلك توحدت المنطقتان لفترة سادها السلام. [المترجم]

(٦٥) جزر الإنديز أى جزر الهند، وتقع فى الواقع، بين أمريكا الشمالية والجنوبية، ولا توجد علاقة جغرافية مباشرة لها بالهند. [المترجم]

(٦٦) قداسة القس بيدى (٦٧٢ - ٧٣٥ م) راهب إنجليزي.. عالم ومؤرخ، كرس حياته للمعرفة، فاشتهر بأنه أكثر الناس علمًا فى حينه. ونال لقب القداسة بعد وفاته، وله دراسات فى جميع فروع المعرفة، من الحساب وطبيعة الأشياء، إلى الشعر والموسيقى..إلخ. [المترجم]

(٦٧) روجر بيكون (١٢٢٠ - ١٢٩٢) الفيلسوف الإنجليزى، المعروف أيضًا بلقب المعلم المذهل، من أشهر الرهبان الفرنسيسكان، ركز على المنهج التجريبى، وله تمثال مشهور فى متحف جامعة أكسفورد، وكان على دراية وثيقة بعلوم العرب، خاصة بعد غزوهم لمراكز المعرفة فى كل من سوريا ومصر. [المترجم]

(٦٨) نيكولاس أوريسم (١٢٢٥ - ١٢٧٤)، أسقف كاثوليكي فرنسي، من رواد الفلسفة والاقتصاد والرياضيات ويعتبر من أبرز مؤسسي العلم الحديث. [المترجم]

(٦٩) القس وليـــام ويويل willam whewell (١٧٩٤-١٨٦٦) القس الإنجـــيلي الفيلسوف، من أهم الشخصيات المؤثرة في القرن التاسع عشر في بريطانيا، وهو باحث موسوعي. [المترجم]

(٧٠) الأب لاكتنانيوس(٢٤٥ - ٣٢٥)، مؤلف كبير، ومن المدافعين الكبار عن المسيحية، على الرغم من الاعتراض على خطأ بعض آرائه. [المترجم]

(٧١) كوزماس إنديكوبلوستس: رحالة مجري وجغرافي، عاش في الإسكندرية وجمع كثيراً من المعلومات ومن أهم الجغرافيين في أوائل القرون الوسطى. [المترجم]

(٧٢) واشنطن إيرفنج: كاتب قصصي أمريكي بارز في بداية القرن التاسع عشر، كتب كثيراً عن سير مشاهير التاريخ، ومنها ما كتب عن تاريخ محمد "صلى الله عليه وسلم"، وتاريخ جورج واشنطن، و غيرهما، ومنها أيضا كتابه عن كريستوفر كولومبس، بعنوان "حياة ورحلات كريستوفر كولومبس، في عام ١٨٢٨. [المترجم]

(٧٣) التعديل الدستوري الأول: صدر في ١٥ من ديسمبر ١٧٩١، لحماية حق المواطن في حرية الدين وحرية التعبير بعيداً عن تدخل الحكومة (ضمان حرية الدين) والفصل بين الكنيسة والدولة ونصه:

Congress shall make no law respecting an establishment of religion, or prohibiting the free exercise thereof; or abridging the freedom of speech, or of the press; or the right of the people peaceably to assemble, and to petition the Government for a redress of grievances..[[المترجم]

(٧٤) مذهب الخلق: إضافة إلى مضمونه بأن الله خلق الكون من لا شيء، فإنه يعتنق فكرة خلق المخلوقات على صورتها مباشرة دون تطور لها، وهو بذلك يعارض نظرية التطور. [المترجم]

(٧٥) أنصار مذهب الأرض الفتية (Young-earth)، أي الأرض التي لا يزيد عمرها في مفهومهم عن عشرة آلاف سنة.]المترجم[

(٧٦) لست خبيراً ولا مفسراً للإنجيل ولا يمكنني تناول هذا الموضوع بشكل جدي، لكن لابد أن اذكر ببساطة، أنني لا أفهم معنى قراءة الإنجيل "حرفيًا". حيث إن النص الذي تم تجميعه من مصادر متعددة يحتوي على عدد من المتناقضات الواضحة. لا تمثل القراءات المختلفة أية مشكلة للغالبية العظمى من المتدينين، الذين ينظرون إلى الإنجيل كوثيقة موحاة مليئة بالحقائق الأخلاقية، وليس كسجل دقيق لتاريخ الإنسان، أو تقرير كامل عن حقائق الطبيعة. ذلك للسبب الواضح في المثل التالي: كيف يمكن "للحرفيين" الذين يأخذون بحرفية النص، التوفيق بين قصص الخلق المتباينة في سفري التكوين ١، ٢ التي اتفقت آراء كل من شاورتهم في الأمر من المتفقهين، بأن مصادرها حتمًا مختلفة. في سفر التكوين الأول - الأكثر شيوعًا - أتم الله الخلق بالتتابع في ستة أيام، بداية من خلق النور إلى انفصال المياه عن السماء، إلى الأرض والنبات، إلى الإنسان بنوعيه: الذكر والأنثى (سفر التكوين]أول أسفار التوراة [الإصحاح الأول: ٢٧) "فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم". في الإصحاح الثاني من سفر التكوين (٢ : ٧) " وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض". ثم يخلق الله بعد ذلك النبات والحيوان، ثم جاء لآدم بكل الحيوانات البرية ليسميها. شعر آدم بالوحدة، فخلق الله له رفيقة أنثى من أحد ضلوعه [سفر التكوين الاصحاح الثاني: ٢١-٢٣[، "فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأه وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت". تجمع قراءاتنا العادية للروايتين، آخذة بالتسلسل الأساسي وبخلق الإنسان في النهاية من الإصحاح الأول، مستعيرة مشهد خلق المرأة من ضلع آدم من الإصحاح الثاني. كثيراً ما يندهش الناس عندما أشير إلى هذا التناقض والجمع (فحتى أكثر الناس تدينًا لا يدرسون الإنجيل كثيراً في هذه الأيام)، ويعتقدون أني مجنون بلا شك أو أهلوس، فأجيبهم بطلب مراجعتهم للنصوص (على الأقل مازالت معظم البيوت تحتفظ بالكتب الأساسية، بغض النظر عن مدى افتقارهم الشديد إلى كتب أخرى) فيصيبهم الاندهاش الشديد. احترس دائمًا مما تعتقد أنك تعرفه كأحسن ما يكون. [المؤلف].

(٧٧) سكوبس : جون ث. سكوبس John T. Scopes (١٩٠٠-١٩٧٠) مدرس بولاية تينسى، حوكم عام ١٩٢٥ لمخالفته قانون الولاية، بحظر تدريس التطور فى مدارس الولاية مع الالتزام بتدريس الكتب المعتمدة فقط من الولاية. [المترجم]

(٧٨) سكاليا : أنتونين سكاليا (Anthonin Scalia) أحد رجال القضاء الامريكى، عين مساعداً بالمحكمة العليا فى ١٩٨٦ ومتحدثًا محافظًا مفوهًا، من أنصار البحث عن أصل معنى الكلمات عند التصدى لتفهم المعانى. كان له بعض المواقف للدفاع عن حرية التعبير عن الرأى. [المترجم]

(٧٩) وليام جنينجز بريان (١٨٦٠-١٩٢٥)، سياسى أمريكى بارز ومسيحى متشدد، رشح نفسه للرئاسة ثلاث مرات دون جدوى. له مقترحات إصلاحية كثيرة تم الأخذ بها فيما بعد. كَرَّس وقته فى النهاية للتصدى للتطرف، وانضم مستشاراً لهيئة الاتهام الممثلة للولاية وقوانينها. [المترجم]

(٨٠) نص فقرة القانون المشار إليه:

..."that it shall be unlawful for any teacher in any of the Universities, Normals and all other public schools of the State which are supported in whole or in part by the public school funds of the State, to teach any theory that denies the story of the Divine Creation of man as taught in the Bible, and to teach instead that man has descended from a lower order of animals." [المترجم]

(٨١) كلارنس دارو: ممثل هيئة الدفاع عن سكوبس، ومن اللاأدريين. [المترجم]

(٨٢) هـ. ل. مينكين: صحفى من جريدة "بالتيمور سان" التى شاركت فى الدفاع عن سكوبس، تابع أحداث المحاكمة وصارت مقولته المذكورة عن بريان، من أشهر التعبيرات المبتكرة الساخرة. كما أنه صاحب الفضل فى تسمية المحاكمة بـ "محاكمة القرد" (Monkey Trial)، بكل ما تحمله التسمية من معان مجازية. [المترجم]

(٨٣) تشبيهات مجازية فلم يكن بريان "بابا" فى يوم من الأيام، إنما تحدث كثيرا كمن يلقى المواعظ أثناء المحاكمة، وشبهه بالإناء المصنوع من الصفيح، الذى يصدر

أصواتًا مزعجة لجعجعته في الجلسات. كذلك شبهه بمن يتزين بوضع شعار الكوكا كولا دليلاً على تفاهته وزهوه الفارغ. [المترجم]

(٨٤) كانت مدينة دايتون في ذلك الحين مدينة صغيرة مهملة، حيث لم يتعدَّ سكانها الألفين، وأكثرهم من المتطرفين دينيًا. [المترجم]

(٨٥) محاكمة سكوبس كانت أول محاكمة في التاريخ الأمريكي تذاع على الهواء مباشرة. [المترجم]

(٨٦) أو. جي. سيمبسون : ممثل ولاعب كرة أمريكي اتهم بقتل طليقته وصديقها في عام ١٩٩٤، وحظيت محاكمته بتغطية إعلامية لا حد لها، حتى سميت بمحاكمة القرن. [المترجم]

(٨٧) حَوَّل دارو ببراعة مسار أحداث المحاكمة، من النظر في مدى دستورية قانون الولاية، إلى مدى التوافق بين نظريات التطور والنص الديني . [المترجم]

(٨٨) قُدِّمَ في القضية بيان موقع عليه من ٧٢ عالمًا من الحاصلين على جوائز نوبل، بالإضافة إلى عدد من المؤسسات والأفراد الآخرين. [المترجم]

(٨٩) الحكم الاستخلاصي : *Summary judgment* حكم قضائي في الحالات التي تكون جميع أركانها مستوفاة ولم يعد في جوانبها شيء يستحق المحاكمة. [المترجم]

(٩٠) معظم مادة هذا الجزء سبق نشرها في مقالتي بعنوان " آخر حملات ويليام جنينجز بريان، " المنشورة في Bully for Brontosaurus, (W.W. Norton 1991) [المؤلف].

(٩١) الحزب الشعبي الأمريكي (حزب الشعب) حزب سياسي أسس في أمريكا ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ولم يستمر كثيرًا. ضم الحزب كثيرًا من العمال والمزارعين والتجار في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة للبلاد وانهيار الأسعار، وطالبوا بحق سك العملات الذهبية والفضية وتحريرها من سلطة الدولة واحتجوا على معيار الذهب، ولبريان أيامها خطبة مشهورة بعنوان (صليب من ذهب). خفت ضوء الحزب بعد انتخابات ١٩٠٤ و ١٩٠٨ وأعيد إحياؤه في عام ١٩٨٤. [المترجم]

(٩٢) أصل المثل: " No good deed goes unpunished "، غير معروف على وجه التحديد، وإن كان يعزى ابتداعه إلى أوسكار وايلد، وهو مشابه إلى حد ما القول الدارج فى العربية: "خيراً تعمل، شراً تلقى". [المترجم]

(٩٣) مدينة إيبرس Ypres (ليبر Leper حاليًا) على حدود بلجيكا، وقد شهدت معارك طاحنة أثناء الحرب العالمية الأولى، استعمل فيها الألمان الغازات السامة، وراح ضحية المعارك ما يربو على نصف المليون جندى وقد تم تدميرها بالكامل؛ لذلك ارتبطت تاريخيًا بهيروشيما، وإن اختلفت أسباب الدمار. [المترجم]

(٩٤) هما عائلتان عاشتا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. اتخذ الناس من عائلة جوك مثلاً على انتقال الميول الإجرامية بالوراثة، فى حين اتخذوا من عائلة كاليكاك مثلاً على وراثة التخلف العقلى . [المترجم]

الفصل الرابع

الأسباب النفسية للخلاف
هل بإمكان الطبيعة إشباع آمالنا؟

لم يكن عام ١٨٥٩ أحسن الأعوام بالنسبة إلى الشخص التقليدى من أنصار "أيام زمان". تكمن العلامة المميزة والرمز الذى لا يمكن التغاضى عنه، وسيستمر دائمًا (بقدر ما ستدوم حضارتنا على الأقل)، فى نشر داروين لكتابه "أصل الأنواع[٩٥]". تلقت نظرة داروين الخاصة بعالم محايد أخلاقيًا، وغير مشيد بالضرورة لإمتاع الإنسان (وليس بالضرورة واعيًا بوجودنا أو بأفضلياتنا للراحة)، دفعة قوية غير عادية، من نشر الطبعة الأولى للترجمة الإنجليزية المتحررة فى نفس العام، لرباعيات الخيام - المفكر الحر وعالم الرياضيات من القرن الحادى عشر - بواسطة إدوارد فيتزجيرالد **Edward Fitzgerald**، تنطوى كل رباعية على جوهرة فلسفية، تشير إلى الخضوع لعالم بلا مغزى داخلى أو شكل مرغوب.

إن اقتباس بعض السطور من الرباعيات قد يكون أفضل من الاقتباس التقليدى من داروين، فهى تعطينا نظرة أصدق عن مخاوف العصر الفكتورى الأوسط، عندما بدأت ثوابت القيم الأخلاقية فى التآكل، أمام القوة العارمة للنقلة التكنولوجية والتوسع الاستعمارى، وكلاهما مدفوع بالتقدم العلمي. تأمل هذا الفكر حول البلبلة الكونية برمتها :

لبستُ ثوبَ العيش لم أُستَشَر[٩٦].

وحِرتُ فيه بين شتى الفِكَر

وسوف أَنضو الثوبَ عنِي ولَم

أُدرك لماذا جئتُ، أين المفر

أو هذه الرباعية عن حالة الأرض المزرية (كحظيرة رثة لهوادج الجمال)، والطبيعة الملتوية لحياتنا:

تأمل حظيرة الهوادج المدمرة[٩٧].

بوابتاها تعاقب الليل والنهار

كم سلطان من بعد سلطان بروعته

ركب ساعته المقدرة ومضى فى طريقه

أو الرباعية التالية عن عدم قدرتنا على تعديل الطبيعة لتوائم آمالنا وأحلامنا:

يا حب، أ يمكننا سويا أن نتآمر مع القدر

لنقضى على كل هذا النظام المؤسف

ألن نبعثره قطعًا صغيرة، ثم

نعيد تشكيله كأقرب ما يكون لرغبات القلب

لماذا لا نفعل كما قال عمر الخيام فى واحد من أشهر أقواله: "اغنم المال ودع الفضل يذهب" (عادة ما يخطئ البعض بإسناد هذا القول لآخرين، مثل آدم سميث أو ج. م. كينز أو دونالد ترامب أو غيرهم من العالم الغربى).

يستند هذا الكتاب على مقدمة أساسية وغير معقدة، وهى التى تملى محتويات الكتاب وتسلسلها، وتستدعى ترديد مقطع معين فى عدة مواقف، على طريق منطق حجتي: الأروقة المتمايزة بسيطة، إنسانية، عقلانية، وبرمتها حجة مألوفة للاحترام المتبادل. معتمدة على عدم تراكب أو اختلاط مادة الموضوع، بين عنصرين للحكمة فى حياة مكتملة: نشاطنا ودوافعنا لفهم الصفات الحقيقية للطبيعة (رواق العلم)، وحاجتنا لتحديد معنى لحياتنا وللأسس الأخلاقية لتصرفاتنا (رواق الدين).

أوضحت معالم وحدود المناقشة فى الفصلين الأول والثانى، مع أمثلة مؤيدة من الرواد من الجانبين. ثم يفحص الجزء الثانى من الكتاب، المفارقة الظاهرة فى قلة فهم، مع تكرار المقاومة لهذا الحل العقلانى البارز، لـ "اللامشكلة" لخلاف مفترض بين العلم والدين. وهو اتفاق

مدعوم بكل المفكرين الكبار تقريبًا من كل من الرواقين. السببان الرئيسيان المحددان للفصلين الأخيرين من هذا الكتاب، يمكن أيضا تعريفهما وفهمهما ببساطة، ولو أن التاريخ الحقيقي للمناقشة ، المبني على سجل زمني للبلبلة، كان بكل وجه حق بيزنطيًا . عالجت أسباب الشق الأول ،التاريخي - في الفصل الثالث - تلكؤ كثير من رجال الدين عن الانسحاب من المراعي التي احتلوها رسميًا في عصر سابق، تحت نظرة مختلفة عن الحياة والطبيعة، ولكن الصحيح أنها تقع في رحاب الرواق الأحدث للعلم. (مع ذكر حالات استعمارية مماثلة لكثير من العلماء، الذين يمثلون غزوات غير شرعية، لرواق المناقشات الأخلاقية).

والآن أكرس هذا الفصل الأخير للشق الثاني الخاص بالسبب النفسي، الذي يتميز بالبساطة الشديدة التي يجب بدورها أن تتضح وتبرز، حتى في مستنقعات الحروب الحقيقية: نحن نعيش في وادٍ من الدموع (أو على الأقل في حقل من الحيرة والارتباك)، وعليه، فنحن نتعلق بقوة بأي عرض يمكن أن يقدم لنا راحة شاملة، مهما كان المنطق مشكوكًا فيه، ومهما كان متناقضًا مع الأدلة .

بدأت هذا الفصل بشكوك تقليدية، من شاعر فارسي من القرن الحادي عشر، حول خيرات الطبيعة وكرمها. ولنا أن ننظر في المقابل، إلى مصدر تقليدي مماثل من العالم الغربي، استكمالاً لشكل التخوف من الطبيعة، وقلقنا بشأن مكانتنا الخاصة، وقدرتنا على إضفاء معنى لما حولنا.

تمعن فى هذه السطور المشهورة (فى هذه المرة، شعر ثنائى رائع بدلاً من الرباعيات)، لمؤلفها ألكسندر بوب Alexander Pope بعنوان "استعراض تحليلي للإنسان (١٧٣٣-١٧٣٤):

موضوعًا على هذا البرزخ فى حالة وسطى

كائن داكن الذكاء وعظيم بوقاحة

عالقًا ما بين: فى شك ليعمل أم يستريح

فى شك أيعتبر نفسه إلهًا أم وحشًا

خُلِقَ النصف ليقف، والنصف للسقوط

الرب العظيم لكل شيء، ورغم ذلك فريسة للكل

الحكم الأوحد للحقيقة، إطاحات خاطئة لانهائية

المجد، اللطف ولغز العالم.

لابد لهذا القلق المركب حول الطبيعة وقدرة الإنسان على الفهم، أن يولد – حسب التعبير اللافت للنظر والمقتبس من سياق الطب النفسى الحديث – (أوهام للنجاة). نحن نتطلع لوضع أنفسنا على كوكب رحب وثير، يسوده الخير والدفء، مخلوق ليزودنا باحتياجاتنا المادية، ومصمم لتسيدنا وإمتاعنا. يقع هذا الحلم بالغوث فى نطاق المعانى (وبالتالى فى نطاق رواق الدين)، ويبدو كأحلام اليقظة، ويفرض للأسف طلبات محددة

وغير واقعية، على حقيقة تكوين الطبيعة (فى نطاق رواق العلم). لكن الطبيعة كما نعرفها - وكما وجدت منذ ٤,٥ بليون سنة، قبل أن نأتى لنفرض عليها تفسيراتنا الخاصة، ترسل لنا بتحياتها المتسامية بلا مبالاة، ولا تبدى تعاطفًا لإشباع أحلامنا. بناءً على ذلك، نجد أنفسنا بلا بدائل، ولا بد أن نقطع الرحلة الشاقة بأنفسنا؛ ألا وهى رحلة البحث عن مغزى، فى حدود إمكانياتنا الهشة، وفى مكان أقرب ما يكون إلى بيتنا، ومن المستحيل النفاذ إليه.

علينا - إذًا، بكل تفاؤل واعتزاز - أن نحتضن المطلب العنيد للأروقة المتمايزة بالقبول، مع الإقرار بالصفة الشخصية للصراعات الإنسانية حول القيم والمعاني، ونكف عن البحث عن إجابات مؤكدة فى تكوين الطبيعة. لكن كثيرًا من الناس لا يحتملون التسليم بالطبيعة (كموضوع انتقالى)، مثل غطاء الطفل الدافئ الذى يهيؤنا للفتوة السليمة، فإذا فعلنا ذلك (ولا بد)، يمكن حينها أن تبزغ الطبيعة فى شكلها الحقيقى، وليس فى الشكل المشوه الذى تعكسه المرآة لاحتياجاتنا، ولكن كأروع رفيق لنا. ساعتها فقط، نتمكن من ضم الرقع المبنية بأروقتنا المنفصلة، لنصنع منها دثارًا متماسكًا اسمه الحكمة.

أما البحث المضلل عن مغزى ذاتى داخل الطبيعة، وهو يمثل الانتهاك الأعظم والأقدم للأروقة المتمايزة، فقد اتخذ شكلين رئيسيين فى التقاليد الغربية. سأطلق على الأول حل "المزمور الثامن".

أو كما يقول نص المزمور: "كل شيء تحت قدميه"، تكريمًا لصراحة ودقة طرح التساؤل: كيف يتسنى لنا، حتى أن نفكر أو نأمل في أي مغزى داخلي مناسب، ونحن بهذه الضآلة الكونية؟!

"إذا أرى سمواتك عمل أصابعك القمر والنجوم التي كونتها، فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده"(٩٨) ؟!

وكذلك الإجابة الصارخة على أحلامنا المغرورة:

"وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله"(٩٩)

ثم بعد ذلك التركيب الخاطئ للطبيعة كما سبق بيانه،

"جعلت كل شيء تحت قدميه: الغنم والبقر جميعًا وبهائم البر أيضًا وطيور السماء وسمك البحر السالك في سبل المياه"(١٠٠).

بمعنى آخر، فإن "جعلت كل شيء تحت قدميه"، تجد لها معنى في الطبيعة بالجهر بسمونا على باقي المخلوقات، أو للدفاع عن وجهة النظر المتطرفة، بأن الطبيعة وجدت لخدمة أغراضنا. إذا كان الحديث ينصب في هذا الشق من الإجابة على جانب الإنسان، فإن الأسلوب الثاني القائل بأن "كل الأشياء براقة وجميلة"، يشير إلى الدفء والاستقامة الأخلاقية، بصفتهما النموذج الصريح للطبيعة. فإذا شئنا أن نندمج في هذه الشمولية المشرفة، فلابد لنا أن نتبع - كما في الجزء الأخير من مثل السامري الصالح - "اذهب أنت أيضًا واصنع هكذا"(١٠١).

يتعثر كل من هذين الحلين الشموليين، أمام عناد الطبيعة ورفضها. فإن الحلول التى تعبر عن آمالنا فى التسيد والمواساة، تتطلب إعادة تشكيل الطبيعة فى قالب معين، لكن الطبيعة تقاوم وترفض تشكيلاتنا المقترحة، وذلك عبر استعراض منظومة من الأنماط الواقعية، المكتشفة داخل نطاق رواق العلم. (يجب ملاحظة أن هذه الحقائق المتعارضة، لا تدحض (الدين) تحت مظلة الأروقة، ولا حتى تختلف مع المنظور الدينى للطبيعة، إنما ينحصر الخلاف فى تأويلات محددة، ينادى بها بعض المتدينين، كما ينادى بها بالمثل، كثير من غير المتدينين).

لن أعيد باستفاضة كل الجدل المعتاد، المناهض لنموذج "كل شيء تحت قدميه"، ويمكنك أن تراجع كتابى السابق "بيت كامل"[١٠٢]. (Full House)، أو أى كتاب معاصر آخر، عن قواعد التطور أو تنوع الحياة. قد يكون "الإنسان العاقل" Homo Sapiens، أكثر الأنواع الحية عقلاً على الإطلاق، ولكننا يجب ألا ننسى أننا لا نمثل إلا غصيناً صغيراً، نبت بالأمس فقط، على أحد الفروع لشجرة الحياة ؛ كثيرة الفروع واليانعة الخضرة. ليس لهذه الشجرة ميول للنمو فى اتجاه معين، ولا يمثل طرفنا الصغير من الفقاريات، إلا واحداً من بين أشباه كثيرة، ولا يمكن حتى اعتباره الأول على أقرانه، وما "الإنسان العاقل" إلا نوع حى واحد من بين حوالى المائتين من رتبة "الحيوانات الرئيسة" Primates، على فرع يحمل حوالى أربعة آلاف نوع من الثدييات، على طرف مكون من حوالى أربعين ألفاً من أنواع الفقاريات، على فرع

الحيوانات الكبير الذى تتسيده الحشرات بأنواعها التى تربو على المليون ، أما الفروع الأخرى لشجرة الحياة ، فلها أعمار أطول وفرص مستقبلية كبيرة للاستمرار بنجاح، مع الوضع فى الاعتبار أن البكتيريا تمثل الجذع الأساسى للشجرة، وقد سادت دائمًا تاريخ الحياة، بما لها من خصائص التنوع والمرونة، واتساع مجالات الظروف البيئية اللازمة لمعيشتها، وكذا اتساع مجال أشكالها الحياتية، هذا بالإضافة إلى التفوق العددى الصارخ.

يمكن توضيح الزيف الزائد، لمقولة كل شىء براق وجميل ، من خلال المثل التقليدى الشائع فيما ينشر حول تاريخ الطبيعة؛ وهى حالة كثيرًا ما يتغاضى عنها المؤيدون، وجابهها داروين بدفاعه الأصيل عن الأروقة المتمايزة فى مواجهة المعوقات النفسية.

لكن إقرارًا للعدل، فقد عرف دائمًا مؤيدو "كل شىء براق وجميل"، عدم قدرتهم على إثبات قضيتهم، من خلال حيوانات الباندا ذات الفرو الجميل، أو بهرجة الفراشات ذات الألوان الزاهية، أو الاهتمام والرعاية النبيلة لوالد بامبى [١٠٢]. إن وجهة النظر المقابلة، لا تنكر ما لبعض المخلوقات من جاذبية ترضى تذوقنا الجمالى، أو توقظ فينا الاستحسان الأخلاقى (ذلك لأننا قرأنا تصرفاتهم الواضحة، فى ضوء الحكم البشرى غير الملائم، وليس بسبب فهمنا للأسس التطورية لسلوكيات المخلوقات نفسها، وهما عادة موضوعان مختلفان تمامًا). تحفل الطبيعة – فى ظاهر الأمر – بسلوكيات تأباها عاداتنا الأخلاقية، وتصفها بأنها

كريهة أو قاسية. تلك الأمثلة المعارضة الشائعة - وليست الأمثلة العادية المؤيدة - تمثل التحدى الذى يجب على المؤيدين تخطيه، إذا أرادوا حقًا، القول بوجود المغزى الأخلاقى للحياة مكشوفًا فى حقائق الطبيعة، لأننا إذا سمحنا للطبيعة بتحديد معالم الأخلاقيات، فعلينا - إذًا - أن ندعى، إما أن أساليب الطبيعة تحمل فى داخلها القيم التقليدية، بالحب والرقة والطيبة والتعاون، وإما علينا أن نقر فى النهاية، بأن الجنرالات الألمان الذين ذكرهم كيللوج، كانوا على حق بالرغم من كل شيء. وعلينا أن نقر أن "القاعدة الذهبية" "والوصايا العشر"، لا يمثلان إلا تخيلات لا يمكن الوصول إليها، وأن النموذج الأخلاقى يشمل القتل والسلب والاغتصاب.

حقًا إن المصاعب التى تواجه "كل شيء براق وجميل" عميقة جدًا، ويكفى أن نتأمل حجج داروين، القاطعة بأن معظم الحالات الخاصة بالتأييد الظاهرى، تسجل فى واقعها حقيقة مغايرة، إذا دققنا النظر فى الأعماق:

"نحن نشاهد بسرور وجه الطبيعة المشرق، وكثيرًا ما نرى وفرة الغذاء، لكننا لا نرى أو ننسى أن الطيور التى تغنى حولنا دون طائل، تعيش على الحشرات أو الحبوب وأنها بذلك تدمر الحياة بشكل مستمر. ونحن ننسى أن هذه الطيور المغردة، وبيضها، وأفراخها، يتم تدميرها على نطاق واسع، بواسطة الطيور والحيوانات المفترسة"(١٠٤).

إذا كـان على من يدعـون بأن الخيـر يمثل جزءًا داخليًا أصيـلاً لا يتجزأ من الطبيعة، فى سبيل التصدى لإحدى الجهات، يجدون ممراً مستقيماً ضيقًا، فى مجرى تحف به المخاطر من الجانبين، فعليهم إعادة التأكيد على صحة التأويل التقليدى للمظاهر العادية، فى مواجهة حجج داروين المضـادة المذكورة أعلاه، ولتـفادى الجبـهـة الأخرى، كان عليهم مواجهة المهمة الأصعب، بإقناع الناس بأن المواقف التى يبدو فيها قبح الطبيعة ظاهراً، فإنها – فى حقيقتها – تجسد الفضيلة الأخلاقية عند التعمق فى فهمها.

فى سبيل بناء دفاع فى هذا الجدل المستبعد، فقد قام مؤيدو "كل شىء براق وجميل" باتخاذ سلوك إحدى الحشرات كحالة للاختبار، إنها حشرة من الزنابير النمسية Ichneumonid wasp (هو ليس اسم حشرة واحدة بل يطلق على مجموعة تضم مئات الأنواع). لا يمكن من منظور القيم الإنسانيـة، النظر إلى تصـرفات هذه الحشرة التناسلية، إلا على أنها رهيبة ومقرفة للغاية. تبحث الحشرة الأنثى عن حشرة أخرى عادة ما تكون دودة (يرقة فراشة مثلاً وما شـابه ذلك) كحاضنة لصغارها، ثم تقوم إمـا بحقن بيضـهـا داخل جسم الحاضنة، أو تلدغ الفريسـة لدغة تصيبـهـا بالشلل، ثم تضـع بيضـهـا فوقـهـا. عندمـا يفقس البـيض، تأكل اليرقات جسم الفريسـة الحية – وكثيراً مـا تكون مشلولة – من الداخل ولكن بحرص شديد، مبقية على القلب وغيره من الأعضاء الحيوية إلى النهاية، لكى لا تموت الحاضنة وتتحلل، وتفسد بذلك حلاوة الجائزة، (من

منطلق مناخ المقارنات الزائفة، فيمكن تشبيه هذا السلوك بالعقوبة القديمة للخيانة العظمى، بالشد والتربيع،(١٠٥) وهى عقوبة مصممة لذات الغرض الكئيب بتأجيل الوفاة، للحصول على أقصى درجات التعذيب). تنبه ج. م. فابر- J. M. Fabre أشهر عالم حشرات فى عصر داروين - للأمر، وقد وصف الموقف بطريقته الفنية المألوفة:

"يمكن رؤية الصرصار منهكًا مضعضعًا، تتحرك بالكاد قرون استشعاره وأقسام بطنه، يفتح ويغلق فكه الفارغ، وقد يتمكن من أن يحرك قدما. لكن اليرقات آمنة بداخله، تبحث عن أعضائه الحيوية، وهى محصنة ومعفاة من العقاب. يا له من كابوس للصرصور المشلول ! "

كيف يمكن الآن الدفاع عن "كل شىء براق وجميل"، فى مواجهة هذه الحقائق المهولة (على الرغم من أن كل الأمور يتم الحكم عليها بالتأكيد، من خلال الضوء غير المناسب للحكم البشرى، إلا أن "كل شىء براق وجميل" تبرز هذا الضوء بوضوح، بمثابة واجهتها الرئيسية)؟! تَقَدَّم عدد من العلماء ممن ينكرون مبدأ الأروقة المتمايزة، ويرغبون فى تأكيد قدرة حقائق الطبيعة، على التأسيس للأخلاقيات والقيم الإنسانية، بعروض ومقترحات عدة. نتأمل ثلاثة أمثلة منها، وكلها مقدمة من رواد أنصار الطبيعة فى عهد داروين، وليسوا من الهامشيين:

١- قد تعانى الحشرة الحاضنة المشلولة، والمسألة برمتها ليست حسنة، لكن الطبيعة موجودة من أجل الإنسانية، وتمثل أى آلية نيات

الطبيعة الحسنة، من أجل صالح الإنسان. فمثلا يسجل تشارلز ليل Charles Lyel حجته فى كتابه "أُسس علم طبقات الأرض" Principles of Geology (١٨٣٠ - ١٨٣٣) ، بأن أى فحص دقيق للحشرات المؤذية - بما فى ذلك موت الكثير من الضحايا الحاضنة ليرقات الزنبور- إنما يسجل بناء الطبيعة بما يخدم الإنسان؛ إذ إن هذه الحشرات قد تدمر زراعتنا. "ألم تضع العناية الإلهية أسباباً فاعلة للإبقاء عليهم فى حدودهم الملائمة".

٢- تبدو بعض مناحى النظام كأنها فى حضيض القيم الأخلاقية، لكن مع التأمل فيها بشمولية، يتضح أن الأمثلة الحسنة الاسترشادية لسلوك الإنسان، تفوق بكثير الأمثلة السيئة. كتب وليام كيربى William Kirby - قس برهام[١٠٦] Barham، ورائد علم الحشرات فى بريطانيا - عن الحب الواضح الذى يتمثل فى اهتمام الأمهات بتجهيز ما يلزم لصغار لن تراهم أبداً:

"عدد كبير منها محكوم عليها بالموت، قبل أن تخرج صغارها إلى الوجود، لكن حتى فى تلك الحالات، فإن عاطفتها لم تمت. فإذا راقبت عنايتها الشديدة لتأمين وضمان استقرار الصغار، فلن يمكنك تجاهل حبها لنسل محكوم عليها بألا تراه."

سجل كيربى أيضا كلمة رقيقة لليرقات الغازية، مشيداً بها، لإمساكها باختيارها عن التهام الأعضاء الحيوية، لضمان استمرار

حـيـاة الدودة. فـهـل يمـكننـا أيضـا التـعـامل مـع مـواردنا الطبـيـعـيـة بمثل هذه العناية!

يبرز أحد الأحداث المثيرة للإعجاب من وسط هذه العملية المفعمة بالقسوة، فعلى الرغم من قيام يرقات الزنبور يوميًا – وقد تستمر لأشهر – بقرض أحشاء الدودة، حتى تكون في النهاية قد افترست كل شيء، ما عدا الجلد والأمعاء، فهي تتفادى طوال هذه المدة إصابة الأعضاء الحيوية، كما لو كانت على وعي باعتماد بقائها على حياة الحشرة التي تفترسها! ماذا ياترى سيكون انطباعنا إذا حدث موقف مماثل بين عرق ذوات الأربع؟! فإذا وجد – مثلاً – حيوان يقتات أحشاء الكلب، ملتهمًا الأجزاء غير الأساسية للحياة، مبقيًا بكل حذر على سلامة القلب والشرايين والرئة والأمعاء، ألا نعتبر ذلك المثل عن الامتناع الغريزي، أعجوبة كاملة تقرب من كونها معجزة؟!

٣– بكل تأكيد، تبدو الديدان المشلولة في عذاب طاحن وهي تنبض وتتلوى، لكن يبدو أننا مخدوعون. فأولاً، عندما تتلوى الدودة، فإن ذلك إنما يحدث بسبب حركة اليرقات وهي تعتلف بداخلها، وثانيًا فإن الحيوانات الدنيا ذاتية الحركة ولا تحس بأي ألم. كتب سانت جورج ميفارت St. George Mivart حجته في ذلك، وكان من النقاد البارزين. بنى حجته على أساس أن كثيراً من الناس الوجهاء اللطاف، خدعوا بالشكل الظاهري لتألم الحيوانات، ثم استخدم حجة عنصرية، كانت مفضلة حينذاك، مفادها أن الإحساس بالألم لدى البدائيين من البشر،

أقل بكثير منه لدى القوم المتقدمين المتحضرين، انطلاقًا من هذا المفهوم، هبط "ميفارت" إلى أسفل سلم الحياة، إلى منطقة ينعدم فيها الألم بشكل ملحوظ، فيقول عن الألم العضوى :

"يعتمد إلى حد كبير على الحالة العقلية للمتألم، فهو يوجد فقط فى حالة الوعى التام، ويصل إلى ذروته فقط لدى الأشخاص المنظمين، وقد تأكد للكاتب أن أعراق البشر المتدنية، تبدو أقل إحساسًا بالألم العضوى من الأعراق الأكثر تحضرًا وتهذيبًا، بناءً على ذلك فلا يوجد الإحساس الشديد بالألم إلا فى الإنسان فقط؛ ذلك أن للإنسان وحده القدرة الفكرية على استعادة لحظاته الماضية، وتوقع اللحظات القادمة؛ مما يشكل الجزء الأعظم من مرارة المعاناة، على الرغم من قدرة الحيوانات على تحمل الوخز المؤقت الممثل للألم. وهو حقيقة واقعة، إلا أنه لا يمكن مقارنة شدته بمعاناة الإنسان، الناجمة عن تميزه المتفرد بالوعى الذاتى ."

لم يوجد من يمكن أن يقارن بـ مارك توين[١٠٧] **Mark Twain**، فى نقده اللاذع لتكبر العلماء، خاصة عندما يمتد إلى مناطق (مثل الأخلاقيات) لا دخل للعلم بها . كتب يومًا يسجل حوارًا عائليًا بعنوان "بيسى الصغيرة ستساعد العناية الإلهية". تصر الابنة على أن الله الذى يتصف بالخير والكرم، لا يمكن أن يصيب صديقها "بيللى نوريس" بمرض التيفوس، أو يرسل بالكوارث الباطشة إلى الناس الطبيعيين. تجيبها الأم بضرورة وجود سبب قوى وراء كل ذلك. فى آخر فقرة لها، تنتهى تقريبًا بها المقالة، وتتضمن حالة الزنبور التقليدية:

"يقول مستر هوليستر إن الزنابير تصيد العناكب، ويحشونها وهى حية فى أعشاشهم فى الأرض، يا أماه! وهناك يعيشون ويعانون أيامًا وأيامًا وأيامًا؛ حيث تقوم الزنابير الصغيرة الجائعة بمضغ أرجلهم، ويقرضون طوال الوقت فى بطونهم، حتى يكونوا صالحين ومتدينين، ويمجدوا الرب على رحمته الأبدية. أعتقد أن مستر هوليستر إنسان رائع وطيب جدًا؛ فعندما سألته، إن كان من الممكن أن يتعامل هو نفسه هكذا مع العنكبوت، قال إنه سيكون ملعونًا إذا فعل، ثم إنه ... مممم ... هل أغمى عليك يا أمى؟"

فى عام ١٨٦٠ وبعد قراءته لكتاب أصل الأنواع، كتب "أسا جراي" إلى تشارلز داروين موضحًا (كما سبق مناقشته)، احتمال قبوله بفكرة الانتقاء الطبيعى، باعتبارها إحدى وسائل عمل الله. إلا أنه مازال مضطرًا لاستمرار البحث عن هدف أخلاقى، وراء كل النتائج المتعلقة بالتطور. أجابه داروين بأسلوبه الصريح الرائع، بأنه ليس فى إمكانه كعالم، حل مسائل حول الأخلاقيات والمعانى النهائية؛ لكنه – فى ذات الوقت وببساطة – لا يستطيع تصور احتمال توافق خصائص الطبيعة الواقعية، مع القيم السائدة. من المثير للاهتمام، أنه ذكر مثالين عن السلوكيات، لا يمكن النظر إليهما إلا كمثالين مثيرين للقلق الشديد، إذا ما تم تحليلهما (بأسلوب خطأ، هكذا أصر داروين)، فى ضوء القيم الأخلاقية الإنسانية. المثال الأول، ملاحظة شائعة (ومثيرة للقلق)

لأصحاب الحيوانات الأليفة، والمثال الآخر أقل ذيوعًا، هو مثال الزنبور التقليدى المرعب:

"أعتقد أننى لا أستطيع أن أرى بوضوح، كما يفعل غيرى، وكما كنت أتمنى أن أكون، الدليل على وجود تخطيط ومنفعة على جميع جوانبنا. يبدو لى أن هناك بؤسًا كثيراً فى العالم، لا أستطيع أن أقنع نفسى أن إلهًا خيراً، قادراً، قام عمداً بخلق الزنابير، بالنية الواضحة لتغذيتهم داخل أجسام الصراصير، أو لهو قطة بفأر".

قدم كل من داروين ومارك توين - كل بأسلوبه الخاص - الرد المناسب، وقرع ناقوس الوفاة لمسألة "كل شىء براق وجميل"، ولكل الجدليات الزائفة، التى تبحث عن قاعدة لحقيقة الأخلاقيات (أو أى مفهوم آخر داخل رواق الدين، بما فى ذلك طبيعة وصفات الله) من خلال التركيب الحقيقى للعالم الطبيعى. تتطلب الأروقة المتمايزة، الفصل ما بين حقائق الطبيعة، والقيم الأخلاقية للبشرية - هل أجرؤ على القول، بأن الزوجين لن يلتقيا؟

لا يمكن وصف قصة الزنابير إلا بكونها مريعة، إذا قيست بمعاييرنا الأخلاقية، لكن إقحام هذه القضية الواقعية "بمعاييرنا"، لا يمكن تبريره فى عالم طبيعى، لا هو مصنوع من أجلنا ولا نسيطر عليه، وعاجز - على أية حال - عن تقديم أية توجيهات أخلاقية مناسبة للإنسان.

إن افتراس الديدان الحية المشلولة، ما هو إلا خطة تطورية ناجحة للزنابير، ودليل على أن الانتقاء الطبيعى قد تبرمج داخل خلفيتهم السلوكية. فالديدان لا تعانى من أجل تعليمنا شيئًا؛ والأمر لا يعدو كونه مُعبراً ببساطة عن هزيمتهم فى خضم اللعبة التطورية. قد يطورون فى المستقبل نظامًا ملائمًا للدفاع، وبذلك يقطعون السبيل على مستقبل الزنابير، كما أنه من المحتمل - بل فى الغالب - أنهم لن يفلحوا.

حمام الطبيعة البارد ودفاع داروين عن الأروقة المتمايزة

نُظر إلى داروين كشيء غبيّ، أو كإنسان مهمل في أقل تقدير؛ نظراً إلى كثرة المنكرين لوضع تصور لمعنى الحياة الإنسانية، نابع من إعادة ترتيبه الثوري للمعرفة الحيوية. ألا يجب أن تمنحنا إعادة تفسير الطبيعة نوعًا من الإرشاد، للإجابة عن أكبر الأسئلة عبر العصور؟ لماذا نحن هنا؟ وما معنى ذلك كله؟ كيف يمكن لأي شخص أن ينظر بهذا العمق في قلب السببية البيولوجية وتاريخ الحياة والنظام النهائي للأشياء، ثم لا يمدنا بعد ذلك إلا بهذه القطرات الزهيدة، عن مغزى الحياة والنظام الكلي للأمور:

يتملكني شعور قوي بأن الموضوع برمته عسير جداً على ذكاء الإنسان، كما لو جاز لكلب أن يتفكر في عقل نيوتن[١٠٨].

هل كان داروين جبانًا؟ مثقفًا هزيلاً؟ ذا عقل ضئيل؟ أم كان نموذجًا للعالم الذي يصف الشجرة ويهمل النظر إلى الغابة، أو يدقق الإنصات إلى نغمة ولا يسمع السيمفونية؟

أرى داروين بطريقة مختلفة تماماً، فقد احتفظ طوال حياته بافتتان أساسى عميق، نحو الأسئلة الكبرى التى تدور حول الأخلاقيات والمعانى. وقد تعرف الأهمية الفائقة لهذه التساؤلات، عرف أيضاً نقاط القوة وحدود مهنته، كما فهم أن قوة العلم لا يمكن تقدمها وجمعها، إلا على أرض رواقها الخاص الخصبة. أصّل داروين لآرائه حول العلم والأخلاقيات فى إطار مبدأ الأروقة المتمايزة.

لم يستخدم داروين التطور للترويج للإلحاد، أو لعدم وجود مفهوم للإله يمكن أن يتمشى مع تركيب الطبيعة. على العكس، جادل بأن حقائق الطبيعة - كما يجب قراءتها داخل حدود رواق العلم - لا يمكنها حل وجود إله، ولا تحديد كنهه، أو المغزى الشامل للحياة، أو التأسيس السليم للأخلاقيات، أو أى سؤال آخر داخل إطار الرواق الآخر للدين. وإن كان كثير من علماء الغرب قاموا على مر الأيام، بالاستشهاد بمفهوم القدسية الوامض الضعيف، لإعلان استحالة التطور، إلا أن داروين لم يكن ليقع فى الخطأ المتعجرف نفسه، ولكن فى الاتجاه المعاكس، بادعاء أن حقيقة الطبيعة تملى إلغاء وجود الله.

سأذهب إلى أبعد من ذلك، وأدعى أننا كثيراً ما أسأنا فهم وجهة نظر داروين، حول العلاقات بين الطبيعة ومغزى الحياة الإنسانية. إن موقف داروين المتجذر فى الأروقة المتمايزة، لهو موقف صلب ويقود إلى الحرية فى النهاية. لكننا كثيراً ما أخطأنا قراءة آرائه، باعتبارها

انهزامية تشاؤمية واستعبادية. وأقترح أن نسمى وجهة نظر داروين، بنظرية الـ حمام البارد للطبيعة.

تتضمن الحجج الأساسية ثلاثة مقترحات، فى ترتيب ضمنى محدد:

١- الإفادة الأساسية للأروقة المتمايزة. تبقى حقائق الطبيعة كما هى، وليس لها فى الأساس، أن تجيب عن أسئلة دينية تتعلق بالله، أو المغزى، أو الأخلاقيات.

٢- يوجد بديلان للطبيعة، فبعيداً عن قيود الآمال والاحتياجات الدينية، تبقى الطبيعة حرة لاتخاذ أى شكل، عندما تُقرأ فى الضوء الخاطئ لتحكيم الأخلاقيات، والجماليات الإنسانية. تأمل فى مختلف الإغراءات، التى يوحى بها احتمالان على طرفى النقيض: يحتمل أن تكون الطبيعة عن طريق الصدفة البحتة، متمشية مع ما نفضله من دفء ومأوى وثير، ويحتمل أن تكون كل المخلوقات لطيفة وجميلة فى نظرنا، ومن الجائز أن يتغلب التعاون السلمى فى معظم الأحيان على التنافس الشرس. قد يكون جبل أشعيا المقدس؛ حيث يقيم الذئب مع الحمل، ويرقد الفهد مع الطفل، معبراً عن التسجيل الفعلى لوضع حقائق الطبيعة، وليس فقط أحلامنا الشاعرية. على الطرف النقيض، لعل الطبيعة نادراً ما تتمشى مع آمالنا، ومن المحتمل أن نساوى بين دودة شريطية كريهة، وكل طاووس جميل، ويرقات الزنابير تعتلف داخل

صرصور حى، وكل دولفين انتشل غريقًا عاجزًا وأوصله لبر الأمان، وبين انتصار التكيف التطورى، بفقد التفاصيل المعقدة داخل جسم أحد الطفيليات، و كل انتصار للتكيف الطبيعى، بزيادة عقل الإنسان فى السلف القديم.

انطلاقًا من منطق الأروقة المتمايزة، فان إمكانية التحقق من صحة أى من الطرفين لا تمثل ذرة من الأهمية. إنما المهم أننا لن نستطيع استخلاص أية رسائل أخلاقية أو دينية، من أى شكل حقيقى تتخذه الطبيعة، لا من أقصى درجات الدفء والمستقر الوثير، ولا من أقصى درجات الكراهية والاشمئزاز.

لكننا نستطيع التعرف على نقطة الضعف الأولى للإنسانية الهشة، نزعتنا الطبيعية لاحتضان الأمل واجتناب المنطق، ميلنا إلى تصديق ما نرغب فيه بدلاً مما نراه بالفعل. فى ضوء هذا الضعف، سيحرقنا الإغراء بالوقوع فى خطأ جسيم، إذا ما أخذنا بالفرضية المتطرفة الأولى، بأن حقائق الطبيعة تميل - بصفة عامة - لتتطابق مع رغباتنا. سننخدع ساعتها لانتهاك الأروقة المتمايزة، ونسارع رأسًا إلى الخلط بين الحقائق والقيم والمعانى. ألن نكون أحسن حالاً. إذا ما فندت الطبيعة - لأسباب مساوية بالصدفة - آمالنا ورغباتنا فى معظم الأحوال؟

٣ - حمام بارد منعش أفضل من عناق دافئ خانق. ليس للطبيعة أخلاق، وهى ليست لا أخلاقية. فهى مشيدة بلا مرجعية مستندة إلى هذا

المفهوم البشرى المحض. يمكن القول مجازاً، بأن الطبيعة وُجدت منذ دهور بعيدة قبل أن نوجد، وإنها لم تعلم أننا قادمون، كما أنها لا تبالى بنا. لذا سيبدو غريباً جداً، إذا صح الاحتمال المتطرف الأول، باعتبار الطبيعة ممثلة للأخلاق والجماليات التى نفضلها. لا شك أن الوصول يوما ما بالصدفة، مهما بعد، إلى مثل هذا التلاؤم، فى ظل منظومة مستقلة ذات تركيب معقد مشابه، لهو احتمال بعيد جداً.

فى الحقيقة وبكل الاعتبارات المخلصة، فإن هذا النوع من التلاؤم لا وجود له، فالطبيعة لا تتطابق مع أى من التحديدات البشرية المتطرفة. والطبيعة لا تتلاعب بالأرقام والحسابات، كى تصبح إما دافئة جميلة وثيرة، وإما قبيحة كريهة. الطبيعة هى كما هى، بكل تعقيداتها وتنوعاتها، وبكل اللا مبالاة التى تتميز بها تجاه رغباتنا. لذلك لا نستطيع استخدام الطبيعة كمصدر لتعاليمنا الأخلاقية، أو للإجابة عن أى سؤال داخل نطاق الدين. ولا يمكننا بالتأكيد اتباع العادات الثقافية الإسفنجية القديمة، بالبحث عن اليقين الأخلاقى، من خلال الأساليب الدافئة الوثيرة المفترضة للطبيعة. كذلك لا يمكننا أن نقبل الجدل الملتوى المضاد لـ. ت. هـ. هاكسلى، الذى سجله فى مقاله التحليلى (التطور والأخلاق ١٨٩٣)، الذى رأى فيه أنه ما دام التطور ينتهك كل المعايير الأخلاقية لسلوك الإنسان، فيجب البحث عن الدروس الأخلاقية للطبيعة، من خلال تعلم جميع نماذجها، ثم التصرف بعد ذلك بالعكس على طول الخط!

تقتضى ممارسة الأفضل أخلاقيًا - الذى نسميه الخير أو الفضيلة - نهجًا سلوكيًا، هو فى جميع الأحوال، معاكس لما يؤدى إلى النجاح فى النضال الكونى من أجل الوجود. حيث يتطلب الأمر ضبط النفس، بدلاً من قسوة تأكيد الذات. وبدلاً من استبعاد كل المنافسين، فعلى المرء أن يتسم ليس فقط باحترام، بل عليه أن يساعد إخوانه الآخرين. ثم إن على المرء أن يتبرأ من نظرية الصراع من أجل الوجود، فإن القوانين وتعاليم الأخلاقيات، تتوجه نحو كبح جماح النظام الكونى .

يجادل داروين فيقول إنه بدلاً من ذلك، يجب علينا الإقرار ببساطة، بأن الطبيعة لا تقدم أية تعليمات أخلاقية على الإطلاق. بأسلوب آخر، يجب أن نأخذ - فى النهاية - الحمَّام البارد، بأن نغوص فى الطبيعة، واضعين فى الاعتبار أننا بالنسبة إلى هذا التساؤل فقد ذهبنا إلى المكان الخطأ. قد يصدمنا الحمام البارد فى البداية، لكن مع إحساسنا بالانتعاش فى هذا الوسط المنشط، سيتضح لنا أن الغمر لم يكن سيئًا ولا مصيبًا بالاكتئاب، على العكس فسنراه مبهجًا ومحرراً. فإذا توقفنا حينها عن البحث عن الحقيقة الأخلاقية وسط الواقع المادى، فقد نستطيع فى النهاية تقدير روعة الطبيعة وقواها الهائلة، ونستطيع أن نجيب عن الأسئلة الداخلة فى نطاقها بطريقة أوفق. وعندما ننبذ معزوفة المصادر الزائفة والزاعقة، فسنشعر بالحرية للبحث عن إجابات للأسئلة المتعلقة بالأخلاقيات والمعانى فى المكان الصحيح، أى داخل أنفسنا .

ذكرت فى الفصل الأول، اعتبارى خطاب داروين لـ "أسا جراي"، كأفضل بيان سجل حتى الآن، حول العلاقة السليمة بين الطبيعة الحقيقية والأخلاقيات الإنسانية، أو بمعنى أشمل، العلاقة بين العلم والدين. أعود الآن إلى منطق حجة داروين المتسع، فى تشييد نظرية الحمَّام البارد للطبيعة، كعنصر مهم لتحرير مبدأ الأروقة المتمايزة. نتذكر أن داروين بدأ باستنكار حول مدلول التطور وعلاقته بالتساؤلات الدينية، مع استثناء استبعاد الوهم القديم، بوجود دليل على وجود الله وصفاته، فى صلاح الطبيعة نفسها:

أما فيما يتعلق بالشق اللاهوتى للسؤال، فهذا كان دائمًا شيئًا مؤلمًا لى. وأنا متحير، حيث لم تكن فى نيتى الكتابة فى الإلحاد. إننى لا أستطيع أن أرى الدليل على التخطيط والبر على جميع جوانبنا بوضوح، كما يرى الآخرون، وكما كنت أتمنى أن أفعل.

كيف اذاً ستفسر حقائق الطبيعة (مثل اعتلاف الزنابير ولهو القطط بالفئران المقهورة) خاصة تلك التى ننظر إليها بهلع، من المنظور الأخلاقى المناسب:

أميل إلى النظر إلى كل شيء كمنتج لقوانين مخططة، مع ترك التفاصيل، بخيرها وشرها، لاجتهاد ما يمكن أن نسميه الصدفة.

يحتوى هذا النص الرقيق على نقطتين جديرتين بالاهتمام. أولاً، قد يقبل داروين بالتخطيط العام كتفضيل شخصى، أو حتى كدليل لوجوده

وراحته، لكنه يعلم أن مثل هذه الأمور لا يمكن الحكم عليها، من داخل رواق العلم، كما عبَّر عن شكه بعد ذلك، بكون هذه الأسئلة "تفوق قدرة الذكاء البشرى"، ثانيًا: يفرق داروين بكل وضوح، بين الأساسيات التى لا يمكن إدراكها بالعلم، وأحداث ونماذج محددة (واقع الطبيعة) يمكن تفسيرها من داخل رواق العلم. ثم يتبع داروين تعاليم الأروقة المتمايزة الأساسية، فينكر احتمال توصلنا إلى "يد الله" أو احتمال توصلنا إلى درس أخلاقى لسلوكنا فى الحياة، من خلال البحث فى تلك الأحداث الواقعة. وأنا أقدر جداً بصيرة داروين ودقته فى كلماته "مع ترك التفاصيل، بخيرها وشرها، لاجتهاد ما يمكن أن نسميه الصدفة".

لا يعنى داروين كلمة "الصدفة" بمعانيها الدارجة مثل العشوائية، أو بلا معنى، أو أنها غير قابلة للتفسير، فقد استعمل الصيغة المشروطة "مثل ما يمكن أن نسميه الصدفة"، التى تتضمن نظرة إلى الحياة تعجز عنها الكلمات، وهو مايسميه المؤرخون اليوم (احتمالات الحدوث)، بمعنى أن حقائق الطبيعة (التفاصيل) موجودة لأسباب مباشرة محددة وقابلة للمعرفة. كما أنها تخضع للتفسير العلمى. وهذه الحقائق غير مندمجة فى أى بنية متحكمة فى نظام كونى مخطط وملزم، يحمل فى طياته معنى لسقوط كل ورقة نبات أو كل قطرة مطر.

على قدر ما نعرف، فقد يكون للكون هدف ومعنى فى النهاية (أميل إلى النظر إلى كل شىء كمنتج لقوانين مخططة)، وقد تخضع هذه

الغايات لقوة رشيدة فائقة، يطلق عليها شرعًا اسم الله، لكن تقع مادة العلم القابلة لإيجاد إجابات لها، في مجال آخر تحت نطاق هذه الفلسفيات العمومية (ويحتمل أن تكون غير متيسرة للمعرفة). علاوة على ذلك تتكشف الحقائق الصغرى، التي يمكن التعرف عليها عن عالم مكون من عدد هائل من الجزئيات المعقدة؛ بحيث يصبح من المستحيل التنبؤ بالمستقبل، ناهيك عن الاستدلال منها بأية درجة من اليقين، عن المعاني النهائية للكل. يجوز لنا استعمال قوانين الطبيعة، ومعرفتنا ببعض الأمور المحددة للتفسير، وفهم أحداث معينة، بل أكثر من هذا (كالهدف الأسمى للعلم) فلنا أن نبني النظريات حول الأنماط الحقيقية في الطبيعة. يمكننا معرفة "ماذا" و"كيف" وحتى "لماذا"، بالمفهوم الخاص بتفسير حقائق معينة، باستعمال قوانين الطبيعة الثابتة وخواص المواد. لكن ليس للعلم وسيلة للوصول إلى *"لماذا"*، *المعبرة عن الهدف السامي أو القيم الأزلية*.

للدلالة على عدم قيامي بعرض رؤيتي الشخصية الغربية لمقولة داروين، حول "مع ترك التفاصيل بخيرها وشرها، لاجتهاد ما يمكن أن نسميه الصدفة"، يمكننا تتبع تفسيره هو نفسه، في بعض الأمثلة المصنوعة بروعة، منتقلاً من مناطق عامة لا شك فيها، إلى تحديات استنتاجية، نفضل ألا نقبلها. والكل مصمم بأسلوب لإقناع صديقه الملتزم بتدينه "أسا جراي".

يتحرك داروين ببطء وحرص، ملتزمًا بالانتظام فى التسلسل. فإذا داهمت عاصفة رعدية رجلاً على قمة جبل، فأصابته صاعقة أودت بحياته، فللحدث - بكل تأكيد - تفسيره العلمى، المبنى على القوانين العامة (للأرصاد الجوية والكهرباء)، وعلى الظروف الخاصة (مكان الرجل فى لحظة معينة). لكن لا يستطيع أحد ادُعاء إمكانية التنبؤ بدقة، بوفاة الرجل حين ولادته (ولا حتى بساعة قبل موته). كذلك وعلى وجه الخصوص، لا يستطيع أحد ادعاء أن المأساة حدثت لسبب له جذوره فى الأخلاقيات الصالحة، والمعنى النهائى للأمور. فقد وُجِدَ الرجل المسكين فى المكان الخطأ وفى الوقت الخطأ، على حين اتبعت الطبيعة - العمياء أخلاقيًا على الدوام - قوانينها المعتادة. كتب داروين يقول: "يقتل البرق رجلاً، لا فرق إن كان صالحًا أو طالحًا؛ نتيجة لعمل قوانين الطبيعة المعقدة للغاية".

إن لم يكن لهذه الوفاة الطبيعية الحزينة أى معنى أخلاقى، فماذا عن ولادة طبيعية مفجعة؟ يسوق داروين بعد ذلك فى جدله، أن إعاقة أحد الأطفال عقليًا، قد ترجع أسبابها إلى قوانين الوراثة وعلم الأجنة، فيما يتعلق بالظروف الخاصة لوجوده. وعلى ذلك يمكن تفسير حالته علميًا. لكن لا يجوز - إلا لشاذ أخلاقيًا - الاعتقاد بأن حالة الإعاقة للطفل كانت مقصودة لأنها حدثت، أو لأن الله يتبع نظامًا لطيفًا بصفة عامة وذلك بإضافته بعض التوابل (كـ رش الفلفل) إلى حياتنا، بما يحمل ذلك من طابع سوء الحظ. يكتب داروين "الطفل (الذى قد يُصبح

أبله) بفعل قوانين أكثر تعقيداً. (كانت كلمة "أبله" تستعمل أيام داروين بما يفيد درجة محددة واضحة من الإعاقة العقلية، وليست لفظاً للاستهزاء).

وصل داروين الآن إلى النقطة الحاسمة فى جدله يمكن تفسير ميلاد ووفاة الأشخاص طبيعيًا، لكن هذه الأسباب العلمية لا تعنى ضرورة الحدوث، فى كون مقرر وحتمى، كما لا تنم عن معنى أخلاقى للقدرة الإلهية العظيمة. عند هذه النقطة، قد يقول بعض من المؤمنين بالنظام القديم، الذين يفضلون استقرار القيم الإلهية داخل الأحداث الحقيقية، بدلاً من إصرار مبدأ الأروقة المتمايزة، على الفصل بينها. "لا مانع أن الله لا يشغل نفسه بمصير الأفراد، فهو يمنح هذه المنطقة لمذهب "حرية الإرادة" القديم. لكن من المؤكد أن الله يتحكم، ويُوجه نظماً أكبر وعموميات للمسائل الأخلاقية. قد يسمح بميلاد فرد ليقع خارج نطاق سيطرته، لكنه لن يهمل بالمثل مولد نوع من الأحياء بأكمله، بخاصة منبت وأصل "الإنسان العاقل" Homo Sapiens، أعز الأشياء فى عين الله، الذى خلقه على شاكلته، وهدفه النهائى من كل ما جاء قبله".

بعد أن أعد داروين المشهد حتى هذه اللحظة للإيقاع بـ "جراي"، فإنه يتحرك بعدها ليصيبه فى مقتل. فإذا كان طفل واحد مجرد فرد فى المجتمع البشرى، لماذا – إذًا – يجب النظر إلى نوع واحد (نوع الإنسان)، باعتباره أكثر من فرد ضمن جميع الأنواع الحية على

الأرض، وعلى كـمــال الزمن الجـيـولوجي؟ ثم لماذا يجب النظر إلى "الإنسان العاقل" كـهدف وكعمومية، هذا فى الوقت الذى عاشت فيه القوقعة المعروفة باسم "فاركيدونوتاس بيركاريناتوس" "Pharkidonotus percarinatus (وهى من حفريات القواقع المفضلة لدى، ولست مبتدعًا اسمها)، عمرًا أطول بكثير، وبأعداد أكبر بشكل مرموق، وعلى الرغم من هذا، فهى تُعد فقط كأحد حوادث التاريخ؟! ماذا غير غطرستنا الخطيرة وغير المبررة، يمكن أن يسمح لنا، ولو بالتأمل والتفكر، فى هذه المكانة المفضلة لنوع واحد من مئات الملايين من الأنواع الحية، التى باركت تاريخ كوكبنا؟ بناءً على ذلك يجب الحكم على وجود الإنسان بأنه "أحد التفاصيل، المتروكة لاجتهاد ما يمكن أن نسميه الصدفة". هذا وقد سبق أن اتفقنا أن بعض التفاصيل، مثل وفاة الرجل بالصاعقة، ومولد الطفل المعاق بشدة، لا يمكن لها أن تجسد رسائل أخلاقية، أو تكشف عن المعانى النهائية.

يكتب داروين : لا أرى سببًا لاحتمال الوجود الأولى للإنسان، أو لأى حيوان آخر، من خلال قوانين أخرى.

كتب داروين الخطاب التالى لـ "جراى" فى ٢٢ مايو ١٨٦٠ وقد استدعى رد "جراى" مزيداً من تعقيبات داروين فى يوليو، فأرسل حججًا قوية مفادها أن حقائق الطبيعة، حتى أفضل ما نحبه منها (خاصة أصل نشأة نوعنا)، تعجز عن كشف الأسباب الإلهية لمعنى الحياة النهائى:

هناك تعقيب إضافى عن "القوانين المخططة" والـ "نتائج غير المحسوبة". أرى طائرا أبغيه للطعام، أتناول بندقيتى وأقتله، أفعل ذلك بتخطيط. فى المقابل، رجل برىء صالح، يقف تحت شجرة وتقتله صاعقة. هل تعتقد (وأود فعلا السماع منك)، أن الله خطط لقتل هذا الرجل؟! إذا صدقت بذلك، فهل تصدق بأن طائر الخطاف (السنونو Swallow)عندما يلقف بعوضة، فإن الله خطط لهذا الطائر بالذات، أن يلتهم هذه البعوضة المعينة، فى هذه اللحظة المحددة؟! أعتقد أن حالة الرجل والبعوضة متشابهتان. فإذا لم يكن موت الرجل أو البعوضة مخططين، فلا أرى سببًا للاعتقاد بأن مولدهما الأول أو منشأهما، كان مخططًا بالضرورة.

إلى من يرون الحمَّام البارد مسببًا للاكتئاب، ويشعرون بضرورة الحط من شأن نوعية الحياة الإنسانية والتقليل من قدرها فى عالم بلا معنى ذاتى، مسجل بناءً على شروطنا، ويخافون من عواقب عدم قدرتنا على حصد الأخلاق الصادقة، المستمدة من حقائق الطبيعة؛ مما يؤدى فقط للوصول إلى "النسبية الأخلاقية" (١٠٩). Ethical Relativism المدمرة (أو حتى إنكار وجود، أو أهمية الأخلاقيات بوجه عام). أستطيع فقط أن أستدعى الحكمة الكامنة خلف كلمات الطرف الآخر، ممثلة فى بطلها داروين، وكما تتجسد فى مسألة الأروقة المتمايزة.

ماذا يمكن أن يكون أكثر تضليلاً أو خطرًا، من الإحساس الكاذب بالراحة، ذلك الذى يعمى بصيرتنا ويلهمنا السلبية؟ إذا استقرت حقيقة

الأخلاق الصادقة (هناك) فى الطبيعة، فلن يكون علينا إذاً أن نتصارع مع بلبلتنا، أو مع الآراء المختلفة لباقى رفقائنا من البشر فى عالمنا المتنوع. يمكننا تبنى الأسلوب السلبى جداً بمراقبة الطبيعة (أو مجرد قبول ما يخبرنا به "الخبراء" بشأن الحقيقة الواقعية)، ثم نقلد أساليبها كالقرود. أما إذا صحت مسألة الأروقة المتمايزة، وبقيت الطبيعة محايدة (فى الوقت الذى تتفجر فيه بمعلومات لها دلالاتها الوثيقة لتحسين مناقشاتنا الأخلاقية)، حينها لن نستطيع تجنب المهمة الصعبة، ولكنها محررة فى النهاية، إنها مهمة النظر فى صميم ذاتنا المميزة.

لا أنكر ما فى الآراء القديمة من راحة، تلك الآراء التى كسرت مسألة الأروقة المتمايزة، وقامت بتعريف الكون من منظور آمالنا وقوانا المفترضة. قد تغذى "كل شىء تحت قدميه" البدن، كما تغذى "كل شىء براق وجميل" الروح. لكن قد لا يكون هذا الغذاء إلا سماً مغلفاً بالسكر. تستدعى مجموعة الحكمة المستقاة من كل الطبقات ومن كل الحضارات – من بهاء وروعة القوة القديمة ممثلة فى الأرجل الحجرية التى ذكرها شيللى [١١٠] Shelley فى قصيدته أوزيمانديا‌س Ozymandias إلى المصير المعروف لمصارعى البالوكا [١١١] Palookas (كلما زادت ضخامتهم، اشتدت سقطتهم) – فضيلة التواضع العنيد، وتحديد موقع القوة الحقيقية، فى مجالات الفعل المناسب والمؤثر.

أما بالنسبة إلى من يشعر بالإحباط الكونى، بسبب النظر إلى الحياة كفرعية صغيرة، وسط الكون المترامى. أو بسبب عدم تخطيطه من

أجلنا، فإنى أقدم لهم جدليتين متعاكستين. أولاً: فكِّر فى مدى تفوق سحر هذا الكون الغامض وفتنته، وما يتضمنه من تحديات فكرية، ومع هذا فمن الممكن معرفته، وقارن بينه وبين كونه أكثر وداً وأكثر الفة، ويعكس فقط آمالنا واحتياجاتنا. ثانيًا: أثناء كفاحنا من أجل تحديد أهداف وجودنا، فلنتأمل المنظور العام الأسعد، باتباع القول المأثور لسقراط (اعرف نفسك)، بمحاولة الغوص الفعَّال فى الأعماق، للتعرف على مميزات الطبيعة البشرية من الداخل، بدلا من الامتصاص السلبى العام لسطحيات الطبيعة من الخارج. أخيراً، وللمواساة، أقدم قصيدة لـ روبرت فروست(١١٢) Robert Frost، لارتباطها الشديد بحجج داروين فى ردوده على "جراى"، حتى أنى أرجع مصدر إلهامات فروست فى عدد من قصائده، إلى معرفته الوثيقة بكتابات داروين. صادف فروست أثناء نزهته الصباحية فى أحد الأيام، اقترانًا غريبًا لثلاثة أشياء بيضاء مختلفة فى الشكل، يستخلص من ضرورة احتواء هذا التشكيل المتميز والمتوافق على قصد معين، ولا يمكن أن يحدث مصادفة، ويتساءل عن وضع الكون كله، إذا ما كان الغرض واضحاً بهذا الشكل، فالمشهد شرير بكل مقاييس الأخلاقيات الإنسانية. ولابد من أن نركن إلى الحل السليم الذى طرحه داروين: نحن نتابع فى الحقيقة واحدة من هذه "التفاصيل"، التى بخيرها أو بشرها، تنتمى إلى مجال "ما يمكن أن نسميه الصدفة"، ومسألة التخطيط لا علاقة لها بإحكام هذا المشهد: (١١٣)

عثرت على عنكبوت أبيض بدين منبعج

على زهرة بيضاء "شافية" (١١٤) ممسكًا بفراشة.

كقطعة نسيج صلبة بيضاء لامعة.

صفات منوعة للموت والفساد

متنوعة جاهزة لبداية يوم صحيح.

كمكونات مرق السحرة.

عنكبوت الزهرة الثلجية زهرة كالرغوة.

وأجنحة ميتة محمولة كطائرة ورقية.

ماذا فعلت الزهرة لتكون بيضاء

على قارعة الطريق زرقاء شافية؟

ماذا أتى بالأخ العنكبوت لهذا الارتفاع

ثم دفع بالفراشة مساء إلى هذا الاتجاه؟

يا له من تخطيط حالك مريع؟

عندما يتحكم التخطيط في شيء صغير جداً كهذا

قد يأتي ترتيب الـ "الإنسان العاقل" كـ "شيء صغير جداً" بالنسبة إلى الكون الواسع، وكحدث تطوري مستبعد جداً، ولكن ليس كنتوء صغير لهدف كوني. لك أن تفعل ما تشاء بهذه الخلاصة.

يجد بعض الناس في هذا المنظور شيئًا من الكآبة. وأنا رأيت دائمًا أن هذا الرأي منعش، ومصدر للحرية وما يتبعها من مسئولية أخلاقية. نحن أحفاد التاريخ، ولابد أن نحدد مساراتنا الخاصة في تلك الأكوان المحسوسة المترامية، غير المبالية بمعاناتنا؛ وبذلك تمنحنا الحرية الكاملة للتقدم، أو للسقوط بمحض اختيارنا.



المساران الزائفان لدعاة المسالمة والوفاق

احتفظت دائمًا بصدر رحب تجاه أى كلمة جديدة، يعلم الله أننا نبتكر عددًا لابأس به منها، فى مجالى الخاص من العلم. حدث منذ بضع سنوات أن قابلنى لفظ لاهوتى داعب مخيلتى، أولاً لمساسه بالغموض، وثانيًا لنغمته الحبيبة للأذن ""دعاة السلام"(١١٥) Irenics، ومعروف كمضاد للمجادلين، كفرع من اللاهوت الميسحى، ويمثل "نقاط الاتفاق بين المسيحيين، بهدف توحيد المسيحية فى النهاية" (انظر قاموس أكسفورد الإنجليزى). مع شىء من التوسع "وقد زحفت الكلمة خارج نطاق الدوائر اللاهوتية، إلى الاستعمال الإنجليزى العام"، استقر مضمون هذه الفكرة ومدلولاتها، تحت مفهوم "يميل إلى دعم وترويج السلام والوفاق، خاصة فيما يتعلق بالخلافات اللاهوتية والكنسية).

أنا الآن من دعاة السلام والوفاق من صميم قلبى، وأثق فى أن معظمنا ينظر إلى نفسه بالمعنى نفسه، بغض النظر عمن يقف فى سبيل الإدراك من مراوغين وضعاف. هذا الكتاب يدعو إلى حل سلمى تحت مظلة واسعة، تمتد كثيرًا خارج النطاق الصرف للحدود المسيحية، كما

سبق بيانه. وأنا أنضم تقريباً إلى كل اصحاب النيات الحسنة؛ من أجل الوصول إلى رؤية سيادة الوفاق والتعايش السلمى، بين مؤسستين مزدهرتين - العلم والدين - بحيث يعمل كل منهما لإنتاج رقعة متميزة، تصلح كلها فى النهاية، لصناعة معطف متكامل جميل متعدد الألوان؛ ليعلن بفخر مميزات حياتنا، كما يغطى العرى الإنسانى بدثار متكامل - بلا ثغرات - يسمى الحكمة.

ينتصر دعاة التسالم على المجادلين من نوى الأفكار المعتلة، حول الصراع بين العلم والدين - وهو نموذج فاشل بكل المقاييس (فصل ٢)، كثيراً ما يحتوينا داخل مسببات تاريخية لا منطقية (فصل ٣) ومسببات نفسية (فصل ٤). تفتر همتى عندما يقوم بعض زملائى بالإعلان عن إلحادهم الخاص (وهو حقهم بطبيعة الحال، وهو موضع شكى لأسباب كثيرة)، ويروجون لذلك باعتباره الوصفة السحرية اللازمة للتقدم، ولمجابهة الصورة الكاريكاتيرية السخيفة لـ "دين" القائم كخيال المآتة، من أجل ترديد الخطب والمواعظ. لا يمكن اعتبار الدين مساوياً للنصية الحرفية لسفر التكوين، أو معجزة القديس جانواريوس[١١٦] Saint Januarius (الذى يعطينا - على الاقل - مبرراً للاحتفال السنوى الرائع فى شوارع نيويورك - احتفال سان جينارو (San Gennaro، أو شفرات "كابالاه" الإنجيلية[١١٧] Kaballah، والحملات الإعلامية المعاصرة. إذا أراد هؤلاء الزملاء محاربة الخزعبلات وعدم العقلانية، والجهالة والغباء وضيق الأفق ومجموعة كبيرة أخرى مما يمثل إهانة

للفكر الإنسانى (كثيراً ما تتحول سياسيًا إلى أدوات للقتل والقهر) فليباركهم الله، ولكن لا تُسَموا هذا العدو "دينًا".

أعلن لعنتى بالمثل (طبعًا) على كل هؤلاء، أصحاب الأفق الضيق و"المؤمنين الحقيقيين"، الذين يغتصبون الاسم الجيد للدين ويوظفونه لمعتقداتهم الهوجاء، ويحاولون قمع الحقائق العلمية التى تقلقهم، أو فرض نسيجهم الأخلاقى الخاص على أناس لهم ذوق مختلف. مسيرتنا فى الحياة قصيرة، ولا أنكر بعض اللحظات الفكاهية الجيدة، بل بعض الإنجازات الداعية إلى الفخر، وأفضل بكل تأكيد أن أقوم بدراسة تطور ومستحاثات (حفريات) قواقع جزر الهند الغربية عن محاربتى للخلقيين. وكفى ما قيل.

أما إذا احتضنا المقترح البديل بتسيد المسالمة والوفاق بين العلم والدين، فكيف يجب أن يكون شكل تفاعلنا؟ بوضعى هذا الحوار الختامى لهذا الجزء عن مسألة الأروقة المتمايزة، باعتبارها أعلى مراتب المسالمة والوفاق شرفًا وأغناها ثماراً، فإنى أود أن ألتفت ثانية إلى قاعدة مهمة فى الحياة الفكرية، سبقت الإشارة إليها بشكل واضح، بصفتها القاعدة الذهبية لأرسطو، باختيار الوسط بين الأطراف المتباعدة، ولكنها هنا مجسدة فى قاعدة "جولديلوكس"[١١٨] Goldilocks، أو القدر الكافى بالضبط ما بين الأكثر من اللازم والقليل جداً، النعومة الزائدة والصلابة الفائقة، الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة. تمثل

الأروقة المتمـايزة، الفـراش الوثيـر المناسب، وكميـة الدقيق المضبوطة عند درجة الحرارة الصحيحة. ترفع الأروقة المتمايزة من شأن الحوارات المنطقيـة، حول الاخـتلافات الحادة بين الدين والعلم. ولا تبـحث الأروقة المتمايزة، عن أى التحام كاذب، لكنها تحـث كل جـانب على البقـاء فى ربوعـه المتميـزة، واستنباط أحسن حلولهم، لمناطق محددة من الحياة الكلية، وفـوق كل شىء، الإبقـاء على الحـوار معًـا باحتـرام متـبادل، وبتوقـعات متـفـائلة، حـول قـيـمـة الاسـتنارة المتـبادلة. بمعنى آخر اقتبـاسًا من تشبيه تشرشل القائل - "الفك - الفك (Jaw)، بدلاً من الحرب - الحرب".

يمنح حلول جـولديلوكس المنضـبطة التـمـاسك والصـلابة الملائمـة للتواصل الواسع بين الخلافات الموروثة، القدر المضبوط من الحوار بين المكرسين أنفسهم لموضوعات متفاوتة، والحرارة المنضبطة للحديث حول معطيات لا تمتزج. أُدْعُ بقوة للأروقة المتمايزة، بصفتها سلامًا ووفاقًا، فى بعض الأحيـان سيكون الحوار حادًا وقاطعًا، وقد يغضب ويتكدر المشاركون كنتيجة مباركة لطبيعتنا البشرية المتأججة دائمًا، مع احترام للخلافات الشرعية، والوعى بأن الإجابات الكاملة تستدعى الإسهام المحدد من الجانبين، بهذا الحوار نبقى ميدان الاهتمام والشرف والتنافس المثمر.

أما فيما يتعلق بأهمية موضوع الأعداء من الداخل، فى مواجهة الأعداء من الخارج، المعارضين للسلام والوفاق، المتاجرين بالنزاع،

الذين ينتهكون الأروقة المتمايزة بمحاولة توسيع حدودهم؛ وذلك بالتخطى على رواق غيرهم، فهؤلاء يمثلون خطراً كبيراً فى إطار الفكرة التقليدية بشأن التعارض الصريح. وهم يُظهرون أيضًا الفضيلة العامة للـ "أعداء من الخارج"؛ حيث نعلم أين يقفون، ونعلم كيف نحارب فى المواجهة. على أية حال، فمن بين الدعاة إلى السلام والوفاق، هناك أسلوبان بإمكانهما خلخلة الأرض تحت أقدام الأروقة المتمايزة من الداخل، بالبحث عن السلام بين العلم والدين، باتباع وسائل تصيب الأروقة المتمايزة بالشلل. أنا أنظر إلى هذين المثلين لدعاة السلام على أنهما يمثلان أقصى الأطراف لميدان واحد (دار السلام فى هذه الحالة)، وقد رفضتهما جولديلوكس كالأسلوب الوسط.

يدهشنى دائمًا الطرف الأول الحار جداً، اللين جداً، والمبالغ كثيراً بإصراره، بل بنموه، فى مواجهة المتناقضات الداخلية الكبرى، التى كان من شأنها إفناء تلك الأفكار المغلوطة منذ زمن بعيد. تستمر هذه "المدرسة التوفيقية" Syncretic فى تبنى أقدم المزيفات على الإطلاق ووضعها فى مركز منطقها: الادعاء بوجوب التوحيد بين العلم والدين، فى عائلة واحدة كبيرة سعيدة، أو فى داخل قرن واحد كبير من قرون ثمار البازلاء؛ حيث تدعم حقائق العلم وتؤكد صحة تعاليم الدين؛ وحيث يكشف الله عن يده (وفكره) من خلال أعمال الطبيعة (بالعودة إلى معجم ويبستر، القاموس الدولى الجديد الثالث، نجد أن لمصطلح "توفيقى"، معنيين، أحدهما مثير للإعجاب والآخر سلبى، هذا المفهوم السلبى هو

الذى كان فى ذهنى، عندما اخترت اللفظ للدلالة على هذا النمط من دعاة السلام، ينص التعريف على ما يلى : "مساومة فاضحة فى الدين أو الفلسفة، انتقائية غير منطقية أو تؤدى إلى عدم تماسك، قبول من غير تدقيق لمعتقدات أو قواعد مختلف عليها أو متفارقة".

بقدر ما تزعجنى (التوفيقية الحديثة) إلا أنى أجد بعض الارتياح فى إحدى السمات المضحكة للنموذج المعاصر. على الأقل، من وجهة النظر المحدودة لعالم محترف. أعطت النماذج القديمة والتقليدية للتوفيقية كثيراً من الاحترام والموافقة له. بمعنى أن يضع الدين الأطر العامة ولابد أن يقبلها الجميع، وعلى العلم بعد ذلك أن يتكيف. تلخصت مطالب أدعياء السلام الأوائل، فى أن تؤدى قواعد العلم ومعطياته، إلى نتائج معروف بصحتها مسبقًا. فى الواقع، مثل هذا التكييف، الاختبار الأول لقوة العلم وصحته. فمثلاً لم يتشكك توماس بيرنيت (سبق ذكره)، فى صحة روايات الإنجيل عن التاريخ الحقيقى للأرض، تطلبت وظيفته كعالم التأكيد على مصداقية هذا التاريخ المعلوم، فى ضوء بحث المسببات من قوانين الطبيعة الراسخة، بدلاً من اللجوء إلى المعجزات.

لكن النمو المدهش للعلم ونجاحه، قلب الموائد بالنسبة إلى التوفيقية. حيث أصبح لزامًا قبول الاستنتاجات العلمية فى المقام الأول، وأصبح من الواجب على التأويلات الدينية أن تتكيف بلباقة، لمواءمة

النتائج الوثيقة النابعة من رواق المعرفة الطبيعية! حدث الانفجار الكبير Big Bang، وعلينا الآن أن نجد الإله عند ذلك المنشأ الصاخب.

أعتذر وأعلم أني يجب ألا أكون رافضا بهذا الشكل، خاصة (وبسخرية) في جزء يتعلق بمذهب "دعاة السلام"، لكني أجد محاورات التوفيقيين معيبة إلى حد كبير، بعيدة عن المنطق، كثيرها مبنى على الآمال وحدها، ومثقلة ومشحونة بسابق الإجراءات واليقينيات، حتى أني أجد صعوبة في التحكم في تعبيرات وجهي، أو في الاحتفاظ بهدوء قلمي.

كذلك أشعر بحساسية خاصة تجاه هذا الموضوع، فعندما كتبت هذا الكتاب في صيف عام ١٩٩٨، قامت قائمة الإعلام، واحتضنت موقف التوفيقيين بطوفان من الدعاية، كما لو كان قد تم التوصل فجأة إلى حجة دامغة جديدة، أو تم التوصل إلى اكتشاف شيء سيغير مجرى الأمور. في الواقع لم يضف أي شيء ثقافي جديد: حيث طفت على السطح الجدليات الركيكة القديمة ذاتها وظهرت كبريق إعلامي، بسبب حركة جذب الانتباه القوية، التي قامت بها مؤسسة ج. تمبلتون(١١٩) J. Templeton المسماة على اسم مؤسسها فاحش الثراء، والهادفة إلى نشر البرنامج التوفيقي من خلف الستار الأعم والمتحرر، بدعم الحوار بين العلم والدين، فقد رصدت المؤسسة ١,٤ مليون دولار لعقد مؤتمر في مدينة بيركلي تحت عنوان "العلم والمبحث الروحاني".

يُعد اختلاق الصحافة لموضوع ما - اعتماداً على سلطان المقالات، وليس من خلال قوة الحجة أو المحتوى - مثلاً أصيلاً صادقًا عن مسألة "الخلق من العدم". وقد قامت ثلاثة مصادر كبيرة بتغطية المؤتمر، وبالدعوة للتوفيقيين فى عناوينها الرئيسية، وفى مقالاتها الباردة المفتقرة إلى الموضوعية: "الإيمان والمنطق معًا مرة أخرى" (جريدة وول ستريت ١٢ من يونيو)؛ "العلم والدين: تواصل الشقاق الكبير" (نيويورك تايمز، ٣٠ من يونيو)؛ ومقالة الغلاف فى الـ نيوزويك (٢٠ من يوليو) بعنوان بسيط "العلم يجد الله". لا يملك العلماء إلا الحيرة والإلغاز إزاء الزعم الأخير المذكور، لكننا على الأقل يمكننا الآن التأكد من واحدة من صفات الله. إنه يبيع الصحف والمجلات.

أقرت مقالة الـ تايمز بفتور جلسات المؤتمر: "ساد الاجتماع نوع من الأدب كالذى نراه فى مدارس الأحد، وخلت من أية مواجهات حارة كما كان متوقعًا حول مثل هذا الموضوع المشحون بالمشاعر... صفق الحاضرون بأدب بعد كل محاضرة، وغاب الإحساس بأى إثارة فكرية". لكن من أين كانت ستنشأ مثل تلك الإثارة من الأساس؟. فإذا صح مبدأ الأروقة المتمايزة، (وقد كرست هذا الكتاب دفاعًا عن صحته) فإن الحقائق والتفسيرات النابعة من رواق العلم، لا يمكنها إثبات (أو نفى) مبادئ الدين. إذا نظرنا فى الواقع إلى ما يسمى حججًا للتوفيقيين - كما أشارت التقارير- فكلها تتقلص وتتلخص فى مجموعة من التصريحات المشوشة، الزاخرة بالتشبيهات والاستعارات اللغوية

واللامنطقية. تأمل فى أمثلة ثلاثة، لم يتم اختيارها لسخافتها الصارخة، لكن كممثلين عن المستوى العام.

١- استعارة مبهمة، يُساء عرضها كموضوع قاطع. فقد ذكرت النيوزويك فى سياق عرضها، التوحد التالى بين المسيح والـ كَم[١٢٠] : (Quanta)

خذ المفهوم المسيحى الصعب باعتبار المسيح إلهًا كاملاً، وبشراً كاملاً فى آن واحد، يتبين أن هذه الازدواجية لها مثيل موازٍ فى فيزياء الكم. فى السنوات الأولى من هذا القرن اكتشف علماء الفيزياء أن الكيانات التى يعتقد أنها جسيمات مثل الإليكترونات، يمكن أيضًا رصدها كموجات كهرومغناطيسية... يقول التفسير الأرثوزوكسى عن هذه الحالة الغريبة، إن الضوء أيضًا يمكن اعتباره كموجات وكذلك كجسيمات... كذلك حال المسيح كما أشار الفيزيائى ف. راسل ستانارد **F. Russell Stanard**، من الجامعة الإنجليزية المفتوحة. يقول ستانارد إنه لا يجوز النظر إلى المسيح باعتباره الله فى صورة إنسان، أو - كبشر يتصرف كإله،" لقد كان كليهما بالكامل".

الآن ماذا بوسعى أن أفعل إزاء هذا الزعم؟ بحتمية اعتبار حالة المسيح كإله وكإنسان (مبدأ أساسى فى عقيدة التثليث) كحقيقة واقعة؛ لأن الإليكترونات وباقى الجسميات الأساسية الأخرى، يمكن رصدها إما كموجات وإما كجسيمات؟ لا أرى دلالة لهذه المقارنة سوى تمثيلها لقدرة

العقل البشرى على استيعاب المتناقضات (وهى بالتأكيد ملاحظة مثيرة للاهتمام، ولكن ليس باعتبارها تصريحًا عن صفة الله الفعلية)، وأن بإمكان الناس بناء أرعن التشبيهات.

٢- استناداً إلى التشابه الظاهرى، وكالغريق المتشبث بقشة، تعرض جريدة الـ وول ستريت المثالين الرائعين التاليين عن إشارة التوفيقيين، بأن بإمكان العلم إثبات المسائل الدينية. فنتعلم قبل أى شىء أن داروين نفسه كان توفيقيًا حميماً:

"من المثير حقًا أن داروين كان من أوائل من وحد بين العلم والدين. لكن المشاركين احتجوا بأنه قضى على مفهوم الله كضابط الساعات الغائب، مجدداً بذلك فكرة الوجود الدائم للإله كما جاء فى المزامير. وهو ما عبر عنه آرثر بيكوك(١٢١) Arthur Peacocke بقوله عن سماح داروين بـ : "استرداد أهمية الآراء القديمة" القائلة بأن: "الله دائم الخلق"(١٢٢) .

مرة أخرى ماذا يفترض أن أخلص إليه من هذا الخلط ؟ هل ثبتت حقيقة الرأى القديم بإله دائم الخلق، لأن داروين استعمل لغة النماء والتطور لوصف تاريخ الحياة من واقع السلالات والأنساب؟ كنت أعتقد أن إله كثير من المسيحيين قد حصر هذا النمط من النشاط الخلاق، فى حدود الأيام الأولى لتاريخ الحياة. أم أن إله مستر بيكوك يعيد تشكيل أدواته، فى شكل لغة العلم الحديث المتأنقة؟ ثم يعرفنا بعد ذلك بأن

التأكيد على مسألة "التكوين" (الخلق)، يأتى من خلال اكتشافين حديثين فى علم الفلك:

"يعتقد الآن أن "الانفجار الكبير" Big Bang حدث منذ ١٥ بليون سنة، بما يتمشى بروعة كافية مع "التكوين".

أفيدونى – بالله عليكم – ما معنى "روعة كافية"؟ البعض يصر على أن الخلق بدأ منذ أقل من عشرة آلاف عام، علاوة على ذلك لا يمكن استغلال نظرية الانفجار الكبير، كممثل لبداية خلق الله للكون من العدم. كما أن الانفجار الكبير لا يوضح البدايات الأولى لكل الماديات، وهو موضوع خارج نطاق رواق العلم، ثم إن مسألة الانفجار الكبير لا تعدو كونها مقترحًا حول نشأة عالمنا المعروف. لا يمكن من ناحية المبدأ لهذه النظرية العلمية، أن تحدد ماذا حدث قبلها، إذا كان هناك حدث سابق أصلاً (إذا كان لهذه الملاحظة معنى من الأساس)؛ نظرًا إلى محو كل التاريخ السابق، فى حالة تقلص مادة الكون كلها إلى هذه الدرجة الفاعلة المطلوبة للبداية.

٣– كلام فارغ ولامنطقية قديمة وصريحة؛ حيث تتلخص تقريبًا أهم شعارات التوفيقية الحديثة فى كل ما قرأته، فيما يسمى بـ "قاعدة الحياة البشرية" وهو تعبير فضفاض يحمل فى ثناياه عددًا من احتمالات التفسير مساوٍ لعدد مناصريه، وهو فى رأيى إما تافه جدًا فى "نماذجه الضعيفة" (على حد قول المناصرين وليس احتقارًا منى)، وإما خالٍ

تماماً من المنطق فى شكل "نماذجه القوية". تشرح جريدة وول ستريت "قاعدة الحياة البشرية" كـ "أكبر الإشارات" الدالة على وجود الله فى مكتشفات العلم :

" معناه أن الحياة المركبة القائمة على عنصر الكوبون – أى نحن – يمكن وجودها فقط فى كون ضبطت فيه ثوابت الطبيعة هكذا. خذ – مثلاً – نسبة الجاذبية إلى قوى الكهرومغناطيسية، فلو زادت الجاذبية زيادة طفيفة لتمزقنا، وإن زادت قوى الكهرومغناطيسية زيادة طفيفة، لتهاوينا وتكأكأنا على أنفسنا كالإسفنجة المضغوطة.

نعم هذا حقيقى، لكن ثم ماذا؟ كل ما يقول بـ "*النموذج الضعيف*" هو أن الحياة تتوافق مع قوانين الطبيعة، ولم يكن وجودها ممكناً لو اختلفت القوانين ولو فى أضيق نطاق. قد يكون الأمر مثيراً للاهتمام، لكنى لا أرى فيه أية دلالة دينية. والحق يقال، يشاركنى معظم *التوفيقيين فى هذا الرأى* (ومن هنا يأتى وصفهم *للرأى* بأنه "ضعيف"). أما النموذج " القوى" فيجسد مَثلى المفضل للتعبير عن اللامنطق فى أعلى مراتبه. فما دام وجود الحياة مستحيلاً لو اختلفت قوانين الطبيعة بأقل درجة ممكنة، إذاً لابد أن القوانين وجدت هكذا لأن الله الخالق أراد وجودنا.

يمكن اختزال هذا الجدل إلى مجرد سفسطة بحتة؛ حيث يجرى إغفال ذكر السبب الرئيسى، والمنطق القوى الضرورى، الذى من أجله

خلق الإنسان (وأن أيا ما كان أتاح لنا الوصول إلى ما نحن فيه، فلابد إذاً من وجوده ليكمل مصيرنا)؛ بذلك تنهار "القاعدة القوية للحياة البشرية"، وتتحول إلى مثل تقليدى للمنطق، الذى يدور حول نفسه فى دائرة مفرغة. بدون هذا المنطلق (الذى أعتبره سخيفًا، متكبراً ولا سند له على الإطلاق)، تنهار القاعدة القوية لوجود الحياة البشرية، فى مقابل الإمكانية المساوية للتفسير التالى: "لو اختلفت قوانين الطبيعة قيد أنملة لما وُجِدْنا من الأصل . صحيح، ففى تلك الحالة سيوجد شكل آخر للمادة والطاقة، وسيتشكل الكون بطريقة مثيرة، تتمشى فى ظله كل أجزائه مع القوانين الحاكمة لتلك الطبيعة المختلفة، باستثناء عدم وجودنا ساعتها، على هذه الصورة، لنتجادل مثل هذا الجدل السخيف، حول كون بديل. إذاً لن نكون هنا، ولن يغير ذلك من الأمر شيئًا. (بالمناسبة أنا سعيد بوجودنا، لكنى لا أرى كيف يمكن أن ينبثق من سعادتى، أى نوع من الجدل حول وجود الله).

من المحتمل أن يكون القراء قد ضحكوا من المثل السخيف القديم، بشأن الكرم الإلهى للزنابير التى تتغذى على الديدان الحية المشلولة (ذكر سابقًا)، ولعلك أيضًا تتساءل عن سبب تخصيص كل هذه المساحة، للانتهاك المخادع للأروقة المتمايزة، منذ الزمن الماضى السيئ الذى تخطيناه. لكن هل ستجد الأجيال القادمة أى رشاد فى جدليات التوفيقيين المعاصرين ومعارضتها للأروقة المتمايزة، وفى الاستدلال على الله من خلال حقائق الطبيعة؟!

لا يحتاج البديل الثانى عن الأروقة المتمايزة لدى دعاة السلام، المتمثل فى حلول الوسط (شديد البرودة، شديد الصلابة وقليل جدا)، إلا لفقرة أو لاثنتين للتعليق، فالأمر يخلو من الجدل الفكرى، حيث تكفى (للأسف) العادات الاجتماعية السائدة لتغطية الحوار. قد يتسم التوفيقيون بالسخف لكنهم -على الأقل- يتكلمون ويحاولون. أما الأسلوب المخالف لدعاة السلام "من فضلك لا غضاضة، فنحن على صواب سياسيًا"، فينطوى على اتخاذهم دائمًا نهجًا متفاديًا لبدء أية خلافات، ذلك بعدم تحدثهم مع بعضهم البعض، أو التحدث بطريقة مبهمة، وباستعمال أمثلة لا معنى لها؛ بحيث لا يتكون أبدًا أى محتوى ولا ينبثق أى تحديد ولا تعريف. بالتأكيد يمكننا تفادى لغة النزاع العنصرى، إذا أخذنا على أنفسنا عهدًا، بألا نتحدث أبدًا عن العنصريات، لكن ماذا يمكن أن يتغير ساعتها؟ وماذا يمكن ان يُحَل؟

نعم: يمكن أن نصل بالعلم والدين إلى شكل ما من التعايش معًا، فى ظل نوع من النزاهة السياسية، ذلك فى حال ما لو وعد كل العلماء بعدم ذكر كلمة واحدة عن الدين، وأقسم كل محترفى الدين أن شفاههم لن تتلفظ يومًا حتى بحرف الـ ع (البادئ للفظ العلم). لقد نهجت الحضارة الأمريكية المعاصرة هذا النهج غير المقدس، فيما يتعلق بموضوعات عديدة، كان ينبغى أن تفرز حوارات صحية، وبالتأكيد لن نتمكن أبدًا من التوصل إلى أية نتائج عادلة ما لم نتحدث ونتحاور معًا.

ولم يعد بوسع المثقفين سوى النظر إلى هذا القمع الاختيارى للحوار، إلا بوصفه ضماناً لاستمرار الهواجس والآلام، الناجمة عن أمور قد تكون صعبة، لكن لا شك فى إمكانية حلها، وكخطيئة - لا أدرى كيف أعبر عن هذا بطريقة أخرى- فى حق العقل البشرى وقلبه. إن لم يكن لدينا سوى هذا القدر الضئيل من الثقة فى قدراتنا العقلية المتفردة، وفى نياتنا الحسنة المتأصلة فى ذاتنا، فما هو الانسان - إذاً - الجدير باهتمام كل جانب؟

تحب الأروقة المتمايزة، وتحتضن - بإعزاز - الفصل بين وضع كل من العلم والدين، وتعتبر كلاً منهما مؤسسة قائمة بذاتها، كصخرة وركيزة لكل الأزمان، تسهم كل منها بإمداداتها الحيوية للمفاهيم البشرية. لكن الأروقة المتمايزة، على طول طريقها الخاص العنيد المثابر، الباحث عن الحوار المثمر، ترفض النموذجين المطروحين لدعاة المسالمة، سواء أسلوب الاتحاد غير المنطقى الزائف للتوفيقيين؛ وعرض "الصواب السياسى" الشاذ بأن أفضل الطرق للسلام هو حل الـ "قرود الثلاثة"، بتغطية العينين (لا أرى)، والأذنين (لا أسمع)، وسد الأفواه (لا أتكلم).

لابد أن ترحب الأروقة المتمايزة لكل من العلم والدين ببعضها البعض، بكل احترام واهتمام واجبين، حول أهم مجالات الحوار الإنسانية. أختتم بعرض مثال منطقى رشيد من كل رواق، يقول العلماء - بصفة عامة - إن اللغة تمثل أبرز الخصائص المميزة للإنسان، ولا

يفوت إلا على غبى ألا يستعمل أفضل أسلحته. أما بالنسبة إلى الدين، فقد ابتدأ هذا الكتاب بقصة توما الشكاك من نهاية إنجيل يوحنا، دعنى إذًا ألتقط صفحة من رواية "صحوة فينيجان"[١٢٣] ، وأن أنهى الكتاب بإعادة ما ذكر فى بدايته. بديهى أنى لا أعلم إن كان للجملة معنى آخر فى سياقها الأصلى، لكن يوحنا قدر أيضًا قيمة تفردها - المفتاح لكل مشاكلنا، والقوة الموجبة خلف الأروقة - ذلك حين بدأ إنجيله بمرشد حقيقى للخلاص: "فى البدء كانت الكلمة".

هوامش

(٩٥) كتاب أصل الأنواع نشره داروين أول مرة عام ١٨٥٩، وترجمه إلى العربية كل من إسماعيل مظهر فى بداية القرن العشرين، ومجدى محمود المليجى، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ [المترجم]

(٩٦) رباعيات الخيام، ترجمة أحمد رامى. [المترجم]

(٩٧) ترجمة النص المذكور لفيتزجيرالد، ويلاحظ اختلاف الترجمة عن ترجمة أحمد رامى. [المترجم]

(٩٨) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور الثامن: ٤. [المترجم]

(٩٩) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور الثامن: ٥ . [المترجم]

(١٠٠) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور الثامن: ٦-٨ [المترجم]

(١٠١) إنجيل لوقا، الإصحاح العاشر، الآية ٣٧ [المترجم]

(١٠٢) Full House.The Spread of Excellence from Plato to Darwin (Harmony, New York, 1996) . [المترجم]

(١٠٣) بامبى قصة قديمة عن الحياة فى الغابة، بطلها فتى اسمه "بامبي"، وهو أمير الغابة الصغير، توفيت والدته فرعاه أبوه الذى تابعه بكل حنان واهتمام. [المترجم]

(١٠٤) ترجمة الفقرة الخاصة بداروين، مقتبسة من ترجمة كتابه "أصل الأنواع" للدكتور مجدى محمود المليجى المشار إليه سابقًا، الفصل الثالث، ص ١٣٨ [المترجم]

(١٠٥) كانت عقوبة الخيانة العظمى للرجال (دون النساء) تتلخص فى أربع مراحل: الشد على إطار خشبى كبير، الشنق إلى ما قبل إسلام الروح، الإخصاء وحرق الأعضاء التناسلية أمام عينى المتهم، وأخيراً فصل الرأس وتقطيع الجسد إلى أربع. انتهى العمل بهذا القانون عام ١٨٧٠ . [المترجم]

(١٠٦) برهام، بلدة صغيرة بانجلترا، وتعتبر من الأماكن السياحية حاليًا. [المترجم]

(١٠٧) مارك توين (1910 - 1835) : Mark Twain اسمه الحقيقى ساموئيل لانجهورن كليمنس، كاتب أمريكى ساخر، من أشهر رواياته "مغامرات توم سوير" و" مغامرات هكليبرى فين". [المترجم]

(١٠٨) مقتبس من رسائل داروين عام ١٨٦٠ . [المترجم]

(١٠٩) النسبية الأخلاقية: نظرية فلسفية تقول بأن الأمور الأخلاقية مثل "الصواب" والـ"خطأ" أو الخير والشر، ليست مطلقة، بل نسبية، وتعتمد على كيفية رؤية الفرد والمجتمع وتقديره للأمور، وقد تختلف قواعد الحكم من مجتمع معين وظروف معينة إلى مجتمع وظروف أخرى. [المترجم]

(١١٠) بيرسى شيلى (١٧٩٢-١٨٢٢) شاعر إنجليزى كبير عاصر وصول التمثال العملاق لرأس رمسيس الثانى (٧ أطنان) إلى إنجلترا عام ١٨١٨ وعايش الفرحة والاحتفالات الجماهيرية المصاحبة للحدث، فكتب قصيدته بعنوان أوزماندياس، وهى عبارة عن ترجمة لأحد النقوش الموجودة على التمثال. [المترجم]

(١١١) البالوكا اسم يطلق على المصارعين الحمقى المرتزقة، الذين يجرى استئجارهم لإثارة حماسة المتفرجين، وهزيمتهم محسومة مسبقًا. [المترجم]

(١١٢) روبرت لى فروست (1874-1963) (Robert Lee Frost) شاعر أمريكى بارز، استلهم كثيراً من أعماله من واقع الحياة الريفية فى نيو إنجلاند، وقد حصل على جائزة بوليتزر أربع مرات فى حياته. [المترجم]

(١١٣) النص الأصلى للقصيدة بعنوان :Design . [المترجم]

I found a dimpled spider, fat and white,

On a white heal-all, holding up a moth

Like a white piece of rigid satin cloth--

Assorted characters of death and blight

Mixed ready to begin the morning right,

Like the ingredients of a witches' broth--

A snow-drop spider, a flower like a froth,

And dead wings carried like a paper kite.

What had that flower to do with being white,

The wayside blue and innocent heal-all?

What brought the kindred spider to that height,

Then steered the white moth thither in the night?

What but design of darkness to appall?--

If design govern in a thing so small.

(١١٤) المقصود زهرة نبات معروفة لدى العامة باسم "الشافية لكل شيء"، أى النبات الذى يشفى من كل مرض. يتناول الشاعر مسألة "التخطيط المسبق للأمور" ممثلاً فى تلك الزهرة البرية الزرقاء البريئة، وإن كان وصفها بالبيضاء (مجازاً) فإنما لتكون أكثر وضوحًا وجذبًا للفراشة المسكينة، ويتأمل فى الملابسات المتنوعة التى جعلتها تأتى إلى الزهرة، وتأتى أيضًا بالعنكبوت فى التوقيت نفسه إلى هذه الزهرة نفسها لتلقى حتفها على يديه. ثم يتساءل عن احتمال امتداد هذا التخطيط ليشمل باقى الكون. [المترجم]

(١١٥) اللفظ بالإنجليزية: Irenics وهو مشتق من اليونانية بمعنى السلام. [المترجم]

(١١٦) القديس جانواريوس: المشتق منه اسم شهر يناير فى التقويم الرومانى القديم، استشهد عام ٣٠٥ وقطع رأسه، ثم نقلت جثته بعد ذلك إلى نابولى بإيطاليا. يوجد زعم بالاحتفاظ ببعض دمائه الجافة فى قنينات صغيرة، تتحول إلى السيولة مرة واحدة كل عام، عند تقريب القنينات لرفاته. ولهذه "المعجزة" تفسيرات كثيرة. على أية حال، يتم الاحتفال بهذه المناسبة فى بلاد عدة، وفى أوقات مختلفة من العام، ومنها الاحتفال الذى تقيمه الجالية الإيطالية فى نيويورك فى منتصف سبتمبر ويستمر لمدة ١١ يوما. [المترجم]

(١١٧) كابالاه عبارة عن مجموعة قراءات وتفاسير خاصة للإنجيل، تتميز بالإبهام وعدم الوضوح. [المترجم]

(١١٨) جولديلوكس: اسم الشخصية الرئيسية فى قصة "الفتاة والدببة الثلاثة" وسبقت ترجمتها إلى العربية. تدخل الطفلة ذات الشعر الذهبى إلى منزل الدببة الثلاثة (الأب والأم وطفلهما) فى الغابة أثناء غيابهم، فتأكل من طعامهم وتتجول فى أنحاء المنزل مجربة أثاثهم. تميزت متعلقات كل دب بمميزات خاصة، فوجدت طعام الأب ساخنًا جداً وطعام الأم بارداً جداً، أما طعام الدب الطفل فكان "مناسبًا"، ويسرى هذا بصفة عامة على أثاث المنزل. فكانت جولديلوكس تختار دائمًا أكثر الأمور ملاءمة لها. تم مع الوقت اقتباس المغزى، وإطلاق الاسم (جولديلوكس) على العديد من المناسبات السياسية والاقتصادية وغيرها، للإشارة إلى انتقاء الحلول الوسطية المناسبة من بين عدة اختيارات مطروحة. [المترجم]

(١١٩) مؤسسة حديثة نسبيًا (١٩٨٧) سميت على اسم مؤسسها، ومن أهدافها المعلنة دعم البحوث التى تتناول التساؤلات الكبرى، مثل الاكتشافات الحديثة فى مجال قوانين الطبيعة والكون، وحتى مجالات مثل طبيعة الحب والوفاء والصفح والإبداع. [المترجم]

(١٢٠) الكم: وحدة الطاقة، أصغر جزء (كمية) من المادة يمكن وجودها مستقلة. [المترجم]

(١٢١) آرثر بيكوك (١٩٢٤ - ٢٠٠٦) كان نائبًا لرئيس ملتقى العلم والدين بإنجلترا، وعضواً مرموقًا فى الجمعية الأوروبية لدراسات العلم والدين، وعين قسًا بالكنيسة الإنجليزية وحصل على جائزة تمبلتون Templeton، وكان من أبرز المناصرين للرأى

القائل بعدم ضرورة وجود خلاف بين التطور والمسيحية. ولعله أشهر من نادى بمزج نظرية التطور مع الدين، " نظرية التطور المتدينة. [المترجم]

(١٢٢) قد يلاحظ القارئ التشابه بين آرائه وبعض آراء الإمام أبى حامد الغزالى فى هذه النقطة. [المترجم]

(١٢٣) للكاتب والشاعر الإيرلندى المبدع جيمس جويس james joyce (1882 - 1941)، ويعتبر أعظم كتاب القرن العشرين أثراً، وكان شديد الاعتزاز بنفسه، فرفض الركوع مع الآخرين عند وفاة والدته، رفض الالتزام بالكاثوليكية ويُعد من اللاأدريين، كانت روايته " صحوة فينيجان" آخر أعماله، واستغرقت كتابتها ١٧ سنة، وينتهى فيها بطل الرواية من حيث بدأ. [المترجم]



المؤلف فى سطور:

ستيفن جاى جولد :

من مواليد ١٩٤١ ، أصيب بالسرطان فى عام ١٩٨٢ وتم شفاؤه منه بصعوبة، ثم أصيب بالسرطان مرة أخرى بعد ذلك ، وتوفى فى ٢٠٠٢، وشغل منصب رئيس جمعية الأحافير (الحفريات) ، وكان عضواً بأكاديمية العلوم القومية وأستاذًا زائرًا للأحيائيات فى جامعة نيويورك ، اهتم بصفة خاصة بالقواقع، وله أعمال علمية كثيرة فى التطور وكيفية حدوثه ، وهو عالم فى الأحافير وعلوم التطور ، ومن أكثر الكتاب العلميين انتشارًا وتأثيراً فى المجتمع ، وقد أمضى كثيراً من الوقت فى التدريس بجامعة هارفارد أستاذًا للجيولوجيا ، بالإضافة إلى عمله الأساسى بالمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بمدينة نيويورك . هاجم فى حياته ما يسمى بـ "القمع الثقافى" فى جميع أشكاله ، خاصة ما يسمى بـ "العمل الزائف"، الذى يكثر استخدامه لخدمة الأغراض العنصرية والتفرقة المبنية على العرق. انضم لمجموعة من النشطاء باسم "العلم من أجل الشعب" . خاض الكثير من المعارك الثقافية والعلمية حول نظرية داروين ونظرية التطور ، من أجل تصحيح المفاهيم الخاطئة التى انتشرت حولها دون وجه حق . كتب بعض المرجعيات العلمية كان آخرها كتابه "تركيب نظرية التطور" The Structure of Evolutionary Theory الذى انتهى منه قبل وفاته ، هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب العلمية للعامة ، وقد حصل على العديد من الجوائز والميداليات ، بالإضافة إلى ٤٤ درجة شرفية ، و ٦٦ درجة زمالة .

المترجم فى سطور:

محمود أمين خيال :

- أستاذ متفرغ بكلية طب الأزهر بقسم الفارما كولوجى (الأدوية).

- تخرج من جامعة القاهرة ثم حصل على الدكتوراه من جامعة هايد برج بألمانيا الغربية فى ١٩٧١.

- سكرتير عام الجمعية المصرية للفارماكولوجى والعلاج التجريبى.

- مقرر اللجنة القومية للفارما كولوجى بأكاديمية البحث العلمى.

المحرر فى سطور:

محسن يوسف :

مستشار المشروعات الخاصة بمكتبة الإسكندرية، كان خبيراً فى اليونسكو والبنك الدولى ، وغيرهما من المؤسسات الدولية والإقليمية فى مجالات التعليم وتخطيط تطوير الموارد البشرية ، كما عمل أيضاً فى مجالات الإعلام والمشروعات متناهية الصغر لمساعدة الفقراء، وخاصة من النساء ، كما شارك فى عديد من المؤتمرات والندوات حول التنمية المستدامة ، ومحاربة الفقر والجوع ، وشارك فى العديد من البحوث والدراسات حول تنمية المجتمع المحلى وهجرة العمال وسوق العمل والإعلام والمعلومات.

المقدم في سطور:

أ.د. إسماعيل سراج الدين :

مدير مكتب الإسكندرية ، ويرأس مجالس إدارة المعاهد السبعة والمتاحف الثلاثة التابعة للمكتبة ، وقد نال درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٧٢ ، وشغل بعدها عدة مواقع في البنك الدولي حتى عين نائباً لرئيس البنك في عام ١٩٩٣ ، وظل بهذا المنصب حتى استقال منه عام ٢٠٠٠ ، وقد حصل على ١٧ دكتوراه فخرية من جميع أنحاء العالم ، كما ينتمي إلى عضوية العديد من الأكاديميات والمؤسسات العلمية ، ورئيس وعضو اللجان الاستشارية في عديد من المعاهد والهيئات البحثية والعلمية والدولية ، وقد قام بتأليف وتحرير أكثر من ٥٠ كتاباً ، بالإضافة إلى ٢٠٠ مقالة وبحث تقني في مجالات الاقتصاد والعلوم والثقافة والأدب والعمارة ، وله اهتمام خاص بمحاربة الفقر وقضايا المرأة وحقوق الإنسان وعمالة الشباب والبيئة وشئون المياه .

التصحيح اللغوى : **سلوى عبد العظيم .**

الإشراف الفـنى : **حســـــن كـامــل .**



يعد هذا الكتاب من أبرع الكتب التى تناولت قضية الصراع بين التيارات العلمية وتحليل جذورها وأسبابها.

ويتناول المؤلف تلك المشكلة المزمنة برشاقة بالغة وبعقلانية شديدة؛ ليخلص فى النهاية إلى ضرورة احترام كل من المؤسسة العلمية والمؤسسة الدينية؛ فكل منهما مكمل للآخر وضروري لتكامل الإنسان ومسيرة الحياة. ذلك مع التأكيد على أهمية الفصل بينهما وعدم الخلط بين أى جزئية منهما مهما بلغت مساحتها.

ويعدّ الكتاب نموذجًا للفكر التحليلى الموضوعى، البعيد عن التعصبات والتشنجات التى كثيرًا ما تسى، إلى صورة أى من الدين أو العلم، وتقدم للقارئ أسلوبًا راقيًا للحوار البنّاء بين أهم مؤسستين تقومان عليهما حياة الإنسان.

